

ديستوفسكي

المساكين

رواية



ترجمة: صوفي عبد الله

المساكين

تأليف

دوستوفسكى

ترجمة

سعد الغزالي

دار الطباعة الحديثة
٥ شارع غيط النوبى - ت ٤٩٣١٨

ف . م . دوستويفسكى

حياة دوستويفسكى مأساة روح عقيمة . تأثرت بآلام البشر . فقد حملت عبقريته عبء المظالم الاجتماعية وما يعانيه الناس من عذاب ثم ما لبثت أن ناءت بما حملت ، فتحطمت هي نفسها تحت هذا العبء .

ولد فيورود مينخايلوفتش دوستويفسكى في موسكو سنة ١٨٢١ وعاش إلى سنة ١٨٨١ ، وكان أبوه طبيباً في مستشفى خيرى ، وفي ١٨٤٣ أنهى دوستويفسكى دراسته في مدرسة الهندسة العسكرية بسانت بطرسبرج ، والتحق بمكتب التصميمات بوزارة الأشغال . ولما لم ترضه الوظيفة استقال في سنة ١٨٤٤ وبدأ حياته الأدبية .

وكانت أولى أعماله رواية المساكين وهي التي جلبت له الشهرة .

ورواية المساكين ، مهداة — إلى « البؤساء » الذين هضمت حقوقهم ، وداستهم الأقدام ، والذين وصفهم بعمق وحرارة وإحساس وبطل هذه الرواية كاتب بانس يحترقه الجميع هو — ماكار اليكسييفتش — الذى حطمته الحياة ، حتى لينحسب الاعتراف بأنه بانس .

والرواية مكتوبة في صورة سلسلة من الخطابات لا يعلق عليها الكاتب ، والواقع أن هذا قد أتاح له أن يكشف عن أعماق الأغوار في عقلية بطله... هذه العقلية التي تبدو تافهة أحياناً ، مضحكة أحياناً أخرى : أحياناً تنير الضحك ، وأحياناً تافهة .

وقد كان دوستوفسكى تلميذاً لجوجول وبييلنسكى ؛ لذا فقد وعى أرقى ما وصل إلى عصره من أدب ، وإن يكن كيانه الروحي قد اهتز اهتزازاً عنيفاً عندما حوكم لاتصاله بجماعة سياسية تقدمية ، وحكم عليه بالإعدام ، ثم خفض الحكم بعد ذلك إلى النفي ، بعد أن عانى المؤلف ما عانى من الإجراءات الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام .

وعاد من منفاه بعد سنوات عشر ، ولكنه لم يعد الرجل الذى كان قبل أن يعانى هذه المحنة : كان قد فقد إيمانه « فى طبيعة الإنسان نفسها ، فلجأ إلى الدين يطلب العزاء .

وقد وصل مؤلف « المساكين » إلى ذلك الحب المسيحى السلبى الذى يقول عنه « ا . هرذن » : « إن الحب السلبى قد يكون قويا ؛ فهو يبكى ويتحدث ويمسح الدموع ، ولكن المشكلة أنه لا يفعل شيئاً .

ولا تخلو كتابات دوستوفسكى من بعض الأفكار الرجعية حينها يعرض للمظالم الاجتماعية بعد أن فقد إيمانه بالبشر ، مما يدفع بالرد إلى التأمل السلبى للشر وإلى الفساد الاجتماعى ومع ذلك فإن ما فى عمله من صدق سيعيش إلى الأبد ...

أف . . من هؤلاء القصاصين . . . ١١

ألا يستطيعون كتابة شيء نافع أو ممتع أو مبهج ؟

كلا ! فإنهم لابد أن ينبشوا كل القاذورات !

ليتني أستطيع أن أمنعهم من الكتابة على الإطلاق . .
فما فائدتها ؟ إنك لتقرأ ما يكتبون ولا تملك إلا أن تفكر ،
وتقفز إلى ذهنك كل أنواع التفاهات !

. . ليتني أستطيع أن أمنعهم من الكتابة جميعاً . .
ليتني أستطيع حقاً . . .

أوسيف . ف . ف . أودوفسكى



٨ من أبريل :

حبيبتي فارفارا اليكيسفنا

كنت سعيدا الليلة الماضية ، سعيدا إلى درجة لا يتصورها العقل ، إذ فعلت مرة في حياتك يا حبيبتي العنيدة كما طلبت منك. كانت الساعة الثامنة مساء عند ما استيقظت (وأنت تعلمين أنني مغرم بإغفامة قصيرة بعد العمل) . فأحضرت شمعة ، وأعددت أوراقى ، وكنت أشذب ريشتى عند ما تصادف أن رفعت بصرى . ولشد ما خفق قلبي . . . إذ أخيرا فهمت ماذا أردت ، وما يتمناه قلبي ! كان ركن ستارك مثلنا بوعاء الريحان كما اقترحت أنا تماما ، بل لقد بدا لي أن وجهك الصغير يضيء خلف النافذة ، وأنتك تختلسين النظر .. وتفكرين في .. وأى أسى ملأني يا يمامتى الوديعه إذ كنت لا أستطيع أن أرى في وضوح وجهك الصغير الحبيب . فأنا أيضاً كنت يوماً ما قوى البصر بيد أن الشيخوخة ليست نعمة على الإطلاق يا عزيزتى ، كل شيء قد طمس ، وقليل من الكتابة في المساء يشير التهاب العين ويملؤها بالدموع في الصباح حتى لينخجل المرء أن يراه الغرباء ، ولكن ابتسامتك يا ملاكى ، الصغير كانت تضيء عقلي ! ابتسامتك الحلوة الجميلة ! .

وملا قلبي الشعور الذى به أحسست يوم قبلتك : أتذكرين ؟ بل

لقد بدا لي أنك تزجريني يا صبيك الصغيرة . والآن : هل كنت تفعلين ذلك حقا ؟ يجب أن تخبريني عن كل شيء في خطابك القادم .

وما رأيك في حيلتنا الصغيرة مع الستار يا عزيزتي . ؟ رائعة أليس كذلك ؟ فأنا في عملي أو في نومي أو في صحوي أستطيع أن أعرف على الفور أنك هناك ، تفكرين في ، إنك تذكرينني ، إنك سعيدة وبخير . إنزال الستار معناه عندي طاب مساؤك يا ما كار اليكسيفتش ، وعندما ترتفع فإنها تعني ، سعدت صباحا يا ما كار اليكسيفتش ، أتمنى أن تكون قد نمت نوما هادئا . ، أو وكيف الحال يا مكار اليكسيفتش — لأنني سعيدة وبخير والحمد لله .

أترين يا عزيزتي كيف حققت هذه الحيلة الغاية منها ، . إنها لتجعل حتى الخطابات لا داعي لها .. إنها حيلة بارعة . أليس كذلك ؟ . إنها فكرتي ، فأنا ماهر في مثل تلك الأمور — ألا ترين هذا معي ؟

وحينئذ قد أخبرك يا صغيرتي فارفارا اليكسيفنا أنه على عكس ما كنت أتوقع نمت نوما هادئا طوال الليل . وهذا شيء يبعث على الرضا فالإنسان لا ينام جيدا في أماكن جديدة ، فإذا لم يكن ثمة شيء معين يجعلك لا تنام فهناك شيء آخر .

لقد صحوت هذا الصباح سعيدا نشيطا كالبلبل . وباله من صباح جميل يا عزيزتي ! كانت النافذة مفتوحة على مصراعها ، والشمس ساطعة ، والطيور

تفرد، وشذا الربيع يملأ الهواء، والطبيعة كلها مفعمة بالحياة، وكل شيء في انسجام أيضا، كل شيء كما ينبغي أن يكون في الربيع، بل لقد راودت خاطري بعض التأملات الممتعة هذا الصباح، وكلها تدور حولك يا عزيزتي .

لقد قارنتك بطير صغير في السماء، خلق لعزاء البشر وجمال الطبيعة... وهنا قفز إلى ذهني يا فارنكا أننا نحن البشر : نعيش في ضيق وقلق، ولذلك يجب أن نحسد الطير : البريئة المنطلقة في السماء ..

وهكذا أخذت أعقد في هذا المجال مقارنات سعيدة غامضة، وكان معي كتاب يا فارنكا، وفيه ستجدين أشياء كثيرة من هذا النوع، وبتفصيل أكثر أيضا. كل أنواع الأحلام تواردت إلى عقلي يا عزيزتي، ولا أستطيع إلا أن أكتب عنها. والآن. وقد أقبل الربيع أراها مبهجة مسلية رقيقة، وكلها في حالة وردية. هذا هو السبب في أنني أكتب مثل هذا، ولكن أصرحك بالحقيقة إنها : كلها من الكتاب، إن أحلام المؤلف مثل أحلامي، وكلها شعر إذ يقول :

ليتني كنت طيرا في السماء يقتنص ما يشاء !

... وهكذا يسترسل لي شعره . وهناك أفكار أخرى أيضا . ولكن دعينا من هذا . أفضل أن تخبريني أين ذهبت هذا الصباح يا فارفارا اليكسيفنا ، فقد كنت على وشك الذهاب إلى عملي عندما خرجت نشيطة مرحة من غرفتك، وكان مجرد النظر إليك متعة .

آه يا فارنكا - فارنكا لا تبتئسى . . إن الدموع لا تفيد . . صدقيتي
يا حبيبتى فقد تعلمت ذلك عن تجربة ، ومع هذا فأنت بخير الآن ، وصحتك
أفضل . وكيف حال فيدورا ؟ أية امرأة صالحة هي ! . أكتبي لى يا فارنكا ،
وخبريني كيف تعيشان معا ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟ إن فيدورا تفضب
أحيانا ، ولكن لا تهتمى ، إنها امرأة صالحة . . ليباركها الله

لقد كتبت من قبل عن تريزا ، إنها امرأة صالحة شريفة أيضا . . .
لقد كنت قلقا جدا ، كيف تتبادل الخطابات ؟ وهنا لحسن الحظ أرسل
إليها الله تريزا ، إنها روح عطوف ، وديعة كريمة ، ولكن ربة الدار
قاسية ، فهي تحملها من العمل فوق طاقتها . .

. . ياله من مكان ذلك الذى انتهيت إليه يا فارفارا أليسيفنا ! ياله
من كوخ وياله من مسكن ؟ لقد تعودت أن أعيش كراهب كما تعلمين ،
كان ذلك هادئاً منا حتى لتستطيعي أن تسمعى طنين ذبابة . أما هنا فضجة
وصراخ وشغب ، ولكنى لم أخبرك كيف حال المكان هنا ، ما عليك إلا أن
تتخيلي دهليزاً طويلاً جداً مظلماً قدرا ، وجدارا عاريا على اليمين ، وصفاً
من الأبواب على الشمال كأننا فى غرف يؤجرها شخص أو اثنتان أو ثلاثة ،
إنها فوضى . . فلك نوح حقاً ، ومع هذا فهم يبدوون كما لو كانوا أناسا
طيبين ، وذوى نشأة راقية وتعليم عال .

. أحدهم كاتب [له صلة بالأدب بطريقة ما] كثير الإطلاع ، يعرف

الشيء الكثير عن هوميروس وبرامبيوس (١) إنه أنواع المخطوطات
والمؤلفات الأخرى — وعن كل شيء رجل ذكي .

ثم هناك ضابطان من الجيش يلعبان الورق دائما ، وضابط بحري
أيضا ، ومدرس لغة إنجليزية . . . ولكن انتظري خطابي التالي يا عزيزتي .
سأصفهم بطريقة لاذعة كي أسليك ، سأصفهم كما هم بالتفصيل .

أما ربة الدار فأمرأة عجوز ضئيلة خرقاء ، تتجول بقفطان وشبشب
وتصيح في وجه تريزا طوال النهار . [إنني أعيش في المطبخ، أو ما يشبه المطبخ
ولم أجد جوار المطبخ مباشرة هناك غرفة] ويجب أن أقول إن مطبخنا
مطبخ جسيدي تماما . نظيف ولا مع [: والغرفة ليست كبيرة ، مجرد
جحر ، أو لعلني يجب أن أقول : إن المطبخ كبير وله ثلاث نوافذ ، وهو
مقسم ليكون غرفة أخرى : مسكنا إضافيا . إنه واسع مريح وله نافذة .
وهناك أعيش أنا . وباختصار كل شيء مرض تماما . والآن لا تظني أنني
أعني شيئا من وراء هذا كله ، ولكن مجرد ، أن أبين أن الغرفة جزء
من المطبخ ، وإن كنت أعيش في هذه الغرفة خلف الحاجز فإن هذا
لا يهم ! فلي وحدتي . وعزلي ، وأعيش في هدوء ووحدة .

* ١٥ « بارون برامبيوس — وهو الاسم المستعار للكاتب الشهير سنكوفسكي » .

أما الآثاث ، فعندى سرير ومنضدة وصندوق ذو أدراج وكرسيان .
وقد نصبت أيقونة أيضا . صحيح أنه قد توجد غرف أفضل من هذه .
ولربما أفضل منها بكثير . ولكن الشيء الجوهرى هو الراحة . أليس
كذلك ؟ ولهذا فقد عملت هذا كله من أجل الراحة ، ولا تظن أننى
أعنى شيئا آخر .

ونافذتك على الطرف الآخر من الفناء مباشرة ، والفناء ضيق ،
وأستطيع أن أراك تمرين ؛ كل هذا سيكون أكثر متعة لرجل وحيد
وأرخص أيضا . : فأجل غرفة فى المنزل تتكلف خمسة وثلاثين من
الروبلات ، مع المأكل . وهذا أكثر مما أطيق أما غرقتى فتكلفنى أربعة
وعشرين روبلا ونصف الروبل مع المأكل ، على حين كنت أدفع
قبل ذلك ثلاثين كاملة ، فاضطرت أن أحرم نفسى أشياء كثيرة .

وقد كنت فيما مضى لا أستطيع أن أشتري الشاى دائما ، أما الآن .
فأستطيع أن أوفر الكثير كى يكون عندى الشاى والسكر ، لست أدري كيف
أخجل من أن أعيش بدون الشاى يا عزيزتى ؛ فكل شخص محترم هنا ، وهذا
مخرج ، بل إن هذا هو السبب الذى يدفع الإنسان إلى شرب الشاى
يا عزيزتى : من أجل الآخرين — من أجل المظاهر ، من أجل الظهور
بمظهر لائق ، أمام الناس . ولولا هذا ما اهتممت ، فلست من النوع
الذى تثيره التوافه . وإذا ما احتجرت بعض المال من أجل « الطواريه » ،

من أجل حذاء أو قطعة من ملابس ، فإذا سيقى ؟ وهكذا يتلاشى مرتبتي كله .

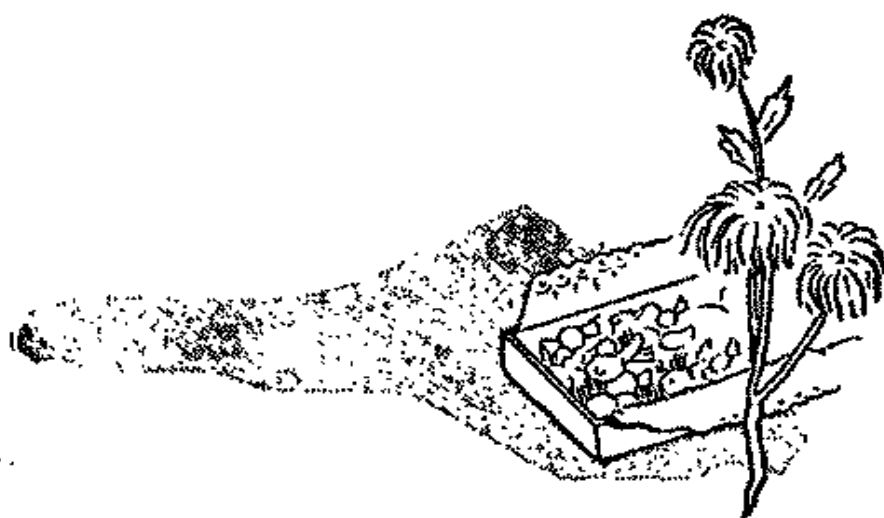
وليس معنى هذا إطلاقاً أنني أشكو ؛ فلقد كان مرتبتي يكفيني طوال السنين الماضية ، بل أحياناً أتلقى علاوات أيضاً .

وأخيراً ، إلى اللقاء ، يا ملاكى ، لقد اشتريت لك بضعة أوعية من الريحان والجيرانيوم * ، لقد كانت رخيصة . ولربما كنت مغرمة ، بالقرحنة .. إن عندهم ، تمر حنة ، أيضاً . وسأحضرها بمجرد أن تكتبي إلى ، ولكن أرجو أن تكتبي كل شئ بتفصيل أكثر .

وقبل أن أنسى يا عزيزتى ، لا تفكرى كثيراً ، لا تدعى الهواجس تساورك من ناحيتي لأننى استأجرت غرفة مثل هذه ؛ فإن رغبتى فى الراحة وحدها هى التى دفعتنى إلى ذلك ، ولا شئ غير الراحة . لأننى أدخر النقود يا حبيبتي ، وأعدها كي أكسو العشب بالريش ، وقد أبدو كما لو كانت ذبابة تستطيع أن تسقطنى بجناحها ولكن فكرى جيداً ؛ لأننى لست من هذا النوع . إننى أعرف من أنا ؟ إن لى خلق رجل حازم وفى روحه صفاء .. إلى اللقاء يا ملاكى ، الصغير ، لقد وجدت أننى كتبت صحيفتين كاملتين ، وكان الواجب أن أبدأ العمل منذ

وقت طويل ، إتنى أقبل أصابعك الرقيقة يا حياتى وسأظل . .
خادمك المتواضع وأخلص الأصدقاء
ماكار ديفشكين

ملاحظة : شيء واحد أرجوه منك : اكتبى لى يا عزيزتى بتفصيل.
بقدر الإمكان ، إتنى أرسل إليك رطلا من الحلوى يا قارنكا ، أتعشم أن
تتمتى بها ، وأستدلفك بالله ألا يساورك القلق من ناحيتى ؛ وهكذا ..
مرة أخرى .. وداعاً يا حبيبتى .



٨ من أبريل

عزيزى ماكار اليكسيفتش

أخشى أن أراى مضطرة قبل كل شىء أن أشاجر معك . أوكد لك
يا صديقى ماكار اليكسيفتش أنه يصعب على حقاً أن أقبّل هداياك وأنا
أعلم كم كلفتك ، وأى حرمان وأى إنكار للذات تقاسيه ، وكم من مرة
أخبرتكم أنى لأحتاج إلى شىء على الإطلاق ، أنت تعلم أنى لأستطيع
ن أجزيك على عطفك الذى تغمرنى به .

لماذا أرسلت هذه الأزهار ، فرع من الريحان ربما لا يهم ، ولكن
لماذا أرسلت الجيرانيوم؟ .. ما على المرء إلا أن تفلت منه كلمة كما فعلت أنا .
عن الجيرانيوم أترع أنت وتشتريها . ولا بد أنها غالية . ولكنها جميلة .
صلبان حر من الأزهار . من أين ياترى جئت بها ؟ .. لقد وضعتها فى
أبرز مكان من النافذة . وسأضع رفاً تحتها ، وسأضع على الرف أزهاراً
أخرى فقط : أنتظر حتى أصيب شيئاً من الثراء . إن فيدورا لا تمل النظر
إليها . إنها كالفرديوس ، نظيفة لامعة .

ولكن لماذا الحاوي ؟ إن خطابك جعلني أشعر أن شيئاً ما على غير مايرام، ففيه الشيء الكثير من الجنة : والربيع والشذى والطيور المغردة . وقد كنت واثقة من أن خطابك سيحوي شعراً أيضاً ، كان يجب أن تكتب بعض الأشعار يا ما كار اليكسيفتش ، فقد كان كل شيء موجوداً : المشاعر الرقيقة والأحلام الوردية ، وكل شيء .

أما عن الستار فإنني لم أفكر فيها أبداً . ولعلها علفت عندما كنت أرتب الأزهار .

آه يا ما كار اليكسيفتش : لا يهمني ما تقول ولا كيف تحاول إقناعي بأنك أنفقت نقودك كلها في شراء حاجاتك الشخصية، فأنت لا تستطيع أن تخفي عني شيئاً ، وأستطيع أن أرى أنك تحرم نفسك كل ضرورياتك من أجل . فما الذي جعلك تستأجر غرفة كهذه تشعر فيها دائماً بالضييق والتعب وتشعر فيها أنك مقيد غير مستريح ؟ إنك مغرم بالعزلة ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لن تجده هناك . وأنت تستطيع أن تعيش عيشة أفضل بمرتب مثل مرتبك ، ففيدورا تقول : إنك كنت تعيش أفضل من هذا بكثير . أمن المعقول أن تكون قد أنفقت حياتك كلها وحيداً ، في عز وكتابة ، دون كلمة من صديق ، وفي أركان شربية يؤجرها لك الغرباء ؟

أيها الصديق العطوف ، كيف يتألم قلبي من أجلك ؟ ولكن حاول علي الأقل أن تحافظ علي صحتك يا ما كار اليكسيفتش . أنت تقول إن عينيك تأذيان من الكتابة على ضوء شمعة ؛ إذن لماذا تفعل هذا ؟ من المؤكد

أن رؤسائك يعرفون أى مجتهد أنت ؟ فالحق أنك كذلك .

مرة أخرى أرجوك ألا تنفق نقودك كذلك من أجل . لأننى أعرف أنك تحببى ، ولكنك لست غنيا . فى هذا الصباح استيقظت أنا أيضا منسرحة الصدر، وشعرت بسعادة عظيمة تغمرنى، وكانت فيدورا تعمل لفترة طويلة ، وأحضرت عملا لى أيضا ، وقد جعلنى هذا سعيدة جدا ، وقد ذهبت لأشترى بعض الحرير ، ثم بدأت عملى . وكنت أشعر طوال الصباح بسعادة ومرح يملآن قلبى ، لكننى حزينة الآن وقلبى مثقل بالهموم .

ماذا سيحدث لى ؟ ماذا ينتظرنى فى المستقبل ؟ من المؤلم حقا أن يكون المرء قلقا ، وألا يكون لديه آمال ، بل حتى ولا فكرة ضئيلة عما سيحدث . أما الماضى فقد كان مريرا جدا حتى أن مجرد تذكره يحطم قلبى سأكبى حتى نهاية أيامى من هؤلاء الأشرار الذين حطموا حياتى .

الظلام يقبل ، ويجب أن أبدأ العمل ، وكنت أحب أن أظل فى الكتابة أكثر، من ذلك ولكن لاوقت عندى ، والعمل عاجل ، ويجب أن أسرع به .

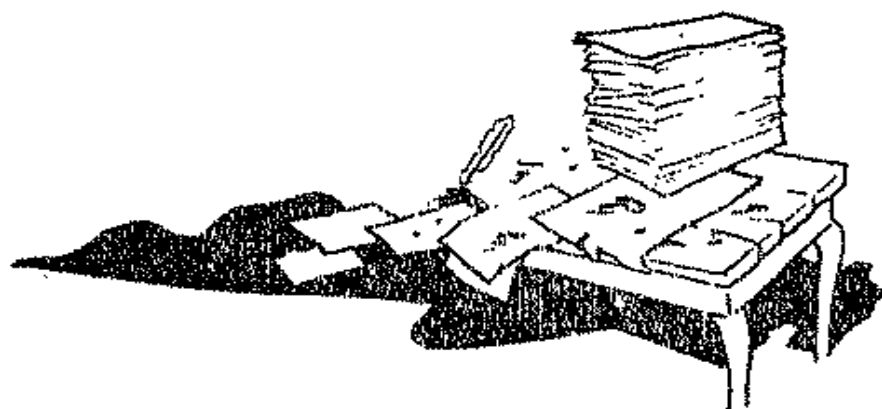
من الطبيعى أن تكون كتابة الخطابات شيئا لطيفا إذ يشعر المرء أنه ليس وحيدا ولكن لماذا لا تأتى إلينا أبدا ، لماذا يا ماكار أليكسييفتش ؟ والمسافة ليست بعيدة الآن ، وبالتأكيد ستجد الوقت للمجيء . أرجوك تعال ... لقد رأيت الآن فقط عزيزك تريزا . كانت تبدو

مریضة جدا ، وشعرت بالأسف من أجلها حتى أننى أعطيتها عشرين
كوبكا .

أوه لقد كدت أنسى . . أرجو أن تتحدث إلى بالتفصيل عن نوع
الحياة التى تحياها . وعن الناس الذين تخالطهم ، وما هى الطريقة التى
تعاشروهم بها . . نأكد من أنك لم تترك كبيرة أو صغيرة إلا ذكرتها . .
والليلة سوف أترك فتحة صغيرة عند ركن من أركان الستار خصيصا
من أجلك . . فاذهب إلى فراشك مبكراً . . فقد شاهدت بالأمس
شمعتك موقدة حتى منتصف الليل تقريبا . . حسنا . . إلى اللقاء ! أنى
أشعر الآن بحسب أنى حزينتك مكابدة وبسببها . . لعل ذلك نتيجة لليوم
الذى عايناه . . فإلى اللقاء .

صديقتك

فافارا دوروسيلوفا



٨ أبريل

عزيزتي فارفارا أليكسييفنا

أجل يا عزيزتي وحببيتي .. هذا هو اليوم الذي كان من نصيبنا التعسر ..
ولا شك أنك قد استوفيت نصيبك من السخرية بعجز مثل يا فارفارا
أليكسييفنا ! ولكننا غلطى .. غلطى وحدي .. رجل عجوز مثلي لم تلق
في رأسه غير شعيرات قلائل يتعرض لأكوييد وللعواطف ! ومع ذلك
سأقول هذا .. يا أعز مخلوق لذي — إن الإنسان مخلوق غريب في
بعض الأحيان فإنه يتحدث عن تفاهات خفيفة ، ويصل إلى أبعد الآمال .
ثم ماذا ينشأ عن هذا كله ؟ وماذا يعقب ذلك ؟ لا شيء على الإطلاق
اللهم إلا هذا الهراء الذي ادعوا الله أن يحفظنا منه ! إنني لست حانقا
يا حببيتي ، وإنما أشعر بالضيق كما فكرت أنه ما كان ينبغي على أن
أكتب إليك بهذه الطريقة المنمقة الخماء .

واليوم ذهبت إلى عملي سعيداً كما أنني أحد المملوك — كان قلبي مفعماً بالضياء ،
وروحى عامرة بالسكينة . وعكفت على أوراق متحمساً في بداية الأمر

ولكن عندما نظرت حولي بعد ذلك كان كل شيء جافاً
كثيلاً كسابق عهده : بقع الحبر والمناضد والأوراق كلها كما هي .. حتى
أنا أيضاً كنت كما أنا .. إذن لماذا جنح خيالي وإمتطيت ظهر
بيجاسوس ؟ ما الذي جعلني أرتكب مثل هذا العمل ؟ .. الآن الشمس
أضاءت من فوق ، وأحالت السماء إلى زرقة ، وأى ضياء أو شذا كان
هناك عند ما كان يحدث ما يحدث في الغناء تحت نوافذنا .. لا بد أن
هذا كله قد بعثه خيالي الأحمق ، وقد يشرد المرء أحياناً حتى لينسى
نفسه .. مجرد إفراط في حماس أخرق !!

ولكن هذا المساء .. وأنا في طريقى إلى منزل كنت أجز نفسي .
وفضلاً عن ذلك أخذ رأسي يؤلمني لسبب أو لآخر . إن الأشياء
تتناقب دائماً الواحد إثر الآخر : لعلمها الريح قد آلمت ظهري : فقد
كنت فرحاً بالريح حتى إننى وأنا على ما أنا عليه من حماقة قد خرجت
في معطف خفيف .

دعيني أقل يا فارفارا إنك أخطأت فهم مشاعري أخطأت فهمها
جميعاً ، كانت عاطفة أبوية ، مجرد عاطفة أبوية يا فارفارا . فنى يتمك
للموحش أخذت مكان والدك ، أقول هذا بكل إخلاص كما ينبغي أن
يقول قريب من أهلك : فما أنا بعد كل هذا إلا قريب بعيد ، أليس
كذلك ؟ ... قريب بعيد جداً طبعاً ، ولستنى مع هذا قريب منك .
والآن أصبحت أقرب الناس إليك ، وأول من يقوم على حمايتك :

لأنه حينما كان يجب أن تجدى المساعدة والحماية وجدت الحياة والإهانة،
أما عن الأسفار فالحق يا عزيزتى أننا لا تناسب رجلا مثل سنى أنت
ينسكب على صناعة الشعر . والشعر — يا فتاتى — عبث . عبث يضرب
من أجله الصغار فى المدارس هذه الأيام . هذا رأى فيه يا عزيزتى .

لماذا تكتبين عن الراحة والسلام وكل الأشياء الأخرى يا فارقارا ؟
لست بالمتأنق ، ولا أحتاج إلا إلى القليل ، ولم أكن أبدا أحسن مما
أنا عليه الآن . ولماذا أكون مدققا فى شيخوختى ؟ لبدى من الطعام
ما يكفينى ، ولدى بعض الملابس والأحذية ، لماذا اهتم بالمظاهر وأنا لم
أنحدر من سلالة الأمراء ؟ .. — كلا ، لم يكن أبى من النبلاء ، كان
يعول أسرة بدخل أقل من دخلى . وما أنا بالمترف ، لكن مع هذا —
إذا كان لابد للحقيقة من أن يقال — فإن مسكنى القديم أفضل من
الحالى بكثير ، كان شعورى بالمسكن أعمق مما هو الآن ، إن غرفتى
الحالية مناسبة طبعاً ، بل أكثر بهجة من بعض النواحي ، بل إذا شئت
الحق فهى خفيفة الظل ؛ ولا أستطيع أن أتقص من قدرها ، ولكنى
أحن إلى غرفتى القديمة أيضا . فنحن العجائز نتعلق بالأشياء . كانت
الغرفة صغيرة كما تعرفين ، أما — الجدران — حسنا — فكانت طبعاً
كأية جدران أخرى . إن الجدران لا قيمة لها . إنها الذكريات التى تجعلنى
حزيناً . والغريب أنها تحزننى لمجرد أنها ذكريات بهجة فى ذاتها حتى
الأشياء التى كانت كريهة والتى كنت أضيق بها يوماً ما تبدو الآن

جميلة رائعة .. كنا نعيش هناك في هدوء ، أنا والسيدة العجوز التي ماتت .. إن ذكرها لتثير شجني أيضا ، كانت امرأة طيبة ولم تكن تغالى مطلقا في إيجار غرفها ، وكانت دائما ترقع الأغطية بإبر طويلة جداً ، وكنا نشترك في ضوء شمعة واحدة ، وهكذا كنا نعمل على المنضدة ، نفسها . ولا بد أن حفيدتها « ماشا » قد بلغت الثالثة عشرة الآن مع أنى لأستطيع أن أتذكرها الا كطفلة .. وكما كانت شقية دائما تعبت بشيء ما وكما كانت تضحكننا .

وهكذا عاش ثلاثتنا : خلال ليالى الشتاء الطويلة ، كنا نتناول الشاي حول المائدة المستديرة على حين تروى العجوز من القصص ما يسلى الطفلة ويصرفها عن عبثها . ويألفها من قصص لم تكن للطفل لحسب بل الكبير والعجوز أيضاً قد ينسيان نفسيهما حين يستمعان إليها ، حتى أنا كنت أجلس أدخل غليونى وأستمع إليها ، حتى لأنسى كل شيء عن عملى .

والطفلة — هذه القطة الصغيرة من العبث — كانت تسند وجهها الوردى الجميل إلى يديها الدقيقتين ، وقد فغرت فافها الجميل ، أما إذا كانت القصة خيفة فانها كانت تلتصق بجذعتها ، وكما كان يسعدنا أن نتأملها عندئذ . وهناك .. كنا نجلس فننسى كل شيء : ارتعاش الشمعة ، والريح تعصف في الفناء .. وصوت الجليد يتساقط .

كانت الحياة جميلة حقاً يا عزيزتى : عشرون عاماً عشناها معاً على هذا
المووال ... ولكن قد أطلت . ولعل الموضوع لا يشوقك أبداً . وأنا
أيضاً لا أجد الأمر ممتعاً حينما أفكر فيه ، وخاصة الآن .

الظلام ينتشر . وتيريزا تثرثر فى بعض الموضوعات ورأسى يشقله
الصداع ، وظهري يؤلمنى قليلاً ، وأفكارى غريبة هائلة ، حتى لكأنما
هى أيضاً تألم . لأننى حزين اليوم يا فتاتى .

ولسكن ماهذا الذى كتبت يا عزيزتى . كيف أذهب لزيارتك ؟ وماذا
سيقول الناس ؟ فإذا ما اخترقت القناء ثارت الأسئلة . ثم الأحاديث .
ثم الإشاعات . وسيقولون كل ما يمكن من أخطاء !

كلا ، يا ملاكى ، الصغير ، من الأفضل أن أراك غداً فى صلاة
العشاء ... هذا أفضل ... وأقل مجلبة للضرر

أرجو أن تغفرى لى كتابة مثل هذا الخطاب ، فبعد أن قرأته مرة
تأخرى رأيت أنه يتألف كله من تفاهات غريبة . لأننى رجسـل عجوز
يا عزيزتى ، عجوز جاهل ، وحينما كنت صغيراً كان حظى من التعليم
ضئيلاً ، والآن حتى لو حاولت أن اتعلم من جديد لم يعلق بذهنى شيء .
وأصارع لك بالقول يا عزيزتى أننى لست ماهراً فى وصف الأشياء . وأنا
أعلم أننى حينما أحاول أن أعبر عن الأشياء بطريقة أكثر جمالا لا أفصح

إلا في كتابة مجموعة من اللغز . أعلم هذا جيدا دون حاجة إلى أن يخبرني
أحد أو يسخر مني مخلوق . لقد رأيتك اليوم وأنت تغلقين نافذتك .

وداعا ، وداعا ، ولي حفظك الله يا فارفارا اليكسفننا ..

صديقتك المخلص

ماكار دوفشكين

ملاحظة : لا أستطيع يا عزيزتي أن أكتب ساخرا عن أى مخلوق .
فأنا كمل عجوز لا يلبق بي أن أعبت وأسخر يا فارفارا . وسيضحك
الناس مني إذ يتذكرون المثل الروسى القديم . . . من حفر لأخيه
حفرة وقع فيها . .



٩ من أبريل :

عزيزى ماكار اليك سيفتش

ألا تخجل من استسلامك لمثل هذه الأهواء والنوبات يا صديقي
وصاحب الفضل على ؟ . أمكن أن أكون قد آلمتك حقاً ؟ أعلم أن
تفكيرى يطيش في أغلب الأحيان ولكنى لم أتخيل أبدا أنك قد تفهم
كلماتى على أنها سخريه منك . وأؤكد لك أننى لا أستطيع أن أجعل من
سبك أو من شخصيتك موضع سخريه لأنها مجرد جهالة منى ، أضف إلى هذا
أننى أحس اليوم بسآمة بالغة وأنت تعلم مدى ما تفعله السآمة بالمرء .
وأصرح لك بالحقيقة ، تلك هى أننى ظننت أنك كنت تتفكك في خطابك
وقد انقبض قلبى عندما رأيتك حزينا . وأنت تظلمنى يا صديقي إذا
ظننت في قلبك الإحساس أو وجود المعروف .

لأنى أقدر لك جيدا ما فعلته من أجل حينما قمت بحمايتى من أعدائى
ومن كراهيتهم واضطهادهم لى . سأصلى من أجلك دائما ، فإذا استجاب

الله لدعواتي، فستعيش سعيدا ١١.

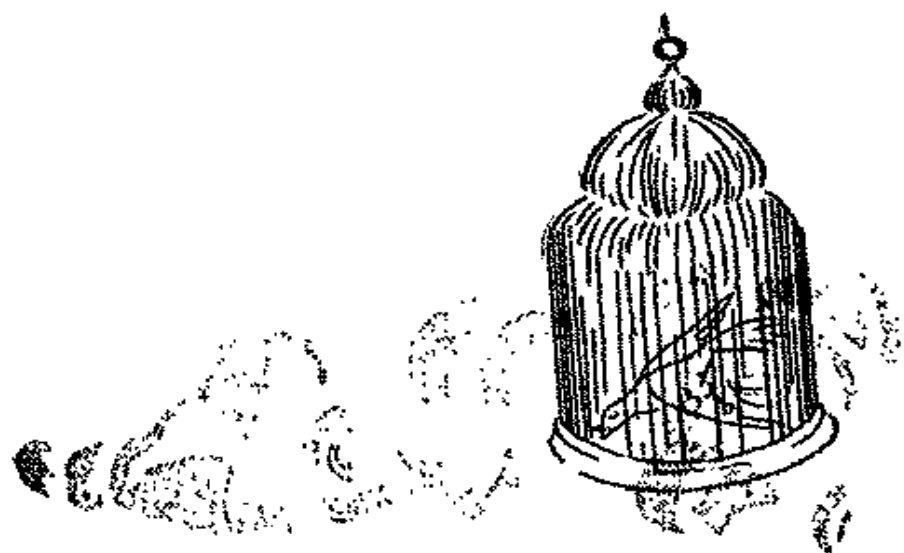
إنني مريضة اليوم ، وتنتابني نوبات من الارتعاش وارتفاع الحرارة
بما يقلق فيدورا .

وينبغي ألا تنجس من أن تأتي لزيارتي يا ماكار ، ولا تحسب للناس
حسابا ؛ فليهتموا بشئونهم .

وداعا يا ماكار ، لقد قلت لكل ما يجب أن يقال ، ولا أستطيع أن
أزيد . مرة أخرى لا تغضب مني وثق من احترامي الدائم وحبي .

خادمتك المطيعة

فارقارا



١٢ من أبريل .

عزيزتي فارفارا ...

ماذا ألم بك يا عزيزتي ؟ أى خطأ حدث ؟ .. إنك لتفزعيني دائماً ،
وفي كل خطاب أتوسل وأضرع إليك أن تحرصى على صحتك ، وأن تعنى
بتدفئة نفسك جيداً وأن تمكثى بالمنزل إذا ما أريد « الطقس » ، وأن
تحتاطى لسكل شيء . ولكنك تعصينى « يا ملاكى » الحبيب كأى طفل
صغير . لأننى أعلم أنك رقيقة كعود من العشب ، وأقل برد يلزمك
الفراش . هلا التزمت الحرص أينها العزيرة واعتنيت بنفسك حتى
تتجنبى كل شيء خطير وتوفرى عن أصدقائك مؤونة الأذى والقلق .

تريدى أن تعرفى كل شيء عن حياتى اليومية وعن جيرانى ؟ .. بكل
سرور يا حبيبتى ولكن دعينى أبدأ من البداية : فدرج المنزل الأمامى

أنيق حقاً ، وخاصة الدرج الرئيسى : إنه لامع واذليف ورحب ،
« والدرابزين ، من خشب الماهوجانى المظلى بالمعدن . أما الدرج الخلفى
فكلما قل ما يقال عنها كان ذلك أفضل . إنها لتلتوى كالحية ، رطبة عفنة
والدرجات محطمة ، والحوائط قدرة لزجة حتى لتلتصق أصابعك بها
إذا ما لمستها ، وأمام كل « شقة » أكوام عالية من السناديق والكراسى
القديمة وأحبال للغسيل . ومعظم النوافذ مكسورة ، وفي كل مكان صفائح
ملوثة بالقاذورات والشحم وقشر البيض وأشواك السمك . والرائحة
عفنة كريهة لا تطاق .

أما عن الغرف فقد أخبرتك كيف نظمت . مريحة حقاً ولكنها
ذات رائحة أيضاً . لست أعنى القول بأنها كريهة الرائحة فعلاً ، ولكن
رائحتها ليست بما يستساغ ، وهى مزيجية فى البداية ، ولكن لا يلبث
المرء أن يألّفها فى دقائق معدودات ؛ ذلك أن كل شيء هنا له رائحته
الخاصة حتى الملابس والأيدى . غير أن عصفير الكانارى سرعان
ما تموت هنا . وقد اشترى الضابط البحرى الذى يعيش هنا عصفوره
الخامس اليوم فحسب ، ولكن الكانارى لا تستطيع تحمل الهواء هنا .
والجو ككره فى الصباح عندما يطبخ السمك واللحم ، ويمتلئ المطبخ
بالقاذورات ، ولكنه جميل فى المساء : إذ يصبح المطبخ لامعاً رحباً مليئاً
بالغسيل القديم الذى علق ليجف . وقد تثير الرائحة شيئاً من الضيق ،
لأن حجرتى مجاورة للمطبخ . . ولكن لا يروعك هذا كله ، إذ يستطيع
المرء أن يألّفه إذا ما عاش هنا مدة كافية .

والمنزىل يمزج بالحركة منذ الصباح الباكر الكل يستيقظون ويتجولون فى الدار سواء من كان لديه عمل أو من لم يكن لديه ، ونحن نتناول الشاى معاً جميعاً ، ومعظم مواعيد الشاى « ساموفار » تمتلكها ربة الدار ولا يوجد ما يكفى منها . فعلى كل أن ينتظر دوره ، وإذا ما حاول شخص منا أن يتعدى دوره انقضت عليه المجموعة كلها نائرة . وقد حدث لى هذا فى المرة الأولى وإن كان هذا لا يستحق الذكر ، وفى هذه المناسبة تعرفت على الجميع ، وكان أولهم الضابط البحرى . وهو روح ودود فقد أخبرنى بكل شىء عن أبيه وأمه وأخته [وهى متزوجة ضابطاً فى تولا] وأخبرنى كذلك عن مدينة كرونستاد ، وقد عرض على حمايته ثم دعانى إلى الشاى من وقت لآخر . ووجدته فى غرفة لا ينتهى فيها لعب الورق أبداً . وبعد أن تناولنا الشاى ألحوا على فى الانضمام إليهم ، ولست أدرى أكانوا جادين فى هذا أم عابثين ، كانوا يلعبون طيلة ليلهم واستمروا يلعبون عند ما دخلت عليهم . وقد وجدت الأوراق توزع والطباشير يكتب ورائحة الطبايق تملأ جو الغرفة . وعند ما رفضت المقامرة طلبوا منى أن أكف عن الفلسفة ، ثم لم يجاذبنى الحديث شخص قط — والحق أننى لم أكرث لهذا ، ولن أذهب إليهم بعد ذلك أبداً ، فهاهم الا مقامرون . . ألحق أنهم كذلك . مقامرون . أما « الأديب » فهو ينظم الحفلات فى غرفته أيضاً ، ولكنها حفلات بريئة محترمة شائقة وعلى مستوى رفيع .

وأضيف إلى هذا يا فارنكا أن ربة الدار امرأة عجوز شريرة ، ولقد رأيت أنت تريزا وتعلمين كم هي نخيلة حتى لكانها دجاجة عجفاء . وهنا خادمان لحسب : تريزا وفالدوني ، ولربما كان لفالدوني اسم آخر ، ولكنه يجيب من يناديه بفالدوني ، وهكذا يناديه الكل بفالدوني ، وهو أحر الشعر بطيء الفهم معقوف الأنف وفي شجار دائم مع تريزا حتى ليكاد أن يتبادلا اللكمات أحيانا .

وبوجه عام فالحق أقول إن الحياة هنا ليست بمتعة أبداً . وهم لا ينامون جميعا في وقت واحد ، فبعضهم يلعب الورق دائما ؛ بل يتحدث أحيانا أشياء أخجل من ذكرها . لقد ألفتها ولكني لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التعجب : كيف تستطيع عائلة أن تعيش وسط هذه الفضائح ؟ فهنا عائلة فقيرة تسكن الغرفة التي تقع على الجانب الآخر من القاعة ، حجرة في ركن منزو حتى توشك أن تكون منفصلة عن غيرها ، وأفرادها قوم هادئون يكاد لا يلاحظهم أحد ، يعيشون في صمت عجيب . والاب — واسمه جورشكوف كاتب عاطل فصل لسبب ما من وظيفته منذ سنوات سبع . وهو رجل ضئيل أشيب الشعر ، رث الثياب حتى ليتألم المرء من مجرد النظر إليه . ومعطفه أسوأ حتى من معطفي .

ونحن نتقابل في الدهليز أحيانا ونحتاج ركبتاه حين يمشي وترتعش يده ورأسه أيضا من مرض يعانيه أو لسبب آخر لا يعلمه إلا الله . وهو ينطوى على نفسه خجلا من الجميع غارقا في عزلة . ولعلني أبدو

نحجلا أنا أيضا ولكنه أكثر نحجلا منى . وله زوج وأطفال ثلاثة أكبرهم ضئيل نحيل مثل أبيه ، أما الزوج فلا بد أنها كانت جميلة ذات يوم ، فإن المرء ليستطيع أن يرى آثار جمالها حتى اليوم . ولكن المسكينة لا ترتدى إلا الحزن أيضا ، ولقد بلغت أنهم متأخرون عن دفع الإيجار ، ومهما يكن من أمر فصاحبة الدار لا تعطف عليهم أبدا .

وبلغت أيضا أن جور شكوف قد فقد وظيفته بسبب شيء ما يتعلق بتحقيق أو قضية لأدرى بالضبط ، ولكنهم فقراء . يا إلهي ، كم هم فقراء !! إن صوتا واحدا لا يصدر عن غرفتهم أبدا وكأنما لا يعيش فيها أحد . حتى الأطفال لا يصدر عنهم صوت ! ولم أرهم قط يعيشون أو يلعبون وهذا نذير سوء . .

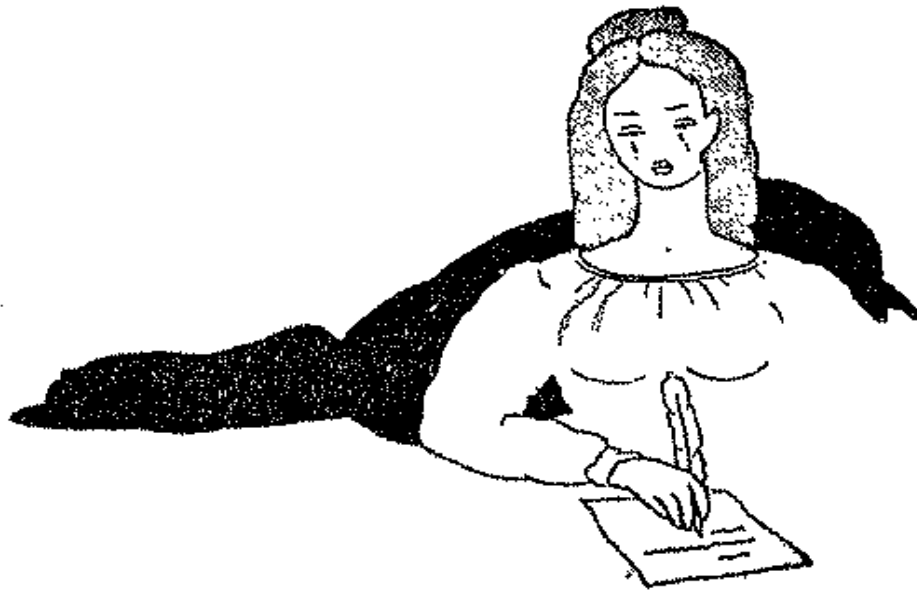
وذات مساء . . والمنزل ساكن على غير العادة ، تصادف أن مررت ببابهم فسمعت شهقة بكاء ثم همسات ثم شهقات أخرى وكان يبدو أن شخصا ما يبكي بحرقة ومزارة حتى لقد حطم بكاءه قلبي . وظللت أفكر فيهم طوال الليل حتى جفاني النوم .

أخيرا ، وداعا يا فارنكا يا فتاتى الصغيرة التى لا تقدر بشئ . لقد وصفت كل شيء على قدر ما استطعت . لقد ظللت أفكر فيك وفيك وحدك طيلة يومى والقلق يملؤنى عليك يا حبيبتي ، لأننى أعرف أنك بحاجة إلى معطف بدفئك فى الربيع فى بطرسبرج برياحه وأمطاره

وثلوجه — إننى أخشاهما يافارتكا ، ولينقذنا الله من هذا الفصل المتقلب .
ولا تنضبك يا عزيزتى الطريقة التى أكتب بها . فليست أتمتع بأسلوب —
لست أتمتع بأسلوب على الإطلاق ، ولينتنى كنت ذا أسلوب ، إننى
أكتب ما يرد إلى خاطرى وربأتى أن أبهجك قليلا . ولو كنت قد نلت
قسطا وافيا من التعليم لاختلف الأمر ، ولكن أى نوع من التعليم نلته ؟
ما يساوى كوبك لا أكثر !

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين



٢٥ من أبريل

عزيزى ماكار...

قابلت اليوم بنت عمى

وساشا، كان منظرها مروعا؛ إنها فى طريقها إلى القناء.

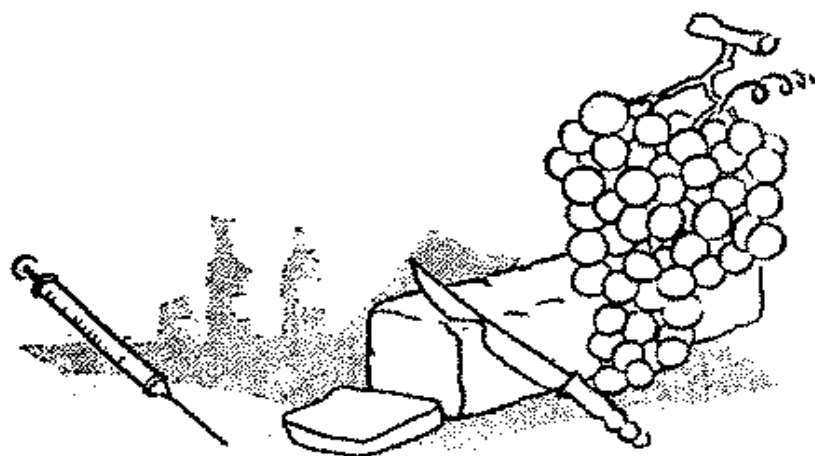
وقد بلغتني شائعات أيضاً أن أنا فيدور فنتا نقوم بتجرباتها عني. ألا
تركني هذه المرأة فى حالى أبداً؟ إنها تريد أن تصفح عني. وأن
تغض الطرف عما سلف وفي نيتها أن تزورنى قريباً. وهى تزعم أنك لست
قريباً لى وأنها أقرب إلى، وأنه ليس لك الحق أن تتدخل فى شئون
عائلتنا، وأنه يجب أن ينتابني الحزن لأننى أعيش على عطفك وإحسانك.
وهى تزعم أننى قد نسيت كرم ضيافتها، ونسيت أنها هى التى أنقذت
أمى وأنقذتنى من الهلاك جوعاً، وظلت سنتين ونصف السنة تنفق
على رعايتنا وإطعامنا. وأنها على الرغم من هذا كله تريد أن تتنازل

عن ديوننا . . ولم ترحم حتى والدتي المسكينة . . آه لو تستطيع أى أن تعرف ما فعلوه بي . ولكن الله يرى كل شيء . وآنا فيدور فئنا نزعم أننى الملوثة وحدي إذ أضعت سعادتي التي أرشدتني هي إلى الطريق إليها . وليس عليها هي من خطأ مادمت لا أستطيع أو ربما لا أرب أن أنقد سمعتي إذن بربك خطأ من هذا ؟ ثم هي تقول : إن مستري يكون على حق . وإنه ما من رجل ينتظر منه أن يتزوج امرأة ولكن ما فائدة كتابة هذا كله . من العسير يا ما كار أن يتحمل المرء افتراءات مثل هذه إننى لا أ كاد أعلم ما يحدث لي . لأنني أجلس هنا . أرتعش ، وانهد . . . وأبكى . أتعرف أن كتابة هذا الخطاب قد استغرقت من وقتي ساعتين . لقد كنت واثقة أنها يوماً ما ستدرك على الأقل وتعرف بمدى الإساءة التي ألحقها بي . ولكن هذا أنت !

لا تفلقك صحتي يا صديقي الوحيد فقيد ورا تبالغ دائماً ، فليست مريضة إنه مجرد برد خفيف ألم بي أمس عندما ذهبت إلى القديس في فولكونو . لماذا لم تأت معي ؟ . . لقد رجوتك أن تفعل .

آه . . يا أمي العزيزة المسكينة . . لو استطعت أن تمنهني من قبرك ، . . لو استطعت أن تعرفي وأن ترى ماذا فعلوا بي ؟ .

ف . و



٢٠ مايو

فارفسكا — يا يمامتى ...

أرسل إليك شيئاً من العنب يا حياتى ، فالعنب مفيد للناقمين ،
والأطباء يوصون به لاطفاء الظمأ ، ولهذا السبب أرسلته ، لمجرد إرواء
العطش . وإليك أيضاً شيئاً من الخبز الأبيض الذى طلبتيه منى بالأمس
المهم كيف حال ميلك للأكل يا عزيزتى . . هذا ما يعنينى قبل كل شيء
وشكر الله ، إن كل شيء قد انتهى وإن متاعبنا تقترب من نهايتها .
لنشكر الله على هذا . أما عن الكتب فلم أستطع أن أحصل عليها بعد .
إنهم يتحدثون عن كتاب قيم أبدع المؤلف فى كتابته ، إننى لم أقرأه
ولكننى سمعت الجميع يمتدحونه ، ووعدوا أن يعيرونى إياه أيضاً ،
ولكن هل ستقرئينه ؟ فأنت من هذا النوع الذى يصعب إرضاءه ومن
العسير إشباع ذوقك . إننى أعلم هذا جيداً يا عزيزتى ، ومن المؤكد أنك
ترغبين فى قراءة شيء شاعرى ، شيء مليء بالتهنيدات والحب . ولكننى مع

هذا سأتى بك بهذا الكتاب وعندهم أيضاً كراسة فيها شعر منسوخ .

أما أنا فبخير وأرجوك ألا تقلق أبداً يا حبيبتي ، ولا تلقى بالالما
تحدثك به فيدورا ، وقولي لها : إنها ثرثرة عجوز . أخبريها بهذا الحسب .
لأنني لم أبيع كسوة عملي الجسدية ؛ فلماذا أبيعها ؟ وماذا يدفعني إلى
بيعها ؟ وقد ترامي إلى سمعي أنني سأمنح بضع روبلات كأجر إضافي ،
إذن فلا تحملي هما يا عزيزتي وأنت تعرفين أن فيدورا ثرثرة . ثرثرة
وعصية . إن أياها سعيدة سوف تقبل علينا . . . ولكن يجب أن تهتم
أولا بصحتك . استحلفك بالله أن تهتم بها ولا تخيبي أمل رجل عجوز .

ويا ترى من أخبرك أنني قد أصبحت هزيلة نحيلة ؟ إنها ثرثرة
لا أكثر . . مجرد افتراء . لأنني على خير ما يكون . بل لقد أصابته سمعة
حتى لا نخجل من نفسي . وباختصار : إنني أعيش في بحروحة .

وداعا يا ملاكي ، المحبوب ، وإنني لألثم أصابعك الصغيرة إصبعاً
إصبعاً وسأظل دائماً

صديقك المخلص

ماكس

ملاحظة :

ولكن ما هذا الذي تسكتين يا حبيبتي ؟ . كوني عاقلة ! كيف
أستطيع أن آتي لزيارتك كثيراً : كيف أستطيع أن أفعل شيئاً كهذا .

لا تتوقعى منى ذلك ، اللهم إلا تحت جناح الظلام .. وأى ظلام يبق من
الليالى فى هذا الفصل . وعندما كنت مريضة تهدين لم أكد أفارق فراش
مرضك . أما كيف استطعت أن أفعل هذا فذلك ما لا أستطيع فهمه .
ولكن كان على أن أترك خشية السنة السوء . وحتى مع هذا فقد أخذت
الأسنة تتحدث . لأننى أثق كلية فى تريزا . فهى ليست من النوع الثرثار .
ولكن تخيلى ماذا سيحدث لو عرفوا أكثر من هذا عنا ، وأى أفكار
شريرة وأى أحاديث ستقولوها . ألا صبرت يا عزيزتى وانتظرت .
— حتى تتحسن صحتك — وعندئذ سيكون لنا موعد للقاء ..



الاول من يونيو .

عزيزى المحترم ما كار

طالما تمنيت من أعماق أن أفعل شيئاً تحبه، أن أرضيك بطريقة أرد
بها ما أظهرته من إخلاصى فأخذت أفتش فى صندوق أدراجى حتى
وجدت هذه المذكرات التى أرسلها إليك . لقد بدأتها فى أيام غامرة
بالسعادة ، ثم أكملتها فى فترات متباعدة . ولطالما سألتنى أنت، عما سلف
من أيامى : عن أمى ، عن بوكروفسكى ، عن حياتى مع آنا فيدورفنا ،
ثم عن المتاعب التى عانيت فيها أخيراً ، وكنت متلهفاً على قراءة هذه
المذكرات التى سجلت فيها — ولست أدرى لماذا — مناظر متعددة
من الماضى كلما سئمت لى الوقت . وأنا واثقة أن قراءتها ستبعث السرور
إلى نفسك ، أما بالنسبة لى فإن الحزن يعتربنى كلما قرأتها ، وأبدو أمام
نفسى وكأننى ضعف عمرى عندما كتبت السطور الأخيرة من هذه

المذكرات وداعا ياما كار . لأننى منهكة وحييدة أقاسى من الأرق ،
فيالها من فترة نقاهة متعبة !

ف . د

كنت فى الرابعة عشرة من عمرى عندما مات أبى . وكانت طفولتى
أسعد أيام حياتى ؛ إذ كان والدى ناظراً للضياع الواسعة التى يملكها
الأمير « ب » ، فى جبرينا . وهناك فى إحدى قرى الأمير البعيدة . . .
عشنا عيشة سعيدة هادئة لا يلاحظنا فيها أحد . وكنت طفلة دافقة الحيوية
أجرب دائماً هنا وهناك . فى الحدائق والمراعى والغابات .

أما والدى فكان فى شغل دائم بشئون الضيعة على حين كانت أمى
مشغولة بشئون المنزل ، لذا فقد كنت حرة أفعل ماأشاء ، ولم يكن
هناك من يعنى بتعليمى ، وكان هذا يسعدنى . فإذا ماأقبل الصباح
الباكر هرعت إلى غدير أو أجمة من شجر أو راقبت قاطع التبن
أو جامعى الحصاد ، غير مكترثة لو هج الشمس أو عابثة بابتعادى كثيراً
عن المنزل ، أو عما إذا كانت الشجيرات قد نحدثت يدى ووجهى
ومزقت ردائى . وما كان يهمنى قط لو عنفونى على هذا فى المنزل
بعد ذلك .

ولو أننى قضيت بقية حياتى فى هذه القرية لكننت أسعد الناس ،
ولكن القدر أراد غير هذا ، إذ كنت لأزال طفلة فى الثانية عشرة من
عمرى عندما انتقلنا إلى سانت بطرسبرج . . . وكم يؤلمنى أن أتذكر
كيف بدأنا نستعد للرحلة ، وكيف بكيت عندما ودعت كل شىء عزيز
على ، ثم كيف تعلقت برقبة أبى أتضرع إليه أن يبقى قليلا ، فتضايق أبى
منى ونهرنى على حين بكيت أبى قائلة : إنه لا مفر من الرحيل ، فهذا
ما تتطلبه أعمال أبى .

وكان الأمير دب، العجوز قد مات واستغنى ورثته عن خدمات أبى
الذى كان قد استثمر قليلا من المال مع بعض ممن يشق فيهم فى بطرسبرج
وقد رأى له الآن إن وجوده فى العاصمة قد يصلح من أحوالنا . وقد
أخبرتني أمى بهذا كله فيما بعد . ولما وصلنا إلى العاصمة نزلنا فى بطرسبرج
ستورونا واستمر بنا المقام هناك حتى وفاة والدى .

وكم كان عسيرا على أن اعتاد على هذه الحياة الجديدة . لقد وصلنا
إلى المدينة فى الخريف ، ويوم تركنا القرية كانت الشمس مشرقة والدفء
يبدئ المرح والحياة ، والعمل فى الحقول قد انتهى أو كاد . والأرض قد
هيئت وبذر فيها الحب ، والطير ترفرف جائعة فوق الرؤوس . كان كل
شىء مشرقا مليئا بالحياة ، ولكن يوم وصلنا إلى المدينة لم نجد سوى
المطر والبرد القارس ، وأحوال الخريف تظللها سماء قاتمة ، وفى الشوارع

جماهير من الغرباء فيهم انطواء وعداء وكآبة وانتهى الأمر بأن استقر بنا المقام بعد كثير من الجهد وكثير من هذه المضايقات التي تصحب عادة تنظيم المنزل . وكنا لانكاد نرى أبي أبداً على حين كانت أمي مشغولة دائماً وهكذا أهملنا الجميع . وباله صباح حزين كان صباحي الأول بعد وصولنا كانت نوافذنا تطل على سور أصغر ، ثم شارع لاتجف فيه الأوحال أبداً ، والمارة قليلون كلهم يختبئون في معاطفهم خشية الريح .

وكان منزلنا أيضاً كثيباً مقبضاً طيلة اليوم ، إذا لم يكن لدينا صديق أو قريب تقريباً ، وكان بين أبي وبين أنا فيدور فناء جفوة [إذ كان مدينا لها ببعض المال] ، ولم يكن يزورنا عادة سوى من يتصل بهم بصلة العمل ، وكانوا يتشاجرون عادة فيتناقشون ويصرخون ، وبعد انصراف مثل هؤلاء الزوار كان أبي دائماً منقبض القلب ، نائر الأعصاب ، وقد يظل يذرع الغرفة لساعات لاتنتهي ، فلا تجرؤ أمي على خطابه حينئذ ، أما أنا فأنتحي ركناً أجلس فيه وكتابي في يدي ، في هدوء .

وما انقضت على وصولنا إلى بطرسبورج أشهر ثلاثة حتى أرسلوني إلى مدرسة داخلية ، فياله من وقت حزين قضيته بين الغرباء ، كانوا كلهم نفورين : المدرسون يصيحون دائماً ، والفتيات يهزأن بي على حين كان السأم يتمسكني . كل شيء كان يمضي صارماً وفق مواعيد دقيقة : هناك ساعات محدودة لكل شيء . لتناول الوجبات العامة ، ولاستذكار دروسنا التي كانت تمضي في كآبة تعذبي وتملاً قلبي انقباضاً .

وشمت الحياة بادی الامر لم استطع نوماً ، بل كنت أستلقي
ياكية طيلة ليلي ، ويا لها من ليال كئيبة تمضي وكأنها بلا نهاية .

وحينما كنت أجلس أستذكر دروسي في المساء منسكية مع أفعالي
وجملی . جزعة من أن تصدر عني حركة ، كاز خيالي ينطلق بعيداً إلى
المزول : إلى أبي وأمي ، إلى مرضعتي العجوز وما كانت ترويه لي من
قصص وأساطير . واشتد بي الشقاء حتى لم أطق له احتمالاً وأى متعة
كنت أجدها لمجرد التفكير حتى في أفقه الأشياء في المنزل ، وإن أتمنى
وأتمنى لو أنني كنت هناك ، وأستطيع أن أجلس في غرفتنا الصغيرة ،
وموقد الشاي ينفث بخاره ، والوجوه الحبيبة التي ألفتها حولي ، وكل
شيء مريح دافئ جميل : وكنت تمنيت ساعتها أن أحتضن والدتي ، أحتضنها
حتى لأعتصرها . وكنت أبكي خلصة وأنا جالسة أفكر حتى أتلاشي
الدروس من ذهني وأظل طيلة ليلي أحلم بالمدرسين والناظرة والفتيات ،
وأتحيل أنني قد استذكرت دروسي جيداً حتى إذا ما أقبل الصباح كنت
أجهل الجميع ، فيسكون عقابي أن أركع على ركبتني ، ولا أتناول سوى
وجبة واحدة هي وجبة الغذاء . وقد كنت دائماً حريصة . وتعودت
الفتيات بادی الامر أن يسخرن مني ، ويغظطنني ويتعمدن لإخراجني عند
طوري أثناء إجابتي على أسئلة المدرسة ، وقد يقرصنني حينما كنا نمشي
أزواجاً إلى الغذاء أو الشاي ثم يشكونني إلى الناظرة عند أقل هفوة
ولكن أي متعة كنت استشعرها حينما تأتي مربيتني إلى في أمسيات السبت

وأى جنون كنت أحتضنها وأقبلها به ؟ كانت تدثرنى جيداً ثم نمضى معا ولكنها كانت لا تكاد تتابع خطاى ونحن فى طريقنا إلى المنزل وأنا أثرر عن شىء ما متى نصل إلى المنزل أخيراً فأفتحته مرحلة مشرقة الأسرار ، وأحتضن الجميع وأقبلهم كما لو كنت قد ابتعدت عنهم سنوات عشر . وأى اضطراب كنت أثيره بعد هذا . وأى أحاديث وأى قصص كنت أرويها . كنت أبادر كل شخص بالتحية ، وأضحك ، وأقفر هنا وهناك . ثم يتبع هذا حديث جدى مع أبى عند الدروس والمدرسين ، واللغة الفرنسية وأجرومية (اومند) على حين تغمر الجميع السعادة والرضا وكم يسعدنى أن أسترجع هذه الذكريات حتى هذه اللحظة .

وقد بذلت جهدى كى أتعلم دروسى جيداً لأرضى والدى . كنت أعرف أنه كان ينفق آخر كوبلك معه من أجل وأنه يدبر أموره بطريقة لا يعلمها إلا الله . ولكنه ازداد حزناً يوماً بعد يوم ، وازدادت ثورته وتبرمه حتى بات من العسير التفاهم معه . وتدهورت أحواله من سوء إلى أسوأ . وأثقلته الديون . وكانت والدتى تخشى مجرد البكاء أو الحديث فى حضرته ، إذ كان يثور بسرعة ، وبدأت تضجحل ، ويصيبها الهزال ، وتملكها سعال غفيف .

وعندما كنت أعود من مدرستى كنت أجد الجميع فى هم وحزن ؛ أبى ثائر ، ووالدتى قد احمرت عيناها اثر بكائها الحفى ، ثم هناك مشاحنات

ثور ، وألفاظ جارحة تقال ، ويشكو أبي أننى لا أمنحه أية سعادة أو عزاء ، وأنه أنفق آخر ماله على تعليمى ، وأننى لم أتعلم حتى الحديث بالفرنسية ، وباختصار ، كان يحملنى ووالدى وزر كل النكبات والمصائب التى نزلت به ... وكيف كان يعذب والدى ؟ ... كان مجرد النظر إليها يحطام قلبى ، كانت عظام وجنتيها نائمة وعيناها غائرتين وشحوبها عنيفاً . ولكن كان أسوأ ما يحدث من نصيبى . وكان الأمر يبدأ دائماً بشيء تافه ثم ينتهى إلى شيء لا يعلم مداه إلا الله . وغالباً ما كنت أعجز عن تتبع السبب الذى أثار هذه المصائب جميعاً فى كل أنواع الأخطاء كانت تؤخذ على : فرنسيتى الضعيفة ، وغبائى ، وأن الناظرة امرأة غبية تهمل واجباتها ولا يعنينا أبداً أخلاقنا ، وأنه هو — أبى — لم يجد وظيفة بعد ، وأن أجرومية « لومند » كتاب تافه أسوأ بكثير من أجرومية زابولاسكى ، وأنه قد أنفق الكثير على هباء دون جدوى ، وأننى قاسية متبلدة الإحساس وباختصار ومهما بذلت من جهد أناضل به أفعالى وجملى كنت الملوثة على كل شيء .

ولم يكن سبب ذلك أن والدى لا يحبنى ؛ فإنه كان يعز والدى ويعزنى كل الإعزاز ببساطة ، كان الأمر أن شخصيته هكذا .

وأصبح أبى متقلب المزاج مسترياً فى كل شيء بعد أن حطمت له الهوم والنكبات : ولما كان على حافة اليأس دائماً فقد أهمل صحته ، ثم أصابه برد قضى عليه بعد مرض قصير ، حتى إن الصدمة أذهلتنا عدة

أيام ، ولم نستطع أن نصدق أنه مات . وأصاب أمي ذهول خشيت منه على عقلها .

وما كاد أبي يتوفى حتى أنقض علينا دائنوه من كل جانب . واضطرونا إلى التخلي عن كل شيء كنا نملكه ، وكذلك اضطرونا إلى بيع المنزل الصغير الذي اشتراه أبي في بترسبرج ستوروا بعد ستة أشهر من وصولنا .

أما كيف استقرت الأمور آخر الأمر فهذا ما لا أدريه ، ولكننا أصبحنا بلا مأوى ولا موارد للعيشة وكانت والدتي تكاد تحتضر من مرض مؤلم ألم بها أو لم يكن لدينا طعام ، ولم يكن عندنا ما نعيش عليه ، ولم يكن هناك رجاء . . .

كنت في الرابعة عشرة من عمري آنذاك . وحدث عندئذ أن جاءت آنافيدورفنا لزيارتنا لأول مرة ، وظلت تلع في زعمها أنها من ملاك الأرض وأنها تناسب إلينا بصلة القرى . وقالت والدتي أيضا إنها تناسب إلينا بصلة القرى ولكنهما قرابة بعيدة جدا ، فهمي لم نزرنا قط عندما كان والدي على قيد الحياة ، والآن جاءت إلينا والدموع تملأ مآقيها ، وعبرت عن عميق ألمها لخسارتنا وظروفنا المريعة ، ولكنهما أضافت أن الملوم في هذا كله هو والدي ، فقد كان يعيش عيشة تجاوز طاقته ، وأنه تعدى حدوده ، وأنه اغتر بنفسه أكثر مما يجب .

وزعمت أنها تريد أن تكون على علاقة طيبة معنا ، واقترحت أن ندفن الماضي ، وبكت عندما أكدت لها والدتي أنها لم تكن لها قط أية عداوة ، ثم مضت بالدق إلى الكنيسة وأمرت بقداس يقام على روح الراحل العزيز [أبي] وهكذا اتصل حبل الود بيننا .

وبعد مقدمات كثيرة أكد فيها ظروفنا المريرة ، ووجدتنا الآلية ، وعجزنا ، مع الافتقار إلى بصيص من الأمل ، دعتنا إلى مشاركتها في منزلها المتواضع كما قالت . وشكرتها والدتي وإن ترددت مع هذا فترة طويلة في اتخاذ قرار ، ولسكن لما لم يكن هناك أمل ، ولا شيء آخر نستطيع عمله ، أخبرت والدتي أنا فيدورفنا أخيراً أننا نقبل عرضها شاكرين .

لأنني أتذكر جيداً ذلك الصباح عندما انتقلنا من بطرسبرج ستورونا إلى فاسيليفسكي . كان صباحاً من أيام الخريف ساطع الشمس عليل الهواء . وكانت والدتي تبكي ، وكنت أنا أيضاً حزينة ، وكان قلبي ثقيلاً بخوف غامض من المجهول .

تلك كانت أياماً عصيبة ...

.. ظلت الحياة مع أنا فيدورفنا غريبة مخيفة حتى ألقنا المنزل الذي تملكه في « سكس لاين » وكان المنزل مكوناً من خمس غرف : ثلاث

منها تشغلها أنا فيدورفنا وابنة عمى ساشا ، وهى فتاة يتيمة تكفلت بها أنا ، أما الرابعة فقد نزلنا بها نحن ، على حين استأجر الخامسة طالب فقير اسمه بوركروفسكى ، وكانت أنا فيدورفنا أكثر غنى مما طاف بخلدنا بادية الأمر ، ولكن كان مورد دخلها غامضا مثل أفعالها ، فهى لاتهدأ أبدا ، وهى دائماً مشغولة ومنهمكة فى شىء ما ، وهى تترك المنزل عدة مرات فى يوم واحد ، أما ماذا كان يشغلها بالضبط فقد كان أبعد مما أستطيع أن أخمن .

وكان معارفها العديدون يأتون ويذهبون طيلة النهار . أما من كانوا ؟ فهذا ما لا يعلمه إلا الله ، كانوا دائماً يأتون لعمل ما ، ولا يكتفون إلا دقيقة أو أكثر ، وكانت والدتى دائماً تنادىنى إلى غرفتنا حينما يدق جرس الباب ، وكان هذا يثير غضب أنا فيدورفنا دائماً ، إذ كانت تثور ثائرتها على أمى وتقول : إننا متكبرون جداً ، وأننا أكثر تكبراً مما يجب . وأى عمل لدينا حتى نكون متكبرين ! وتستمر على هذا المنوال لساعات لاتنتهى .

ولم أستطع أنا أن أفهم مغزى تعنيفها لنا حينذاك . ولقد أدرك الآن لحسب لماذا كانت أمى تأبى الانتقال إلى منزل أنا فيدورفنا ، كانت امرأة عصبية المزاج دأبت على تعذيبنا . أما لماذا دعتنا للإقامة عندها فهذا ما لا يزال مستغلقاً على حتى الآن . والحق أنها أظهرت عطفاً ، بادية

الامر ولم تظهر طبيعتها الحقيقية إلا بعد ذلك وقت طويل عندما برزت من عجزنا التام ، وأنه ليس أمامنا فعلا أى مكان نذهب اليه . ثم عادت فأظهرت عطفها على مرة أخرى إلى حد الألفة والمجاملة ، ولكن كان على بادىء الامر أن أقاسى أكثر مما قاست والدتى ، إذ دأبت على أن تذكرنا مرة بعد أخرى بنعمها علينا . بل لقد يبدو أنها كانت لا تتحدث فى شيء آخر إلا هذا . .

وكانت تقدمنا إلى "غرباء على أننا أفارب فقراء مسكالي أوتهم بدافع من الروح المسيحية لحسب . ولما ماجلسنا إلى الطعام جعلت تحصى* اللقيات التى نأكلها فى حشد فاذا لم يطاوعنا ميلنا وأكلنا أقل مما يجب ثارت ثائرتها أيضا : فنحن مترفعون ، ومائدتها ليست جديدة بمقامنا ، وهل عرفنا نحن شيئا أفضل منها ؟ وهكذا .

ولم تسكف أبدا عن تحقير أبى زاعمة أنه حاول أن يكون أحسن من الآخرين ولكنه وصل إلى نهاية لا ترضى ، فنزل بعائلته إلى مستوى الاستجداء ، وأنه لولا قربة خيرة ذات روح مسيحية عطوف ، فإن هؤلاء — وهم يعرفون أنفسهم — ربما هلكوا جوعاً فى الشوارع . وأى شيء لم تتحدث به ؟ . . مجرد الاستماع اليها كان يثير أكثر مما كان يؤلم .

وغالباً ما كانت والدتى تنهار فتبكي ، وظلت صحتها تتدهور يوماً

بعد يوم ، وكان واضحا أنها في طريقها إلى النهاية . ولكننا دأبنا على العمل الشاق من الصباح حتى الليل ، نحوك الملابس في غالب الأمر ، وكان هذا أيضا يفضب آنا فيدورفنا التي ظلت تقول إن منزلها ليس محسلا لعرض الأزياء .

ولكن مع هذا كان علينا أن نعمل كي نشترى ملابسنا لكي نواجه النفقات التي قد يقتضيها المستقبل .

وكان من الضروري أن نمتلك بعض النقود الخاصة بنا ، هذا إلى أننا كنا نحاول الادخار على أمل أن ننتقل إلى مكان آخر ، ولكن العمل استنفد ما بقي من صحة والدتي ، واشتد هزالها يوما بعد يوم . كانت المرض يمتص حياتها . ولقد شعرت أنا بهذا كله ورأيت على حين تمضي الأسابيع متشابهة . وكنا نعيش عيشة هادئة كما لو كنا في الريف ، حتى أن آنا فيدورفنا هدأت ثائرتها أيضا عندما أدركت أننا نخضع لسيطرتها وإن لم يكن أحد يعلم بمعارضتها على أية حال . وكان يفصلنا عن غرفها دهلز على حين كان يقطن الغرفة المجاورة بوكروفسكي كما سبق أن قلت وكان يأكل ويقطن بالمجان مقابل أن يقوم بتعليم ساشا الفرنسية والألمانية والتاريخ والجغرافيا — وسائر العلوم — كما كانت آنا فيدورفنا تقول :

أما ساشا وكانت في الثالثة عشرة من عمرها حينئذ — فكانت فتاة

فتاة حاضرة البديهة وإن تكن لها خشونة الفتیان . وعندما اقترحت
أنا فيدرفنا مرة أنه لا ضرر هناك في أن أتلقى أنا أيضاً بعض الدروس
مادمت لم أكل تعلیمی المدرسی وافقت والدتي في سرور ، وهكذا
زاملت ساشا ، وظل بوكروفسكي يعلمنا معاً مدة عام كامل .

وكان مدرسنا شاباً فقيراً — فقيراً جداً . منعه صحته من المواظبة
على الدراسة المنتظمة ، ولم يكن يوصف بالطالب إلا بحكم العادة لحسب .
وكان يعيش في هدوء حتى لا تكاد تسمع له ركزاً ، في غرفته . وكان
غريب المنظر أيضاً : يمشي في ارتباك وينحنى في ارتباك ، وكان يتكلم
بطريقة جد غريبة حتى إنني لم استطع أن أمنع نفسي عن الضحك
بأدى الأمر .

وكانت ساشا تثيره بالأعيها دائماً وخاصة في أثناء الدرس . ومن
سوء الحظ أنه كان سريع الغضب تثير غضبه أية تفاهة ، فيصرخ ويحار
بالشكوى وغالباً ما يندفع خارج الغرفة دون أن ينتهي الدرس . وبعدها
ينعزل وحيداً لأيام عدة عاكفاً على كتبه . وكان هناك الكثير منها ،
وكلمها نادرة غالية .

وكان يتكسب بعض المال من وقت لآخر إذا كان يعطى بعض
الدروس الخاصة في أماكن أخرى أيضاً . وما يكاد يقبض أجره . حتى
كان يهرع ليشتري كتباً أخرى . ولما أتيج لي أن أعرفه على حقيقة
(م - ٤ - مساكين)

اكتشفت أنه رجل طيب عطوف وأنه أفضل من التقيت بهم من الرجال .

وكانت أمي تحترمه كثيراً ، وقد أصبح فيما بعد أصدق أصدقائي وبالرغم من كبر سني كنت أشارك أنا أيضاً وساشا في تدبير بعض المعاكسات وكنا نفكر ساعات عدة في طرق جديدة نغيظله ونثيره بها .

وكان مضحكا جدا إذا ما غضب ، وكان هذا يسرى عن أنفسنا [انني أخجل اذا ذكر هذا الآن] وذات مرة عندما أثرناه حتى كاد يبكى بجمعه يتمم [يالكما من طفلتين قاسيتين !] ثم تغيرت حاله فجأة وهدأت ثأثرته . وشعرت يومها بالخجل والاسى من أجله ورجوته وأنا خجلى حتى لا كاد ابكى ، ألا يستم بنا وألا يلقى بالآلى معاكساتنا الحقاء ، ولكنه اغلق الكتاب وترك الغرفة دون أن يكمل الدرس .

وعذبنى تأنيب الضمير طيلة يومى ولم أستطع أن أتحمل أننا — نحن الاطفال — قد أثرناه حتى بكى : أولم نكون نتوقع نحن أن يبكى ؟ . بل ألم نتمن أن يبكى ؟ . وهكذا ذكرنا — نحن الصغيرتين — رجلا بائساً فقيراً بما أصابه من نصيب مرير . ولم أستطع النوم فى ليلتى تلك ، كنت ثائرة على نفسى ، حزينة . . . يوبخنى ضميرى . منهم يقولون إن عذاب الضمير يريح القلب . وهذا محض هراء ! . والحق أن حزنى كا

يشوبه شيء من الخداع بطريقة ما ، إذ لم يكن يرضيني أن يعتبرني طفلة ..
فقد كنت يومئذ في الخامسة عشرة ..

ومنذ ذلك أجهدت خيالي في تدبير آلاف الخطط التي تحمل
بوكروفسكى على تغيير رأيه في . ولكنى كنت خائفة خجلى ، لا أستطيع
أن أركز فكري في شيء اللهم إلا في أحلام غامضة (وأي أحلام كانت)
كل ما استطعت أن أفعله هو ألا أستمع في مشاركة ساشا في عيها ،
وكف هو عن غضبه منا . ولكن هذا كان أقل من أن يرضى كبريائى ..

° ° °

وأحب الآن أن أقول كلمات قلائل عن أكثر من عرفت من الرجال
غراية وإثارة للاهتمام وبجدارة بالعطف في وقت واحد . وأنا أتحدث
عنه لحسب : لأننى لم أعره اهتماما من قبل ، وبدأت أهتم به عندما
أصبح كل شيء يتعلق ببوكروفسكى له أهميته القصوى عندى .

فقد كان يلم بالمنزل من وقت لآخر عجوز ضئيل ، رث الثياب ،
أشيب الشعر ، يمشى متثاقلا ، وباختصار كان رجلا غريب الأطوار إلى
أبعد حد . وكان يبدو دائما وكأنه يخجل من شيء ما حتى من نفسه .
وكان ما يشعر به من خزي وخجل يجعله مضطربا عملا ، يقفز من
موضوع لآخر .. حتى ليتساءل المرء : هل هو في كامل وعيه ؟ وكان
إذا ما وصل إلى المنزل لا يجرؤ على الدخول ، بل يقف خارج الباب

الزجاجي ، فإذا ما تصادف أن مر أحد — أنا أو ساشا أو أحد الخدم الذين يتوسم فيهم العطف ، أخذ يوميء بإشارات متعددة ، فإذا ما تيقن منا أن ليس ثمة غريب بالدار وأنه يستطيع الدخول ، فتح الباب بحذر ، وأخذ يحك يديه في ارتياح ، ثم يمضي على أطراف أصابعه إلى غرفة بوكروفسكي . كان هذا .. أباه 11 .

ولقد علمت قصته الكاملة فيما بعد : كان يعمل يوماً كاتباً في مكان ما ، ولما لم يظهر مقدرة وضع في أحقر الوظائف ، وعندما ماتت زوجته الأولى — والدته بوكروفسكي — قرر أن يتزوج مرة أخرى . وتدهورت الأمور مع زوجه الجديدة ؛ فهي لا تدع أحدا وشأنه ، وتتحكم في كل شيء ، وكان بوكروفسكي الصغير طفلاً في العاشرة من عمره في ذلك الوقت ، وكرهته زوج أبيه كراهية مريرة ، ولكن القدر وقف إلى جانبه ، فقد كان هناك إقطاعي يدعى بايكوف يعرف بوكروفسكي الكبير ويغمره بإحسانه ، فامتدت حمايته إلى الطفل أيضاً وأرسله إلى المدرسة .

أما سر اهتمامه بالطفل فذلك أنه كان يعرف أمه المتوفاة ، وهي امرأة شابة كانت صديقة لآنا فيدورفنا وتزوجت بوكروفسكي وقد دفع الكرم مستر بايكوف — وهو أصدق أصدقاء آنا فيدورفنا — إلى أن يمنح الفتاة خمسة آلاف روبل بئنة لها . أما ماذا حدث لهذا

المال فهذا مالا يدريه أحد وقد علمت أنا بهذا كله من آنا فيدورفنا إذ لم يحاول بوكروفسكى الصغير أن يتحدث عن شؤنه العائلية أبدا .

ويقال أن والدته كانت باهرة الجمال فما أعجب أن تقدم على مثل هذا الزواج ! ولقد ماتت في ريعان الشباب ، بعد أربع سنوات فحسب من زواجها ولقد دخل بوكروفسكى الصغير الجامعة بعد انتهاء المدرسة ولم ينقطع مستر بايكوف — الذى كان يأتى إلى بطرسبرج كثيرا — عن رعايته . وعند ما اضطر الشاب إلى التوقف عن المدرسة لمرضه أوصى مستر بايكوف به آنا فيدورفنا التى منحته المأكل والمأوى مقابل تدريسه لسانها . وفى هذه الأثناء كانت زوجة بوكروفسكى الثانية تزعمه إلى حد أنه ارتكب أخط الرذائل حتى ليكاد يكون مخمورا دائما .

كانت زوجته تضربه ، وتجبره على البقاء فى المطبخ ، وجعلته ينحط إلى درجة تعود معها الصدمات وسوء المعاملة حتى كف عن الشكوى . وعلى الرغم من أنه لم يكن عجوزا حقا فإن ادمانه الخمر كان يهدد بهلاكه ، كانت البقية الباقية فيه من العاطفة البشرية هى حبه العميق لبوكروفسكى الصغير الذى كان صورة من أمه . ولعل ذكرى زوجه الأولى وخائنه كانا هما مبعث هذه العاطفة المشبوبة فى هذا العجوز المحطم . فلم يكن يستطيع أن يفكر أو يتحدث عن شيء إلا عن ابنه ، وكان يزوره مرتين فى الأسبوع ،

لأنه كان لا يجرؤ أن يأتي إليه أكثر من ذلك . وحتى مع هذا كان بوكروفسكى الصغير ينهر من هذه الزيارات ؛ اذ كانت أعظم نقائصه هي عدم احترامه لأبيه ، ولكن الحق أن العجوز كان أكثر خلق الله باعثا على النفور أحيانا ، اذ كان لجوحا ، كثير الأسئلة تافه الحديث ، فكان يقاطع بأتفه الأسئلة وأحمقها استذكار الشاب . وفوق هذا كله كان غمورا في غالب الأمر . وكان الابن يحاول أن يشفى الأب من رذائله ولجأته وثرثرته ، فادى هذا إلى أن يعتبره والده مثلاً أعلى معصوما من الخطأ لا يجرؤ أن يفتح فاه أمامه دون إذن خاص . ولم يكن العجوز ليمل أبدا الإعجاب بباتنكا [كما كان يسميه مدبلا] حتى لتبدوا مارات الذلة دائما على وجهه إذا أتى لرؤيته ، فهو لا يعرف أبدا كيف سيكون لقائه . فيقف مترددا ، فإذا ما تصادف أن مرت ورائى أخذ يسألنى لمدة عشرين دقيقة كاملة عن حبيبته باتنكا : كيف صحته ، هل هو معتدل المزاج ؟ هل هو مشغول بشيء مهم ؟ وإذا كان مشغولا فما الشيء الذى يشغله ، يكتب أم يجلس مفكرا ؟ فإذا طمأننت العجوز بما فيه الكفاية جازف واتخذ قراره وفتح الباب ، ولكن بكل حذر ! — ثم أطل برأسه خلال فتحة الباب ، فإذا وجد من ابنه شيئا من البشاشة ، بل لاحظ أنه قد أوما برأسه ، ولج الباب دون صوت ، ثم خلع معطفه وقبعته التى كانت رائة دائما ، ملوثة بالثقوب مكسورة الإطار ، ثم علق حاجاته وألقى بنفسه فى كرسى بالحذر نفسه وهو

لا يرفع عينيه إطلاقاً عن ابنه حتى لكانما يحاول أن يستشف مزاج حبيبه باتنكا . فإذا تصادف أن كان ابنه عسبي المزاج لاحظ هذا على الفور ، فيقف متمتماً أنه ما كان يريد الزيارة ، إنما تصادف مروره ، فأتى لجرد أن يستريح هنيهة قصيرة فحسب ، ثم يبحث في ذلة عن معطفه وقبعته الرثة ، ويفتح الباب بالحدز نفسه ويمضي على أطراف أصابعه خارج الغرفة ، ونبل شفته ابتسامة مصطنعة ، يخفي بها ما اعتراه من خيبة أمل .

أما إذا احسن الفتى لقائه فما يكاد المعجوز يملك نفسه من الفرحة ، ويضيء الرضا في كل لمحة من لمحات وجهه ، وفي كل تعبير من تعبيراته . وإذا تنزل باتنكا بالحديث إليه ، وقف المعجوز ، واجاب في أسلوب كله خضوع ولماعة هو بالرغبة أشبه وهو يستخدم في ذلك أكثر الكلمات تهديبا وهذا معناه أشد السكات إضحكا ، إذ لم يكن المسكين بالمتحدث أبداً . فهو دائماً في اضطراب وخجل ، لا يكاد يعرف ماذا يفعل بيديه أو بنفسه ، ودائماً يتمتم بشيء ما حتى لكانما لا يستطيع أن يخفي قلقه وشغفه بأن يصحح إجاباته . فإذا وقع على الإجابة المناسبة ، رفع كتفيه وأصلح من صديريته ورباطه وقفطاته ، واكتسى زهواً ووقاراً . بل لقد تبلغ به الجرأة أحياناً أن ينهض ويختال متثدداً حتى دولاب الكتب ، ثم يسك أي كتاب تقع يده عليه ، وينظر إليه قليلاً .

وفي حالات نادرة مثل هذه يرى المعجوز دمك الأخلاق ، هادئاً

هدوء الباحث ، كما قد تعود استعمال كتب ابنه وكأنما قليل من عطف باتنكا أمر له أهميته . ولكنني شهدت ذات مرة مبلغ ذعره عندما أمره ابنه أن يترك الكتب وشأنها ، فقد اعتراه الارتباك والاضطراب فحشر الكتاب مقلوبا ، وحيفئذ أخذه القلق ليصحيح خطأه . فدفعه في مكانه وفتحته إلى الخارج وهو يبتسم طيلة هذا كله وقد احمر خجلا وهو يحاول أن يجعل كل شيء يبدو بريئا ، لا أهمية له .

ولما كان بوكروفسكى يتمنى أن يقوم من أحوال أبيه ، فإنه كان يعطيه خمسة وعشرين أو خمسين كوبكا أو أكثر إذا ما زاره العجوز ثلاث مرات متتالية دون أن يكون مخمورا ، أو يهدي إليه زوجا من الأحذية أو ربطة عنق أو صدارا بما كان يجعل العجوز سعيداً متبخترا مخمورا كطاووس .

وأحيانا كان العجوز يزورنا ويحضر الكعك أو التفاح لى ولساشا ويتحدث عن باتنسكا ، ثم يظل بنا يحشنا على أن نلقبه إلى دروسنا أو يؤكد مرة بعد أخرى أن باتنسكا ابن صالح ، ابن مثالى ، وأكثر من هذا هو ابن متعلم . وإذا كان يقول هذا كان يندب بعينه بطريقة هزلية ، ويظهر من التعبيرات ما يجعلنا ننفجر ضاحكين . وكانت والدتي تعجب بالعجوز أيضا ، ولكن الرجل كان يكره آنافيدورفنا وإن كان يجلس فى حضرتها هادئا كالقار ، ذليلا كالتراب . . .

وكانت دروسى مع بوكروفسكى ، نقسرب من نهايتها ، وهو

لا يزال يعاملنى كطفلة : مجرد طالبة مبتدئة مثل ساشا . وآلمنى هذا إذ كنت أحاول أن أصلح من زلاتى السابقة ، ولكنه لم يصر هذا التفانا فضايقنى هذا كثيرا . وكنت لا أكاد أحادثه خارج الدرس حتى لو منحت لى الفرصة . وكنت أحمر خجلا وينعقد لسانى ثم أبكى غضبا فى أحد الأركان .. ومن يدري كيف كان الأمر سينتهى لولا حادثة غريبة : فذات مساء ، عندما كانت والدتى فى حجرة آنافيدورفنا ، دخلت غرفته خلصة إذ كنت أعلم أنه خارج الدار . أما ماذا جعلنى أفعل هذا فلست أدري ؟ ولم أكن قد دخلت غرفته من قبل بالرغم من تجاوزنا لعام أو يزيد .. كان قلبى يدق فى جنون . ونظرت حولى خائفة مستطلعة بادية الأمر .

كانت الغرفة متواضعة الأثاث لا تحظى بشيء من العناية . وعلى الحائط خمسة صفوف من الكتب ، وعلى الكراسى والمنضدة أكوام من الورق : كتب وأوراق فى كل مكان . وطرأت إلى ذهنى حينذاك فكرة غريبة . ففكرة سيطرت على وأقلقتنى . لماذا يعبأ هو بصداقتى وعاطفتى ؟ هو رجل مثقف وأنا .. مجرد فتاة حمقاء .. لا أعرف شيئا ، ولم أقرأ شيئا حتى كتابا واحدا . ووقفت أرقب فى حسد هذه الأرفف المثقلة بالكتب .

.. كنت متألمة ، مضطربة نائرة ، فقررت أن أقرأها جميعا ، وفى الحال ، من أولها إلى آخرها وبأسرع ما يمكن . ومن المحتمل أن فكرتى

كانت هذه : ما دمت سأعرف ما يعرفه هو فساً كون جديرة بصداقته .
واختلطت أول مجلد رأيت في متناول يدي ، وأنا أرتعش خوفاً وانفعالا
وكنت أشعر أن وجهي يشحب ويحمر على التوالي ، وكان المجلد مترباً
قديماً . وكان في نيتي أن أقرأه على ضوء المصباح الليلي إذا ما قامت أمي ،
ولكن كم غاب أمل عندما فتحت الكتاب في غرفتي فلم أجده سوى مقال
ممزق أكلته الديدان كتب باللاتينية . ولم أضع وقتاً بل عدت إلى غرفته .
وكنت على وشك أن أضعه مكانه في الرف عندما سمعت ضجة ، ثم وقع
أقدام في الدهليز . وعشنا حاولت أن أضع هذه المصيبة مكانها إذ كان
الكتاب محشوراً في مكانه حتى إنني عندما أخذته احتلت الكتب
الأخرى هذا المكان . ولم أستطع أبداً حشره في مكانه . كنت أضغط
عليه بأقصى قوتي . ولا بد أن المسهار الصدى الذي تتعلق به الأرفف
كان ينتظر هذا منى بالذات ؛ إذ انهارت الأرفف كلها بما فيها من كتب
وأوراق . وعندئذ فتح الباب ودخل بوكروفسكى الغرفة .

وهنا يجب أن أذكر أنه لم يكن يحتمل أبداً أن يعيث مخلوق بكتبه ،
وليرحم الله من يجرؤ على لمسها . تخيل إذن مقدار فزعى عندما تساقطت
كل هذه الكتب ، سميكها ورقيقها ، من كل حجم وكل شكل على الأرض
وأخذت تتراقص تحت المنضدة والكراسي وفي كل الغرفة . لسكن تمنيت
ساعتها لو أطلقت ساقى للريح ، ولكن كان قد فات الأوان . وولاف
بذهني أن هذه هي النهاية ، نهاية كل شيء . لقد صنعت ، انتهيت اضطبت

أعيت كآية طفلة في العائرة ، كآية طفلة حقاء مأفونة .

أما بوكروفسكى فقد انفجر غاضباً وصرخ في وجهى قائلاً :

— وماذا بعد : « ألا تخجلين من مثل هذه الحماقات ؟ متى سينضج عقلك ؟ »

وركع كى يلتقط كتبه ، وانحنيت كى أساعده فى جمعها ، فزجرتى ثائراً :
— « لا تتعبى نفسك ، وإعلك تدهنين صنماً لو ابتعدت عندما لا يدعوك أحد . »

ولكنه كان قد لاحظ ذاتى ، فأنلف من حديثه إلى لهجة المدرس المؤنب ، اللهجة التى كان يستخدمها فى دروسنا الأخيرة إذ قال :
.. « أما أن أن تتعقلى ؟ - إنك لست طفلة - لست فتاة صغيرة -
لقد بلغت الخامسة عشرة الآن . »

ولكأنما أراد أن يستوثق هذا ، إذ نظر إلى ، ولكن وجهه احمر فجأة . ولم أستطع أنا أن أفهم شيئاً ، ووقفت أحدى فى . ووقف هو ، واقترب منى مضطرباً ، وبدأ يتكلم بكلمات مختلطة لا انسجام فيها ، لعله كان يحذر عن شىء ما ، وربما كان ذلك لأنه لم يلاحظ من قبل أننى قد كبرت ..

وأخيراً فهمت ، أما ماذا فعلت حينئذ فهذا مالا أدريه اللهم إلا أن وجهي قد احمر خجلاً حتى تجاوز خجله ، وأن الأمور قد اختلطت علي ، فغطيت وجهي بيدي وانطلقت أعدو خارج الغرفة .

ولم أعرف كيف أدارى نفسى خجلاً . يا إلهي . . كلما تذكرت أنه وجدتني في غرفته ١١ ومضت أيام ثلاثة لم أجرؤ فيها على النظر إليه ، وكان نخجلى يبلغ حدّاً يثير الدموع في عيني . وكانت أغرب الأفكار أكثرها مدعاة للاضطراب تتوارد الى ذهني ، وكان أغربها جميعاً أن أمضي اليه وأصرح له بكل شيء ، أن أشرح له كل شيء وأقنعه أنني لست بمجرد فتاة صغيرة حقاء ، وأنني لم أقصد شراً ، بل لقد قررت هذا فعلاً ولكنني افتقدت الشجاعة والحد لله ، إنني أستطيع أن أتخيل جيداً إلى أي حد كنت سأبدو حقاء في نظره . وحتى الآن ما زلت أشعر بالخجل من مجرد التفكير في ذلك .

وسقطت والدتي فريسة مرض خطير ألم بها بعد ذلك بأيام قلائل حتى أصابتها الحمى واخذت تهذي ، ولم أفارقها لحظة واحدة ، أعنى بها وأعطيها الدواء . وما أقبلت الليلة الثانية حتى كنت منهكة لا أقوى على السهر وبدأت أرى بقعاً خضراء تتراقص أمام ناظري ، وبدأ لي كل شيء كأنما يطفو من حولي . ولولا أنات أُمي الضعيفة لاستسلمت للنوم في أية لحظة . وإذا ما غلبني النعاس كنت أصحو فزعة ، ولكن النوم كان يعود فيغلبني .

.. كان هذا هو العذاب بعينه ، وفي لحظة ما لا أدريها ولا أستطيع أن أتذكرها ، وعندما كان النوم يتصارع هو واليقظة ، غزا عقلي المسكود حلم مزعج ، فاستيقظت مندعورة . كانت الغرفة مظلمة ، اللهم إلا من شمعة تخفق فتلقى بصيصاً من الضوء على الحائط . وتماكنتي ذعر غريب ، وسيطر على خيالي حلم مزعج انقبض له قلبي . فقننرت من المقعد وأنا أصرخ جزعة من فرط ذعري . وفتح الباب ، ودخل منه بوكروفسكى . . وأذكر أنني وجدت نفسي بين ذراعيه عندما ثبتت إلى رشدي ، وأنه وضعني على مقعد بلطف وحنان ، ثم قدم لي كوباً من الماء وانهاه على بالسؤال إثر السؤال .. وقلت أنا أي شيء : لست أدري ماذا .. أما هو فقال وهو يمسك يدي :

إنك مريضة جداً .. إنك محومة أراك تهدمين صحتك ألا استرحت قليلاً ونمت ؟ وسأوقفك بعد ساعتين - ناشدتك أن تستلقي وتستريحى ، وظل لي يغرنى على الراحة دون أن يتيح لي فرصة الاعتراض ، وكنت فعلاً في حاجة إلى الراحة بعد طول عناء ، وكانت عيناى يثقلهما النوم ، فانسكشت في المقعد كي أستريح نصف ساعة ، ولكني نمت حتى الصباح حتى أيقظنى بوكروفسكى فقد حان موعد تعاطي أوى للدواء .

وفي الليلة التالية جلست إلى فراش أوى وقد عقدت عزمى على ألا أنام ، وما أقبلت الساعة الحادية عشرة حتى طرق بوكروفسكى باب

غرفتي . وقال لي وأنا أفتح له الباب :

— « ألا تشعرين بالوحدة وأنت تجلسين هنا مع نفسك ؛ إليك كتابة يساعدك على تضيئة الوقت ،

وقبلت كتابه شاكرة ، ولا أستطيع أن أتذكر أى كتاب كان ، أو هل فتحته أو لا ؟ هذا على الرغم من أننى لم أغض عيني تلك الليلة فقد منعتنى نشوة غريبة عن النوم . كنت حائرة ، لا أستطيع أن اجلس ساكنة فى مكانى ، فأقف مرة بعد أخرى أذرع الغرفة ، وغمرنى شعور من الارتياح النفسى والدفء اللذيذ . كنت سعيدة برعايته غفيرة باهتمامه بى . وجلست أفكر وأحلم طيلة ليلى ، ولم يعد هو إلى ، وكنت أعلم أنه لن يأتى ، وهكذا ساءلت نفسى : ترى هل يقبل الليلة التالية ؟ .

وفى الليلة التالية ، بينما الجميع نيام ، فتح بوكروفسكى غرفته ووقف يحدثنى على عتبة الباب ، ولست أستطيع أن أتذكر كلمة واحدة مما تبادلناه من حديث . كل ما أتذكره أننى كنت خجلة مضطربة .. أضيق بنفسى . وأننى تمنيت أن ينتهى حديثه وإن كنت طالما أشتهيته ، وحلت به ، وأعددت له كل الأسئلة وكل الأجوبة .

وفى تلك الليلة بدأت صداقتنا ، وهكذا بتنا نقضى معا عدة ساعات من كل ليلة خلال مرض أى . ويوماً بعد يوم تغلبت على خجلي وإن

كنت أشعر بعد نهاية كل حديث أنني مبتدئه بنفسى ، ولكنى كنت سعيدة فى أعماقى ، حينما أرى أنه نسى كتبه البغيطة .

و ذات مرة مضى بنا الحديث إلى التفكه بقصة انهيار أرفف الكتب واجتاحتنى ساعدها حالة غريبة ، فإذا بى جريئة واثقة بنفسى ، وتملكتنى نشوة غريبة وأنا أعترف له بأننى إنما أردت أن أعلم — أن أعرف شيئاً ، وأنه قد حذى نفسى أن اعتبرنى مجرد طفلة . . لاشك أننى كنت فى حالة غريبة ، إذ أفعمت نفسى حناناً وامتلأت عيناى بالدموع وصرحت له بكل شيء : صداقتى له ، وكىم أتمنى لو غنيت به ، وأن أصبح على وئام معه وأن أملاً حيساته عزاء وحناناً ، وهو يصغى إلى دهشاً مستغرباً مضطرباً صامتاً وألمنى سمته وشعرت بنغية أمل : لعله لم يفهم ، بل لعله كان يسخر منى فى أعماقه . ولم أستطع أن أفوم نوبة من البكاء فاتفجرت باحكية كطفلة ، وتأث هو فأمسك بكلتا يدى يقبلهما ، ويضغطهما على صدره وهو يتمتم مواسياً . أما ما قاله بعد ذلك فلست أذكره ، كل ما أذكره أننى بكيت ثم ضحككت ، ثم غلبتنى البكاء ، وأن وجنتى كادنا نتحرقان ، وأننى لم أستطع أن أتفوه بكلمة لفرط سعادتى . وعلى الرغم من اضطرابى لاحظت أنه كان شاردأ قلقاً لعله لم يستطع أن يفيق من دهشته امام حماسى ونشوتى المفاجئة ، أو لعله كان غير مصدق أول الأمر ثم تقبل عاطفتى وكلماتى المخلصة واهتمامى بإخلاص يعادل إخلاصى ، وبالاهتمام والحنان نفسيهما ، كصديق .. بل كأخ ، وكان هذا

جيلة بما يملأ القلب عزاء ، لم يكن ثمّة داع لأن أخفى أى شيء فقد كان يشعر بهذا كله جيداً ، وأخذ يقترب منى يوماً بعد يوم .

أكان هناك شيء ما لم نتحدث فيه في تلك الأيام الحلوة على ضوء مصباح يخفق إلى جانب فراشى ؟ كنا نتحدث عن كل ما يخطر على العقل ، وما يعبر عنه القلب . . . وكنا سعداء . أيام ممتعة كانت تلك ، وإن تكن حزينة . وإن ذكرها لثمت وتحنن في الوقت نفسه .

إن الذكريات سواء الممتع منها أو الحزين ، مؤلمة دائماً — أو هي على الأقل كذلك بالنسبة لى ، ولكنه نوع لذيذ من الألم . وعندما تثقل قلبى المغموم فإن الذكرى تسره وتنعشه ، كما تفعل أنداء المساء في زهرة مسكنية أضنتها حرارة الظهيرة .

وكانت والدتى تتأمل للشفاء وإن كنت لأزال أجلس إلى فراشها وكان بوكروفسكى يحضر إلى كثيراً المكتب في غالب الأمر ، وكنت أقرؤها في البداية كي أذود النوم عن أجفاني ، ثم بت أقرؤها في كثير من الانتباه ، وانتهى بي الأمر إلى قراءتها في شغف شديد لقد اكتشفت فيها آفاقاً جديدة كنت أجهلها وأشياء لم أكن أتوقعها ، وامتلا قلبى بالانطباعات الجديدة . وكلما كانت هذه الإحساسات بما يستعصى على فهمى بادية الأمر اعتززت بها وكانت أكثر عذوبة لروحي . ولمسا

ازدهمت في قلبي بلا نهاية تركتني في تيه من العجب والدهشة . ولحسن الحظ لم يؤثر هذا الغزو الروحي على توازني ، كنت حاملة إلى حد لم يكن من الممكن معه أن لا يحدث لي ذلك .

وعندما شفيت والدتي انتهت سهراتنا الليلية ، وكان من النادر بعد ذلك أن تتبادل كلمات قلائل ، وربما كانت كلمات تافهة ولكنهما تخفي وراءها الكثير . وكنت سعيدة جداً ، وامتدت سعادتي أسابيع عدة .

و ذات يوم أقبل بوكروفسكي العجوز لزيارتنا ، وجلس يثرثر كعادته ، ولكنه كان مبتهجا منشرح الصدر على غير عادته . وأخذ يضحك ويمزح ثم انتهى إلينا سرا ابتهاجه بأن أخبرنا أن عيد ميلاد عزيزه باتنكا بعد أسبوع واحد لحسب ، وأنه سيوزر ابته في هذه المناسبة ، مرتدياً صداره الجديد ومنتعلاً زوجاً من الأحذية وعدته زوجته أن تشتريه له . وباختصار كان العجوز سعيداً جداً وأخذ يثرثر بلا انقطاع .

عيد ميلاده ! لقد فكرت فيه ليل نهار ، أنا أيضاً سأقدم إليه هدية في عيد ميلاده لتذكرك بصداقتنا ، ولكن ماذا يجب أن تكون ؟ — أخيراً قررت أن أهدي إليه بعض الكتب ، وكنت أعرف أنه يتمنى لو اقتني مؤلفات بوشكين في آخر طبعاتها . فلتكن مؤلفات بوشكين إذن هديتي إليه .

وكانت حيا كئي للشباب قد مكنتني من توفير حوالى ثلاثين روبلا
كى اشترى بها لنفسى فستانا ، وهكذا أرسلت طاهيتنا العجوز « ماتريونا »
كى تستفسر عن ثمن المجموعة الكاملة . وبالإلهى . . . كان ثمن الواحد
عشر كتابا بجلدة ستين روبلا على الأقل !

من أين إذن أدبر المال ؟ . واعتصرت فكرى ولكن بدون
جدوى . لاني لا أستطيع أن أطلب من أى بعضا من المال ، من الطبيعي
أنها ستساعدنى ، ولكن فى هذه الحال سيعلم كل من فى المنزل ، ولن
تصبح الهدية سوى مجرد التعبير عن الشكر لبوكروفسكى على تدريسه
لى . ولكنى كنت أريد أن تكون الهدية منى أنا لحسب . أما عن
الجد الذى بذله معى فقد رجوت أن أظل مدينة له به إلى الأبد ، وأن
أجازيه عليه بصداقتى وحدهما .

وأخيرا وجدت الطريقة التى أحقق بها أملى . . كنت أعرف أن
باعة الكتب فى « جوسيتنى دفور » يبيعون أحيانا كتباً مستعملة ، ولكنما
تسكاد تكون جديدة ونصف ثمنها الأصلى إذا ما سارم المرء معهم .
لذا عولت على زيارة جوسيتنى دفور بأسرع ما يمكن ، وسنحت لى
الفرصة فى اليوم التالى : كان ثمة شىء ما احتجنا الى شرائه ، ولما كانت
والدنى متوعدة ، وأنا فيدورفنا مصابة بنوبة من الكسل ، لذا كانت هذه
المهمة من نصيبى .

ومضيت أنا وماتريونا ، ومن حسن حظنا عثرنا على مجموعة جميلة
من مؤلفات بوشكين وبدأنا المساومة . وطلب البائع ثمننا أكثر من ثمنها
الأصلي بأدى الأمر ، ولكنه أنزل الثمن إلى عشرة روبلات من الفضة بعد
كثير من الجهد ، وبعد أن تظاهرت بعزمي على الرحيل عدة مرات . وبالحا
من متعة أن يساوم المرء ! ولم تفهم « ماتريونا » المسكينة أبداً لماذا كنت
منطربة إلى هذا الحد أو لماذا أحتاج إلى هذا العدد كله من الكتب ؟
ولكن المشكلة كانت أنني لا أملك إلا ثلاثين روبلا من الورق والبائع
لا يرضى بأن يبيعها بأقل من المبلغ الذي حددته ولو بكويك واحد .
ولكني توسلت وتوسلت ، وأخيراً ، وبعد أن تركته ثم عدت عدة مرات
ترفق ونقص الثمن روبلين وهو يشهد الله والسماء ، أنه لم يفعل هذا
إلا لأنني شابة جميلة فحسب ، وأنه ما كان يرضى بتخفيض الثمن من أجل
أى مخلوق آخر في هذا العالم !

وكم كان ألمي وأنا أرى أن كل ما ينقصني هما روبلان فحسب .
وكنت على وشك البكاء كمدا لولا أن ساعدتني ظروف لم أكن
أتوقعها بعد أن أسلمت نفسي لليأس .

فغير بعيد وقف بوكروفسكى المعجوز عند بائع كتب على حين
أحاط به أربعة أو خمسة من الباعة يزعمونه حتى كاد يخن ، كل يمجذ
شأن كتبه . . وأى كتب كانت اومع هذا كان المعجوز متلهفاً عليها .

جميعاً ، ولكن ارتبا كه يمنعه عن تحديد ما يختاره منها . واقتربت منه
وسألته ماذا هو فاعل ؟ فطغت عليه الفرحه ، إذ كان العجوز معجباً بـ
لا يقل عن إعجاب عزيزة باتنكا وقال الرجل :

— اننى أشتري الكتب يا فارفارا اليكسيفنا ، بعض الكتب من
اجل حبيبى باتنكا ، فعيد ميلاده قد اقترب ، وهو يحب الكتب لذا
فسأهدى اليه كتباً .

وكان العجوز يعبر عن شعوره دائماً بطريقة هزلية ، اما الآن فقد
أضاف الى طريقته المضحكة فى الحديث ارتبا كه واضطرابه .

وكان كل ما يختاره لا يقل ثمنه عن روبل أو روبلين أو ثلاثة .

ولم يحاول قط أن يسأل عن ثمن الكتب الكبيرة ، بل كان يكتفى
بأن ينظر إليها متأملاً ، ثم يتحسس أوراقها ، ثم يضعها مكانها برفق
وهو يتمتع :

— كلا . كلا هذه غالية جداً . لنر غيرها . ثم يعود ليفتش فى كتب
الأغاني والتقاويم الرخيصة .

وسألت الرجل :

— لماذا تشتري هذه الكتب ؟ — إنها تفاهات !

وأجابنى :

— كلا — إنها كتب لطيفة .. لطيفة جدا ..

ونطق الكلمة الأخيرة حزينا متمملا حتى بدا لي أنه أوشك على السكاه!
لأن الكتب الأخرى غالية جدا، بل لقد رأيت دمعة كبيرة تمكاد تنساب
من عينيه على أنفه الأحمر، وسألته عما معه من نقود، وتمتم قائلا : (نقود ..
نعم) ثم أخرج المسكين كنزه الكامل ، ملفوفا في قطعة من ورق الصحف .
فاذا بها نصف روبل ، وقطعة من فئة عشرين كوبكا . وعشرون أخرى من
النحاس . وجذبه إلى بائع الكتب الذي ساومته — هنا أحد عشر
كتاباً تكلفنا اثنين وثلاثين روبلا ونصف الروبل ومئتي ثلاثون منها .
دعني أضيف إليها ما تملك ونشترى الكتب ونجعلها هدية مشتركة منا .

وكاد الرجل يحن فرحاً ، ودفع بفضته ونجاسه في يد البائع الذي حمله
فوراً بمكتبتنا التي اشتريناها .

ووعدني العجوز مخلصاً بعد أن حشد الكتب في جيوبه ، وتحت
إبطه ، وعدني بأن يأتي بها إلي في اليوم التالي دون أن يلحظه أحد ،
ومضى إلى منزله .. يحمل كنزه .. !

فلما كان الغد أقبل الشيخ لزيارة ابنته ، وبعد أن قضى عنده حوالى
الساعة كماداته أقبل علينا لزيارتنا ، وجلس في أعرب طريقة هزلية
غامضة يمكن تخيلها ، وأخذ يبتسم متلطفاً وهو يفرك كفيه فرحاً كما
يكتم سراً ، وهمس في أذني أنه قد أحضر الكتب سرا إلى المنزل

وأخفاها في المطبخ تحت رعاية « ماتريونا » ، ثم تطورت المناقشة إلى الحادثة السعيدة التي ينتظرها ، فأفاض في الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها . ولكن كلما تمادى في حديثه زاد يقينى أن عنده ما يخفيه — شيء ما لا يجرو — بل يخشى — أن يذكره ، ولم أقل شيئاً ، ولكنى رأيت هذه اللمحة من الضياء والرضا المكبوت وغمزات عينه اليسرى تكاد تذهب عنه كلها وأنه قد أصبح متلهفاً قلقاً . وأخيراً بدأ يتحدث وبصوت خفيض مضطرب .

— فارقارا اليكسيفنا : أتعرفين فيم . أفكر ؟ . وازداد اضطرابه ، ولكنه واصل حديثه قائلاً :

— ان الأمر هكذا . ماذا لو قدمت إليه عشرة كتب باعتبارها هديتك أنت الخاصة ، وقدمت إليه الكتاب الحادى عشر كهديتى أنا الخاصة . وهذه الطريقة ستقدمين له هدية ، وسأقدم إليه هدية — كل منا يقدم هديته .

وكان مضطرباً بحيث لم يستطع أن يكمل حديثه ، فجلس يترقب قرارى . . وسأله :

— لماذا لا تريدنا أن نقدم هديتنا معاً يا زاخار بتروفتش ؟ قال :

— حسناً يا فارقارا اليكسيفنا ، الحق أن الموضوع هو . .

ثم تلجج متعثر... واحمر وجهه حتى قال أخيراً — الحق أننى
أزل أحياناً يا فارفاراً اليكسيفنا ، بل أخشى اننى أزل دائماً . وباختصار
اننى لأسلك كما ينبغى أحياناً لأن المرء يشعر بالبرد وأحياناً لأنه فى
ضيق ، أو لجرد أن المرء متوَعك المزاج أو أن شيئاً ما قد مضى على
غير ما نشئ ، ولا يستطيع المرء أن يقاوم قليلاً من الخمر يشربها وقد
تزيد أحياناً عما يستطيع أن يتحملة . وتعرفين أن باتنسكا لا يحب هذا ،
انه يغضب منى ثم يعنفنى ويعظنى . وهكذا ستشعره هديتى أننى كنت
أصلح من امرى وإذا ما أردنا الصراحة فسيرى أننى كنت أدخر منذ
أمد طويل ، فما من مخلوق يعطينى القليل من المال سواء . وهذا سيسعده
إننى أنفقت المال فى أمر مثل هذا ، وأننى ادخرته جميعاً من أجله
هو لحسب .

وشعرت بالأسى من أجل المعجوز الذى جلس ينظر الى قلقلأ
يترقب حكى ، واتخذت قرارى بسرعة وقلت . .

— قدم اليه الكتب كلها أنت نفسك يا زاخار بتروفش .

— كلها ، أتقصد من كل الكتب ؟

.. طبعاً . .

— كأنها هدية منى أنا ؟

— نعم

— هدية من عندي أنا ؟

— نعم هدية من عندك انت ا

وبدا كأنه يستطيع ان يستوعب هذه الحقيقة لمدة طويلة . وأخيرا
تم حالمًا :

— طبعي ان هذا سيكون رائعاً — نعم سيكون هذا رائعاً ، ولكن
ماذا عنك انت . . ماذا ستفعلين انت يا فارفارا أليكسيفنا ؟
وقلت :

— لا شيء .

وصرخ هلمًا

— لا شيء منك !! لا شيء على الإطلاق . .

وإذ راعه هذا أبدى استعداداه لأن يتخلى عن هذه الفكرة حتى
أستطيع أنا أيضا ان أهدي شيئا لابنه . كم كان روحه عطوفاً واكدت
له انه ليسعدني ان أهدي إلى ابنه شيئا ولكني لا أريد أن أفسد متعة .
ثم أضفت :

— اذا ما سعد ابنك سعدت أنت ، وسأرعد أنا أيضا بدوري —
وسيكون هذا كما لو كنت قد اهديت اليه شيئا بنفسى .

وطمأنه هذا ، ومكث معنا ساعة أو يزيد ، ولكنه لم يستطع أن

يجلس هادئاً لحظة ما . . اذ ظل يثب هنا وهناك ، يتحدث ويضحك ويعايب ساشا ، ويقبلي ، ويقرص ذراعي ، كلما استطاع ، ويقلد آنا فيدورفنا ساخرأ اذا ما أولته ظهراً حتى اضطرت آخر الأمر إلى طرده . . إنني مارأيته قط في حياتي في مثل هذا الاضطراب والمرح .

وعندما أقبل اليوم الموعد ظهر على عتبة الباب في الحادية عشرة بالضبط عقب انتهاء القداس مباشرة ، وهو يرتدى معطفا باهتاً ألقن إصلاحه . . ثم صداراً وحذاءً جديداً بحق ، وكان يحمل ربطة من الكتب في كلتا يديه ، وكنا في هذه اللحظة قد بدأنا تناول القهوة في غرفة آنا فيدورفنا (إذ كان اليوم يوم الأحد) . وكانت أولى ملاحظات الشيخ أن بوشكين شاعر ممتاز ، ولكنه سرعان ما ارتج عليه القول فعدل إلى القول بأن على المرء أن يصلح من سلوكه بنفسه ، وبأنه لو لم يفعل المرء هذا لزل ، وبأن هذه الزلات الشريرة هي سبب خراب البشر ، وأكد هذا ضارباً أمثلة لا تدع للشك مجالا . ثم أخذ يؤكد أنه أخذ يصلح من أحواله منذ وقت طويل مضى . وبدأ يسلك سلوكاً مثالياً ، وأنه قد وعى دائماً ما في كلمات ابنه من صدق ، وأنها مست قلبه دائماً ، ولكنه الآن حسب قد تغير إلى حال أفضل . والشاهد على ذلك أنه يرجو ابنه أن يتقبل هذه الكتب التي اشتراها بنقود ظل يدخرها طويلاً .

ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك والبكاء في آن واحد وأنا أستمع إلى الشيخ ، فقد عرف كيف يخترع قصة مناسبة عندما اقتضى

الحال ذلك ، ثم نقلت الكتب إلى غرفة ابنه ، ووضعت على الرف ،
ولكن كان من الطبيعي أن يخزن بوكروفسكى الحقيقة فوراً

ثم دعى العجوز بعد هذا إلى الغداء وقضينا يوماً سعيداً حقاً ، وبعد
الغداء لعبنا الورق على مبالغ ضئيلة . وكانت ساشا مبهتجة ، ولم أكن
أقل منها ابتهاجاً ، وأظهر بوكروفسكى اهتمامه بى ، وحاول أن يحادثنى
عندما خلا لى ولسكنى لم أهد له الفرصة .

كان هذا أسعد أيام حياتى خلال سنوات أربع ، والآن تأتى أسود
أيام حياتى وأكثر الذكريات إثارة للألم ، وربما كان هو السبب الذى
من أجله تمضى ريشتى بطيئة حتى لسكنائها تتأبى على الكتابة لعل هذا هو
أيضاً ما دفعنى إلى أن أصف كل هذه التفاصيل الصغيرة فى أيامى السعيدة
ذلك الوصف الأخاذ فلقد كانت أيامى السعيدة أياماً قلائل تبعتهما
الأحزان والمشكلات التى لا يعلم غير الله مداها .

بدأت نكبائى بمرض بوكروفسكى ثم وفاته : كان قد لازم الفراش
بعد مضى شهرين من هذه الحوادث التى ذكرتها آنفاً ، فقد أنهك نفسه
خلالها ، فكان يعمل بجهد كى يتكسب قوت يومه إذ لم يكن له مورد
رزق ثابت يتعيش منه ، وقد ظل حتى اللحظة الأخيرة يتعلق بأمل واهن
كغيره من المصابين بداء الصدر وهو أنه سيعيش طويلاً ، وقد كان فى
استطاعته أن يعمل مدرساً ، ولسكنه كان لا يميل إلى هذه الوظيفة :

من حيث التوظيف في الحكومة فلم يكن محل تفكير نظراً لاعتدال صحته وإلى جانب هذا كان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يحصل على مرتبة الأول وباختصار لم يكن يستطيع أن يرى غير الجانب الأسود من الأمور ، وبالتدرج انطوى على نفسه وتدهورت صحته أيضاً وإن لم يلاحظ هذا وعندما أقبل الخريف كان يخرج في معطف هزيل في أغلب الأحيان وليبحث عن وظيفة ، وكان هذا يشعره بمذلة مريعة ، ولما تكررت غدواته تحت المطر ، تكرر ابتلال قدميه ، لازم الفراش ولم ينهض منه أبداً . ومات في منتصف الخريف في نهاية أكتوبر .

وقد لازمته خلال مرضه لا أكاد أبحر غرفته ، أعنى به والي حاجاته جميعاً ؛ وطالما سهرت عليه ليالٍ بأكملها . وكان يهذى في أغلب الأحيان ، ويتكلم عن كل أنواع الأمور : عن كتبه ، عن الوظائف التي سعى إليها ، عني ، عن أبيه — عن الكثير مما لم أكن أعرفه من قبل وعن أشياء لم تكن تخطر لي على بال . وبدأ لي وكان كل من في المنزل يرمقني بنظرات غريبة في أول الأمر ، وكثيراً ما كانت آنا فيدورفنا تهز رأسها مستنكرة ؛ ولسكني كنت أرد على نظراتها في هدوء ، ويوماً بعد يوم كفوا عن الاهتمام بهذا ؛ وأعلى الاقل كفت عن هذا أى .

وكان ثمة أوقات يتعرف فيها بوكروفسكى ، على ، ولكنه كان يهذى أغلب الأوقات ، وفي أوقات أخرى كان يبدو كن يجادل شخصاً

ما ليلاً بأ كده وفي كلمات غامضة . . وصوته الأجش يدوى في الغرفة الصغيرة كأنه في قبو . وكنت خائفة . وفي ليلته الأخيرة أصابه مس من جنون ، وكان يتألم كثيراً ولا يكف عن الأنين . وخافه الجميع ، وصلت أنا فيدورفنا إلى الله أن يأخذه سريعاً ، وقال الطبيب : ان النهاية آتية لا ريب فيها إذا حل الصباح .

وقضى د بوكروفسكى ، العجوز ليلته أمام باب ابنه حيث فرشت له حصيرة لينام عليها ، وأخذ يتردد على الغرفة بين الحين والآخر ، وكان منظره مخيفاً ، كان الحزن قد أذهله وحطم قلبه ، وطفق رأسه يرتعش اضطراباً ، وظل يتمتم محدثاً نفسه حتى خشيت أن يفقد عقله ، وقبيل الفجر غلبه التعب ، فاستسلم لنوم أشبه ما يكون بالموت .

وما أن تجاوزت الساعة السابعة صباحاً حتى أحسست أن الموت قريب ، فأيقظت الأب : وكان المحضر قد استرد وعيه تماماً فودعنا جميعاً ، وتحجرت الدموع في عيني على الرغم من أن قلبي كان يتحطم .

غير أن لحظاته الأخيرة كانت أسوأ اللحظات جميعاً ، فقد ظل يتضرع ملجأً من أجل شيء ما ولسان ملتو ، ولسكني لم أستطع أن أتبين كلماته ، وكان الأمر أكثر مما أستطيع احتمالاه فقد ظل ساعة كاملة لا يستقر على حال وهو ينظر إلى مستعطفاً يحاول أن يقول لي شيئاً ما بإشاراته ، ثم أخذ يتوسل إلى في صوت أجش لا أميزه ، ولسكني لم أستطع هذه المرة .

أيضاً أن أفهم شيئاً ، فأحضرت الجميع إلى فراش مرضه ، كلا بدوره ،
ولكن دون جدوى ، وأعطيته قليلاً من الماء ، ولكنه هز رأسه أسفا .

وأخيراً فهمت ما يريد . كان يرجو أن أرفع ستار
النافذة كي يحظى بنظرة أخيرة إلى ضوء النهار .. إلى الشمس .. إلى عالم
الله كله .

ورفعت الستار غير أن الصباح الباكر كان كثيباً حزيناً كالحياة
الآفلة .. كانت الشمس محتجبة ؛ والسماء تختفي خلف الضباب .. وكانت
سماه حزينة ممتلئة بالسحب ، ورذاذ من مطر يرسم خطوطاً من ثلج على
زجاج النافذة .. وبدأت الكتابة أعنى بما هي حقاً . وثمة أصابع نحيلة
من الضوء تصارع لمب مصباح الأيقونة المرتعش ، ورمقني المحتضر
بنظرة تقطر تلهفاً وأسى .. وهز رأسه ..

وفي لحظة .. كان قد مضى .. !!

وأشرفت أنا فيدروفنا على تشييع الجناز ، فاشترت تابوتاً بسيطاً
جداً ، وأجرت عربة متواضعة ، ولم تلس أن تعترض عن هذه النفقات
فاستولت على كتبه وممتلكاته الأخرى ، وثار العجوز وتشاجر معها
مشاجرة مريرة ، واستعاد ما استطاع من كتب ، وحشرها في جيوبه .
وفي قبعته ولم يفارقها لحظة لأيام ثلاثة وهو يحملها معه .. حتى في
الكنيسة . وكان مذهولاً .. ضائعاً .. خلال هذه الأيام . يحوم دائماً

حول التابوت . . يعدل الأكفان ، ويضيء الشموع أو يطفئها ، وهو تائه شارد الفكر .

ولم تحضر أمى أو آنا فيدورفنا صلاة الجناز كانت والدتي مريضة ، أما آنا فيدورفنا فكانت تنوى الذهاب ولكن بوكروفسكى عاد فتشاجر معها ، فعدلت عن رأيها . ولم يحضر الجناز سوى والعجوز فحسب ، وتملكنى خلال الصلاة نوع من الرعب ، نوع من التكمين بنذر المستقبل ، وقاومت حتى استطعت بصعوبة أن أنتظر إلى انتهاء الصلاة . وأخيراً أحكم على التابوت غطاؤه ، ووضع على عربة مضت به .

وتبعته حتى نهاية الطريق ، ثم وخز السائق الخيل فمضت بسرعة والعجوز يجرى خلفها وهو يشق باكياً حتى تقطعت أنفاسه ، وسقطت قبعته ، ولكنه لم يثرث ليلتها ، وبلل المطر شعر رأسه على حين كانت الرياح القاسية تصفع وجهه ، ولكنه بدا وكأنه لا يحس بشيء ، وظل يقفز من جانب العربة إلى الجانب الآخر ، وذيل معطفه القديم يتأرجح وتساقطت الكتب من كل جيوبه في حين احتضن أكبرها إلى صدره . وخلع المارة قبعاتهم ، ورسموا علامة الصليب ، بل لقد وقف بعضهم يحدق في العجوز المسكين ، وظلت الكتب تقع من جيوبه في الوحل ، فإذا استوقفه أحد لينبهه إليها اختطفها وجرى كي يلاحق بالعربة .

وعند منعطف الطريق انضمت إليه سائلة عجوز رثة الثياب ، ولما
غابت العربّة عن ناظري عدت إلى منزلى ، وألقيت بنفسى على صدر
أمى وأنا أبكى فى حرقة وأخذت أقبلها وأطوقها بذراعى حتى لكأنى
أردت أن أحمى آخر من بقى لى فى الحياة ، يبدو أن الموت كان واقفاً
بالمرصاد عند رأسها .



١١ من يونيو ...

كم أنا ممتنة لك على نزهة الأمس يا ما كار أليكسفتش اركم كانت هذه
الجزر خضراء جميلة منتعشة ، فأنا لم أكن قد شاهدت الشجر والعشب
منذ مدة طويلة ! وعندما كنت مريضة خيل إلى أن العمر لن يمتد بي
حتى أراها مرة أخرى ، وهكذا يمكن أن تتخيل كيف كان شعوري
بالأمس . ولكنني أرجو ألا يضايقك ما بدا من حزني أمس . كنت في
الواقع سعيدة مبهجة القلب ، ولكنني لست أدري كيف أصبح حزينة
دائماً في أسعد لحظاتي . وإذا كنت قد بكيت فلا تهتم لبكائي ، فإني لا بكى
غالباً ولا أدري : لماذا ؟ ذلك أن الأشياء التي أشعر بها تؤلمني بسهولة ؛
فإحساساتي دائماً مؤلمة : السماء الشاحبة الخالية من السحب ، والشمس
الغاربة ، وصمت المساء . . . ولست أدري : ماذا أيضاً ؟ . حسن . . .
كنت في حالة أنأثر معها بسهولة وقلبي مكدود يطلب الدموع . . . لماذا
أكتب كل هذا ؟ إن كل شيء غامض في قلبي ، فإذا سطرته على الورق
يبدأ خالياً من المعنى ، ولكن ربما فهمت أنت . . . دموعي وضحكاتي أي

إنسان طيب ! ... أى إنسان عطوف أنت يا ماكار أليكسيفتش . عندما كنت تنظر إلى بالأمس أحسست أنك تحاول أن تقرأ ما فى عيني ، وأن تستشف سعادتي . وسواء أكانت شجرة أم سياجا أم مجموعة من الشجر أم نهرا هو ما أرى وأنا مل كنت أنت هناك تراقبني حتى لكأنما كان هذا كله ضيعة تملكها أنت . .

إن هذا كله يشهد على أن لك قلبا عطوفا يا ماكار أليكسيفتش ، ولقد أحبتك أنا لهذا ؛ إلى اللقاء يا عزيزى لئن مريضة اليوم أيضا : فقد بللت قدمي وأصابني برد . فيدورا مريضة أيضا ، وهكذا أصبح كلانا عاجزا . لا أنفسنا وتعال إلينا ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

المخلصة

ف . و .



١٢ من يونية

عزيزتي فارفارا

أتعرفين أنني توقعت أن يكون خطابك بالأمس شعرا ولا شيء أقل من ذلك ! واسكتك كتبت بدلا من هذا صفحة واحدة صغيرة فحسب ، ولا أعني بهذا إلا القول أنه مع أنك كتبت القليل جدا فإنه كان جميلا جدا وعزيرا لدى ؛ ففي خطابك الطبيعة والخضرة والمشاعر ، وباختصار لقد وصفت كل شيء وصفا أخاذاً ، أما عنى أنا فليست ذا موهبة ، ولا شيء يتأتى من كتابتي مهما كتبت عشرات الصفحات . وإننى لأعرف هذا جيدا .

أنت تقولين يا عزيزتى إننى عطوف خير أستجيب للخير الإلهى الذى يتحقق فى الطبيعة البكر ، وتغدقين على الثناء بطرق شتى أيضا ، كل هذا صحيح يا عزيزتى ، صحيح صحة الإنجيل ! إننى بالضبط كما وصفت . إننى أعرف هذا ، أنا نفسى . ولكن قراءة ما كتبت يذيب قلب المرء ، وسرعان ما يسترجع أفكارا ومشاعر حزينة .

والآن سأروى لك طرفاً عن نفسى يا صغيرتى .

عندما التحقت بعمل لأول مرة كنت فى السابعة عشرة من عمرى ،
وكان هذا منذ ثلاثين عاماً خلت ، وأجرؤ على القول بأننى مرقت كثيراً
من معاطف العمل منذ ذلك الوقت ، ولكنى قد نضجت وعقلت .

ورأيت شيئاً من أخلاق البشر أيضاً ، لقد عشتها عيشة كاملة وتيقنى
هذا ، بل لقد أتى وقت أوصوا فيه بمنحى وساماً . ربما لاتصدقين هذا ،
ولكن يشهد الله على صدقى .

ولسوء الحظ يافتاتى يعيث الاشرار فسادا فى كل مكان ، ولعلنى
جهول وبجرد غيى ، ولكنى انسان ذو قلب ككل مخلوق آخر فى هذا
الوجود اتعرفين يا فارينكا ماذا فعل بي هذا الرجل الشرير ؟ — لأننى
لأخجل أن أروى لك ، ولعلك تفضلين أن تسألى : لماذا فعل ما فعل ؟ .
لمجرد أننى أنطوى على نفسى — لأننى هادىء — لأننى طيب القلب .
ولهذا كله لم أكن أرضى ذوقه . هذا هو السبب .

وبدا الأمر بأشياء صغيرة « ما كار أليكسييفتش هو هذا .. ما كار
أليكسييفتش هو ذاك ، .. ثم تطورت إلى ... ماذا تنظرين ما كار
أليكسييفتش ... » ، وأخيراً ... من المعلوم ؟ ، إنه . ما كار
أليكسييفتش طبعاً .. » .

وهكذا ترين يا عزيزتى أنها كانت غلطة ما كار أليكس

هذا هو كل ما فعلوه : جعلوا من ماكار اليكسيفتش كلمة حاضرة على شفاههم في الوزارة كلها ، ولم يكفهم هذا ، فسرعان ما تناثرت الملاحظات والتعليقات عن الأحذية التي ارتديها ، عن معطف العمل ، عن شعري ، بل عن منظري أيضاً .. كلها خطأ ويجب أن تغير . واستمر هذا سنوات . متعاقبة وكل يوم تقريرا على ما أذكر !

لقد ألفت هذا الآن ، فأنا أستطيع أن ألفت أى شيء ، لأنني إنسان ضئيل ، لا وزن له ولا خطر . ولكن ومع هذا .. لماذا يجب أن أعاقب هذا كله ؟ أى خطأ ارتكبت ؟ هل اغتصبت ترقية رجل آخر ورقيت أنا في غير دوري ؟ أى مخلوق ذكرته بسوء عند الرؤساء ؟ هل تشاحنت من أجل علاوة .. ؟ هل تأمرت على أى شخص ؟ إن الشخص لينجمل بمجرد أن يتصور مثل هذه الأمور . وما حاجتي أنا إلى كل ذلك ؟ بل تخيلي يا عزيزي .. هل رزقت من المواهب ما يكفي للطموح والجداع ؟

ليغفر لي الله أخطائي ، ولكن ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ أنا في نظرك رجل محترم ، ألسنت أنا كذلك ؟ وأنت يا حبيبتي أفضل كثيراً من الآخرين جميعاً . ثم بعد هذا كله ما أعظم الفضائل المدنية ؟ لقد قال ، يفستافى إيفانوفتش ، في حديث خاص له بالأمس : إن أعظم الفضائل المدنية هي أن يكون في متناول يد المرء مال ، ولكن من الطبيعي أن حديثه كان مزاحاً (إنني متيقن أن يفستافى إيفانوفتش

كان يزح) ، ولكن المغزى الأخلاقى لهذا القول هو ألا يكون المرء
كلا على أحد ، ولست أنا عبثا على أحد . فعندى كسرة من خبز ، وقد
تكون عفنة ، ولكنى اكتسبتها بعرق جبينى . اكتسبتها حلالا
وأكلها حلالا .

بربك أخبرينى . ماذا على الرجل أن يفعل ؟ حقيقة ليس نسخ
الأوراق بالعمل الخطير . ولكنى مع هذا نفور به لأننى أعمل بعرق
جبينى ؟ وبعد هذا ، فأى عيب فى نسخ الأوراق أخطيئة هو ؟

« إنه يجلس هناك ينسخ ! .. » فأر المكتب ينسخ ! . ماذا فى
نسخ الأوراق ؟ أى عار فيه ؟ إن كتابتى جميلة أنيقة إذا نظرت إليها .
« وسعادتته ، يرضى عنها دائما ، فأنا الذى ينسخ أكثر الأوراق أهمية
« لسعادتته » ، أما عن الأسلوب فلا قبل لى به . لست ذا أسلوب قط :
إننى أعرف هذا جيدا . وهذا هو سبب تخلفى عن الترقية فى الخدمة ..
وحتى عندما أكتب إليك يا عزيزتى فارنيكا فإننى أكتب كما أكتب
الآن .. دون زخرف أو شاعرية ، ولكن كما تتوارد الأفكار إلى ذهنى .
إننى أعرف هذا جيدا . ولكن بربك أخبرينى . ماذا يحدث لو بدأ
الكل ينشئون ، من سيقوم بالنسخ ساعتها ؟ أجيبينى على هذا يا عزيزتى
هل تستطيعين ؟ إذن فأنا ضرورى ، وليكفوا عن سخريتهم بى .
وليسمونى فأر مكتب إذا ما كنت أبدو مثل الفأر ، ولكن ألا يرون
أن هذا الفأر ضرورى ؟ . وأن هذا الفأر له نفعه ؟ . فأر يجب أن يقدر .

فأرى يجب أن يكافأ . هذا هو أى نوع من الفئران أنا . ولكن كفانى
حديثاً عن الفيران يا عزيزتى ، فما كنت أنوى ذكرها ، ولكننى فقدت
أعصابى فنسيت ، ولعله من الممتع بين وقت وآخر أن نعطي الشيطان
حقه .

إلى اللقاء يا عزيزتى ، يا عزائى الوحيد . يافتناى الوديدة .. إننى واثق
أننى سأقـى لرؤيتك قريباً يا ملاكى الصغير ، وإلى أن آتى لاتشعرى
بالوحدة ، وسأحضر كتاباً معى أيضاً . إلى اللقاء يا قارنيكنا .

المخلص الذى يتمنى لك كل خير

١٠ كار دوفشكين



٣٠ من يونية

عزيزى ماكار اليك سيفتش

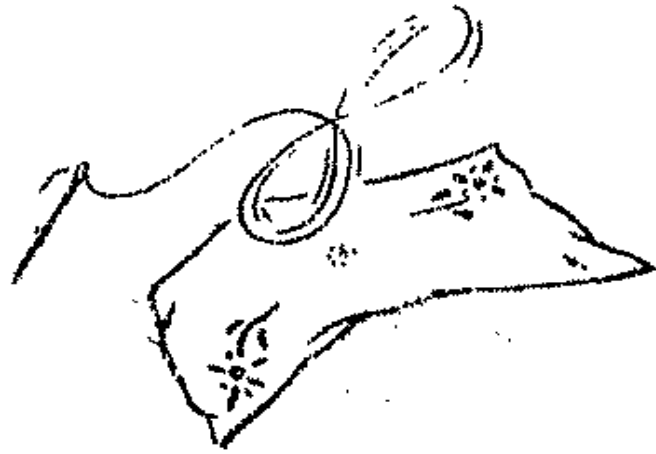
اكتب هذا فى بحلة من امرى كى استطيع ان انهى عملى فى موعده ،
ودعيني اوضح لك ان هناك فرصة لعقد صفقة طيبة ، ففيدورا تقول :
ان شخصاً ما يريد ان يبيع كسوة كاملة بذنطاونها وصداها وغطاء
الرأس ، جديدة تماماً ورخيصة أيضاً أفلا استطعت شراءها ، وقد
اعترفت لى أنك فى حال أحسن الآن ولا تدعى أنك لا يمكنك
شراؤها . ان هذه الاشياء مهمة ومفيدة جداً . ما عليك إلا ان تنظر
الى نفسك يا ماكار ، انظر الى الثياب التى ترتديها . إنها رثة جداً حتى
تثير الخجل . وليس عندك شىء جديد أبداً على أى حال وأنا واثقة من
هذا رغم ما تزعمه ان عندك ثياباً جديدة . ويعلم الله ماذا فعلت ببذلتك
الجديدة . اننى اتوسل إليك ان تتخذ قرارك . اشترها من أجل خاطرى ،
كى تثبت لى أنك تعبنى .

لقد أرسلت لي هدية بعض الكتان ، ولكنك تكاد تشرف على الإفلاس . إن الطريقة التي تنفق بها نقودك طريقة مروعة ، أي متلاف أنت ؟ الحق أن هذه الأشياء ليست ضرورية أبداً إنني أعرف بل إنني متأكدة تماماً أنك تحبني ، إذن فليس ثمة داع إلى أن تذكرني بهداياك وخاصة عندما يكون من العسير على أن أقبّلها وأنا أعلم كم تسكّلك . للمرة الأخيرة لا تفعل هذا مرة أخرى .. إنني أرجوك . إنك لن تفعل .. أليس كذلك ؟

لقد طلبت مني يا ما كار اليكسيفتش أن أرسل إليك بقية مذكراتي ، وأردتني أن أكملها . وأصارك الحق إنني لا أكاد أعرف كيف استطعت أن أكتب ما كتبت . فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن الماضي أرحتي أن أنكر فيه . إنني أخشى أن أكره بصرى إلى الوراء . وأشق من هذا على نفسي أن أتحدث عن والدتي المسكينة التي مضت وتركت ابنتها بين مخالب الوحوش الضواري . إن مجرد تذكر هذا ينسكاً جراح قلبي . وكلها جراح قريبة العهد حتى إنني لم أسترده نفسي رغم مرور عام وأحاول جهدي أن أختلي بها كي أستعيد هدوئي .. ولكنك تعرف كل شيء عن هذا كله .

لقد أخبرتك بما تراه أنا في دورفنا الآن ، فهي تهمني بالجنود ، وتنكر صراحة أن لها علاقة بتصرفات مستر بايكوف وهي

تطلب منى العودة قائمة لإننى أعيش على التبرعات وأنه ما من خير سينتج
عن هذا كله ثم تقول لإننى إذا عدت فستحمل مستر بايكوف على
تبريضى وإعطائى صداقا طيباً . فليخفر لهما الله . لإننى أسعد حالا هنا
معك ومع فيدورا الحزون التى تذكرنى بحنان مرضعتى . وأنت — رغم
بعد صلة القرابة بيننا ، فإن مجرد اسمك يحمينى . أما هم فلا أريد أن
أعرفهم . بل أرجو لو استطعت نسيانهم . ماذا يريدون منى أكثر من
هذا ؟ . . تقول إن هذا كله مجرد شرثرة ، وأنهم سيتركوننى وشأنى .
الا فليستمع الله إليها .



٢١ من يونيو .

حبيبتي .. يمامتي الوديدة

لست أدري كيف أبدأ خطابي إليك فياله من أمر غريب أنت
نعيش نحن هنا بهذه الطريقة . وما تمتعت في حياتي بأيام سعيدة مثل
هذه كأن الله أنعم علي بأسرة ومسكن .

حبيبتي ، يا أجمل فتاة في الوجود ، لماذا تبهرين أنفاسك العزيرة
من أجل هذه القمصان الأربعة المتواضعة التي أرسلتها إليك . لقد
أخبرتني فيديورا أنك بحاجة إليها وكان من دواعي سعادتني أن أهدي
إليك شيئاً . الأمر كله لا يعدو متعتي أنا ، منعة لي أنا وحدي : إذن
فدعيني أحظى بهذه السعادة يا حبيبتي : لماذا تؤليني وتبهج حين شعوري ؟

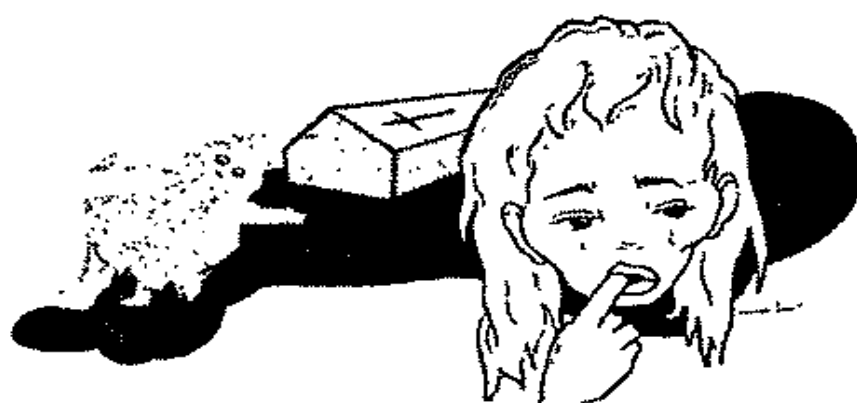
لقد أصبحت حياتي ذات قيمة يا فارنيكا . فأنا أعيش من أجل
اثنين : من أجلك ، ومن أجل نفسي ، والشئ المهم الآخر أنني سأخطو

أولى خطواتي في المجتمع ؛ فقد دعاني جاري «راتازيف» ، هذا الموظف
الذي يقيم تلك الندوات الأدبية ودعاني إلى الشاي هذا المساء حيث
نعقد إجتماعاً لقراءة الأدب .

إلى اللقاء يا عزيزتي ، لقد سطرت إليك هذا دون غرض خاص
اللهم إلا أن تعرفي أنني على مايرام ، ولقد أخبرتني تريزا بحاجتك إلى
بعض الحبر للتطريز . سأشتريه يا حبيبتي ، سأشتريه لك بالتأكيد غداً
على الأكثر . سأحظى بمتعة تلبية رغبتك يا عزيزتي الصغيرة ، بل لأنني
لأعرف بالضبط أين يمكن شراؤه . . وسأظل .

صديقك المخلص

ماكس



٢٢ من يونية

عزيزتى فارفارا . . .

يؤلمنى أن أخبرك بشيء يثير الشجن — حادث مفرج وقع فى منزلنا .
لقد توفى ابن جورشكوف الصغير بعد الرابعة بقليل من هذا الصباح ،
ولست أعرف ماذا سبب وفاته ، لعلها الحمى القرمزية ، أو شيء آخر
من هذا القبيل ، وكان من الطيبى أن أذهب لمواساتهم . ويالله ! الحق
أنهم يعيشون عيشة بائسة ، وأى اضطراب يشيع فى غرفتهم ! ولا عجب .
فكلهم يعيشون فى غرفة واحدة تقسمها عدة ستائر حتى لا يندش الحياء .
وقد أعد السكفن ، كفن بسيط ابتاعوه جاهزاً ، وكان الطفل فى التاسعة
من عمره — طفل يبشر بالخير كما يقولون .

لأنه لمن المؤلم حقاً أن ينظر المرء إليهم يا فاردسكا .. كانت الأم تبكى ،
ولكنها كانت حائرة ذابلة ، ولعل ما خفف من فجيعتهم فى الواقع أن
تقل عدد الأفواه التى يطعمونها طفلاً ؛ فعندهم طفلان آخران : طفل
وبنت نحيلة فى حوالى السادسة من عمرها ، لأنه من المؤلم حقاً أن يرى

المرء كيف يتعذب الأطفال وخاصة إذا كانوا أبناءه — وهو لا يستطيع أن يبذل لهم شيئا .

وكان الأب يجلس على كرسي محطم في جلباب يلعب والدموع تنساب غزيرة على وجنتيه ، وأعلمها لم تكن تنساب حزنا ، ولكن بحكم العادة فحسب . ويبدو أن بعينه علة ما . غريب أمر هذا الرجل يا فارنكا ، إنه في خجل دائم ، إذا خاطبه المرء . ولسانه يتعثر ويرتبك دائما . ووقفت ابنته غير بعيد عن التابوت .

كانت المسكينة شاحبة تستغرق في تفكير عميق . ولأني لأكره أن أرى طفلا يستغرقه الفكر قبل أوانه إلى هذا الحد يا فارنكا ، إنه لمؤلم حقا . . . ولست أدري كيف ؟ . وكانت دميتها ترقد ممزقة على الأرض بينما وقفت هي ساكنة بلا حراك لا يحس بها أحد وإصبعها بين شفتيها ، ووقدمت إليها صاحبة دارنا قطعة من حلوى فأخذتها ، وأكبتها لم تأكلها .

ان هذا هو الأسى بعينه يا فارنكا . . أليس كذلك ؟ ؟ . .

ما كار دوفشكين

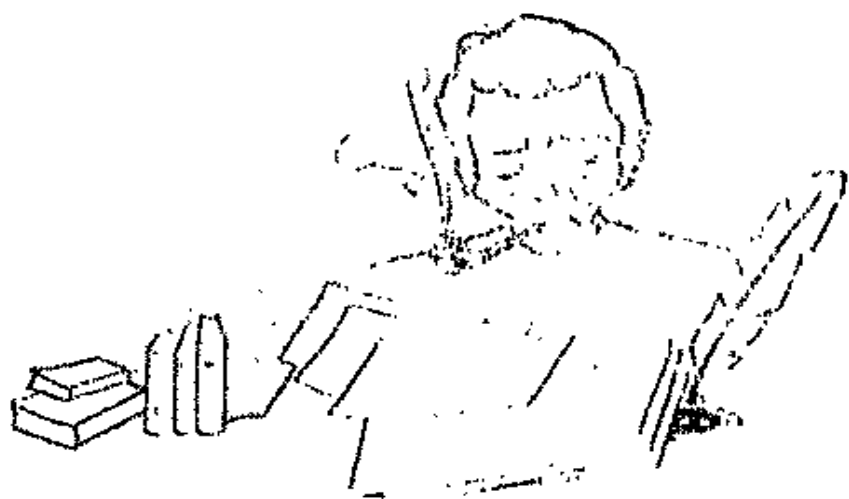


٢٥ من يونية

عزيزى ماكار اليكسيفتش ..

أعيد إليك كتابك وياله من كتاب قدر يشير الإهتمام . من أى
حفرة ياترى جئت بهذه « الجوهرة » .. ولكن دعنا من الهزل : أتحب
حقا مثل هذه الكتب يا ماكار اليكسيفتش ؟ لقد وعدتني بالأمس
أن ترسل لى شيئا آخر أقرؤه . وسنشارك معا فى قراءته . والآن إلى
اللقاء ، فأمامى عمل ، وليس عندى من الوقت ما أستطيع معه أن أطيل
فى الكتابة .

ف د .



٢٦ من يونية

عزيزتى فارنيكا

أصرح لك بالحق ، إننى لم أقرأ ذلك الكتاب يا عزيزتى إنما قرأت صفحات قلائل منه فحسب . ورأيت كلها سخافات قد كتبت ليجرد إغواءك الناس ، وظننت أن هذا سيسايبك ، وقات لنفسى : من يدري ؟ لعسل و فارنيكا ، ستعجب به أيضاً . و هذا هو سر إرساله إليك .

واقعد وعدنى ، راتازيف ، أن يعيرنى شيئاً يستحق القراءة حقاً . وسيكون لديك الكثير لتقرئيه يا عزيزتى . إن راتازيف ، هذا شخص عميق ، إنسان مشفق فعلاً ، بل إنه ليكتب أيضاً . . ويا إلهى . أى جمال فى كتابته . إن له قلباً مليحاً ، ويعرف كيف يتخذ أسلوباً فى كتابته ، بل فى كل كلمة من كلماته ، بل والكلمات العامة التافهة التى أستعملها أنا فى حديثى إلى قالدونى أو تريزا مثلاً ، يملؤها هو جمالا إذا ما استعملها .

إننى أحضر ندواته دائماً ، وبينما نجلس نحن هناك ندخن يقرأ علينا كتاباته ويمضى بنا الأمر أحياناً حتى الخامسة صباحاً .. إنها حفلة أدب .. وبالروعتها من حفلة ! . إنها زهور تثر ، حتى ليسكون فى استطاعتك أن تصنعى باقة من كل عبارة !

وهو أيضاً عطوف متزن فاضل . إننى لا شئ إذا قورنت به ، فله شهرته ... وأنا ؟ .. ليس لى يا عزيزتى شئ منها .. إننى لا أعيش .. ومع هذا فهو يمنحنى عطفه ، بل إنه ليدعنى أنسخ له بعض الأشياء ، ولا نظنى يا عزيزتى أنها مجرد حيلة منه ، وأنه يعطف على كى يجعلنى أنسخ له فحسب بعض الأشياء ! إنها ثروة قدرة يا عزيزتى مجرد افتراء .. إننى أفعل هذا لأننى فعلاً أريد أن أفعل هذا ... أفعله من أجل لذتى أنا فحسب ، وهذا بالضبط هو سبب عطفه على — كى يمنحنى هذه اللذة . وأحسبني قادراً تماماً يا عزيزتى على أن أقدر العطف والركة فى المعاملة . عندما أحس بهما . إنه رجل طيب عطوف بل وكاتب مبدع أيضاً .

إن الأدب شئ عظيم يا فارنسكا . شئ عظيم حقاً . هذا ما علمته منهم أول أمس . وهو شئ عميق أيضاً . وفى الكتب شئ ما يبنى ويقوى وأشياء أخرى كثيرة أيضاً ، وكله مكتوب بجمال أعاذ . إن الأدب يفتاقى صورة . أعنى صورة من نوع ما . والأدب مرآة : هو يعبر عن الانفعالات ويوجه إلينا نقداً جميلاً ويرشدنا إلى الصواب . وهو أيضاً سجل للحياة . لقد تعلمت هذا كله منهم . وأصرح لك يا عزيزتى ، أننى

أستطيع أن أجلس هناك أصغى إليهم ، (مدخنا غليون مثل الآخرين) ،
ولكن . . ما أن يبدؤوا المناقشة في شتى الأمور حتى أتخلف أنا عنهم
يا فارنيكا ، وهذا أكثر مما يعيه عقلي ، وطبيعي أننى أحاول أن أبدو
حكيماً مثزناً ، ولكن الحق أننى أخجل من نفسى ، إذ أجلس هناك طيلة
المساء كسكتلة من خشب ، محطاً عقلى بحثاً عن كلمة مناسبة ؛ ولكنى
لا أجد حتى هذه الكلمة ، بل نصف كلمة مناسبة . ويشعر المرء بالأسى
يا فارنيكا إذ يحس أنه يقل عن مستواهم ، وكما يقول المثل : « ما من
أحق مثل الأحق العجوز » .

وماذا أفعل أنا بوقت فراغى ، إننى أنام كلوح من خشب . . وماذا
يجب أن أفعل ؟ يجب أن أفعل شيئاً راقياً . . يجب أن أجلس لأكتب
شيئاً ما : سيكون هذا مفيداً لى وللآخرين . طبعى أن يفسد هذا
يا عزيزتى . . أتعرفين كم يكتبون من الأدب . . ؟ نخذى رانازيف
مثلاً ، وكتابة صفحة لا شيء بالنسبة له : فهو يستطيع أن يكتب أكثر
من خمس صفحات كل يوم . أتعرفين كم يكتب ؟ . . ثلثائة روبل كما
يقول .

وإذا كان ما يكتب قصة مسلية أو شيئاً ما أعجب به الناس حصل على
ما يقرب من خمسمائة . فإذا رفضوا إعطاءه هذا المبلغ طلب ألفاً في المرة
القادمة . ولا يروءك هذا يا عزيزتى فقطوعة صغيرة من الشعر . . وعنده
كراسة مليئة بالفصائد . . تتيح له كسباً لا يقل عن سبعة آلاف كوبك تخيل

هذا - إنه ثمن ضيعة أو قصر . . . لأنه يقول إنهم عرضوا عليه خمسة آلاف ثمننا لكتابته ولكنه رفض . وكم توسلت إليه أحاول إقناعه . أستحلفك الله يارا تازيفا أن تقبل هذه الآلاف الخمسة ، واذهبوا هم إلى الشيطان . . إنها خمسة آلاف روبل نقداً ، ولكنه كان غنيماً ، فقال « سيعطونني سبعة آلاف . . »

اليس حاذقاً يا عزيزتى ؟ ؟

لماذا أسهب في الحديث ؟ اليس من الأفضل أن أقتبس شيئاً من « الغراميات الإيطالية » ، وهذا هو اسم كتابه ؟ . . عليك أن تحكى أنت بنفسك . .

« وثار فالديمر ، فقد ارتفعت في عروقه حدة العاطفة حتى وصلت إلى درجة الغليان ، وصرخ قائلاً :

— سيدتى الكونتيسة ، أتعرفين : أى جنون بلغته عبادتى ؟ وإلى أى مدى بلغ هذا الجنون ؟ كلا إن أحلامي لم تخدعنى - إنى أحبك بشغف وشيطنة . أحبك كرجل مجنون . إن كل الدماء التى فى جسد زوجك لم تستطع أن تطفى لهيب قلبى المدمر الذى يحرق صدرى المسكود . . آه يا زنايذا . حبيبتى زنايذا .

— فلاديمير ،

هكذا همست همسة مكتومة وهي ترتجى على صدره . وهنا هتف
«سملسكى، المدله مرة أخرى

— حبيبتي زنايدا !

« وكانت أنفاسه تنطلق في لثثات حارة متقطعة .. وكان مصباح
الحب يعترق مضيئاً على مذبح الغرام ، فتكتوى بناره قلوب العاشقين
البائسين ..

وهمست مرة أخرى في نشوتها .. على حين أخذ صدرها يعلو وينخفض
ووجنتها تحترقان ، وعيناها تشعان ناراً ..

.. فلاديمير

.. وهكذا ولد اتحاد جديد مخيف !

وبعد ذلك بنصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته .
وقال العجوز :

— حسنا يا حبيبتي ألا يجب أن نعد موقد الشاي ترحيباً
بضيوفنا .

وربت على وجنتها .

والآن . مارأيك في هذا يا فارنكا ؟ . لعل به شيئاً من النزق والخفة
ولكنه جميل ، وعتع أيضاً في الوقت نفسه . ولنحكم على الرجل بما هو
جدير به ، وإليك قطعة أخرى من قصته يرماك وزليخا . تخيلي يا عزيزتي
أن الفاتح السيبيري المتوحش الخيف يحب زليخا : ابنة القيصر السيبيري .
كوتشوم . وزليخا الآن أسيرته . وكما ترى هذا شيء جديد من أيام
إيفان الخيف .

— أنت تحبيني يا زليخا . قولي مرة أخرى إنك تحبيني .
. . أنت تحبيني يا زليخا

وهمست زليخا

— إنني أحبك حقاً يا يرماك

— إذن بحق الأرض والسماء : إنني أشكرك ، فلقد أسعدتني بحق
السماء والأرض ، ومنحتني كل شيء : كل شيء كانت تبحث عنه روعي .
المعذبة منذ ولدت . من أجل هذا سعت إلى هذا المكان يا نجمي المرشد
ولهذا سعت إلى ما وراء سلاسل جبال الأورال . وسيرى العالم كله
الآن حبيبتى زليخا . ولن يقف في طريقى إنسان أو شيطان أو وحش
من الجحيم ، آه لو استطاع البشر أن يفهموا الغرام الخفي الذي يعمل في
قلوب الرقيق ، وأن يروا أى شعر يكمن في دماغها الصغيرة ، ألا فلتعذبنى

أيها الكائن الذي ليس من هذه الأرض حتى أشرب من هذه القطرات
الساوية . .

وقالت زليخا

— يرماك ، إن العالم قاس ، والبشر ظالمون . سيتردوننا من أيديهم ،
سيضطهدوننا يا حبيبي يرماك . وفتاه مسكينة مثلى تعيش وسط الثلوج في
خيام أجدادها ستذبل حتما في مجتمعتك القاسية ، ذلك المجتمع المشحون
بالزيف والخضوع للعرف ، والصلاف والكبرياء ، إنهم لن يفهموني قط ،
يا منية قلبي ،

وصرح يرماك وعيناه تشعان نارا : هل هذا صحيح ؟ إذ فليغنى سيف
القوازيق ويصفر جذلا فوق رموسهم . .

تخيل إذن يا « فارنيكا » شعوره عندما علم أن « زليخا » قد قتلت
بطعنة خنجر ، لقد تسلل كوتشوم الأعلى العجوز تحت جناح الظلام
إلى خيمة يرماك وطعن ابنته ، كان يعلم أنه إنما كان يسدد طعنة قاتلة إلى
الرجل الذي سلبه عرشه وصولجانه.

وصرخ يرماك في ثورة حقده ، وهو يشحذ سيفه على الصخر الصلب :

— إنني لأعشق سيني وأنا أشحذه في الصخر ، سأرتوي من دم قلبه ،
ثم أهشم الشقي ، وأمزقه إربا إربا .

وحينما لم يستطع « يرماك » أن يتحمل مصيبة فقدته زليخا .. « ألقى
بنفسه في نهر إرتش ... وانتهت القصة » .

وإليك قطعة أخرى كتبها بطريقة « هزلية » لمجرد إضحاك الناس :

هل تعرف إيفان بروكوفيفتش زلتوموز ؟ . إنه الرجل الذي عض
بروكوفى إيفانوفتش فى ساقه . إن إيفان بروكوفيفتش شخصية متزنة
ولكن له مزاياه النادرة على حين أنه على العكس من هذا يغرم بروكوفى
إيفانوفتش باللفت والعسل ، وعندما كانت بيلاجيا أنتونوفنا صديقه ..
هل تعرف بيلاجيا أنتونوفنا ؟ إنها المرأة التى ترتدى ملابسها الداخلية
فوق ملابسها الخارجية دائماً ..

أى سخرية يا فارتكا ؟ وأى فكاهة فذة ؟ .. لقد ضحكنا حتى كدنا
نقضى من الضحك عندما قرأها علينا بصوت عال . فأى نوع من الرجال
هو ، ليساعده الله . لعلمها خيالية إلى حد ما ، وبها كثير من النزق ، ولكنها
بريئة كلها ، وليس بها شيء من الفكر الحر أو المثل الراديكالية . وأشعر
أنه من واجبي يافارنيكا أن أقول إن راتازيف رجل متين الخلق ، ومع
هذا فهو كاتب ممتاز — وهذا أكثر مما يمكن أن يقال عن معظم
الكتاب .

ولكن أى أفكار تافهة تطرأ للبرء أحياناً ، ماذا لو كتبت أنا أى شيء ؟
تخيل أنك رأيت فجأة كتاباً عنوانه « أشعار » بقلم ماكار دوفشكين ..

« ماذا ستقولين ساعتها ياملاكى الصغير ؟ .. » ، وماذا يكون شعورك ؟ .
أما عن يا حبيبتى فلن أجزؤ على إظهار نفسى فى ضاحية « نفسكى » أبدا .
كيف يكون إحساسى عندما أشعر أن كل شخص ينظر إلى قائلا : إليكم
دوفشكين .. الشاعر والأديب .. دوفشكين بالجملة ودعه ؟ .. وماذا
أفعل بأحذيتى ساعتها ؟

وبهذه المناسبة أحب أن أذكر أنها دائماً مرقعة . وأن نعالها تصفق
أحياناً بطريقة تشبه الخجل . وأى فظاعة لو رأى الجميع أن دوفشكين
الشاعر والأديب يمشى فى أحذية بالية مرقعة ؟ . وماذا ستقول السكونتيسة
المدوقة لو رأتى ؟ لا أظن أنها ستلاحظ هذا : فالحق أن السكونتيسة
لا تعنى أبداً بالنعال وبخاصة نعال كاتب حكومى . [فالدنيا ممتلئة بالنعال]
ولكن أصدقائى سيتناولون عني ، وسيكون أولهم راتازيف ، وهو كثيراً
ما يزور السكونتيسة « ب » .. كل يوم تقريباً كما يقول . وهم يستقبلونه
كصديق قديم ويرفعون الكفاة معه . لأنه يقول : إنها امرأة رائعة ..
أدبية لحماً ودماً . أى مخلوق رائع راتازيف هذا .

ولكن دعينا من هذا كله ، لقد كنت أكتب لمجرد لذة الكتابة ،
ولكى أسليك . إلى اللقاء يا عزيزتى لقد كتبت قدراً كبيراً من الغو
الفارغ ، وهذا يرجع إلى انشراح صدرى اليوم فقد تناولت الغذاء مع
راتازيف ، وشربو الخمر جميعاً ويا لهم من شياطين ، وما كان يجب أن

أذكر ذلك ولكن لا تتخيلي أي شر من ناحيتي فالأثر كله لا يعود
الحديث . سأرسل إليك الكتب ، سأرسلها إليك بالتأكيـد ، هناك
كتاب بقلم « بول دي كوك » يتخاطفه الجميع في المنزل الآن ، ولكن
ليس هذا بالكتاب الذي يناسبك قراءته يا عزيزتي ، لا يناسبك بأية
حال ، مثل هذه الصفحات لا تناسبك . ويقال إن هذا الكتاب قد
أثار سخط كل نقاد بطرسبرج .

أبعث إليك برطل من الحلوى اشتريته خصيصاً لك . تتمنى بها
يا حبيبتي ، واذكريني كلما تناولت إحداها ، يجب أن تمتصى الفاكهة
ولا تقضميها يا عزيزتي والا أفسدت أسنانك . هل تحبين الفواكه المجففة .
أكتبني إلى إذا كنت تحبينها . وداعاً يا فارنيكا . وليكن المسيح معك .
يا عزيزتي الصغيرة .. وسأظل .

أخلص الأصدقاء

ماكار



٢٧ من يونيو

عزيزى ماكار . .

.. تؤكد لي فيديورا أن هناك من يبغى مساعدتي ، بأن يهيء لي وظيفة لا بأس بها كربية أطفال . هل أوافق أو لا ؟ بماذا تنصح ؟ . لو وافقت فإن أكون عبثا عليك بعد ؛ والوظيفة مجزية أيضا . ومن ناحية أخرى فإن فكرة دخول منزل غريب ترعبنى . إنهم ملاك أرض وسيألون عن ماضى . فيماذا أخبرهم ؟ أضف إلى هذا ما تعرفه عنى من نفور ، فأنا أخشى الناس . ولقد ألفت الأماكن التى عشت فيها طويلا وأحس بالسعادة فيها حتى لو كانت الحياة فيها قاسية ، وهذه الوظيفة فى مكان قصى ، ولا يدري أحد ماذا ستكون مهمتى .

لعلنى ساعنى بالأطفال ، ويبدو أنه من العسير معاملتهم ، فلقد تبدلت

عليهم مريبتان في عامين . أرجو أن تبعث إلى إنصحك يا ماكار
 أليكسفتش . هل أذهب أو لا . . . ؟ . ولماذا لا تزورنا ؛ إنا لا نراك
 كثيرا في هذه الأيام . . . اللهم إلا في أيام الأحاد وفي الكنيسة حسب .
 أنت أيضا تنفر من الناس مثلي تماما ، ولكن تذكر أنني من ذوى قرابتك .
 أو هل لا يعدو الأمر كله إلا أنك تحبني ، وأنا وحيدة حزينة ،
 وعندما يأتي المساء أجلس وحيدة مع نفسي إذا ما خرجت فيدورا
 لقضاء أية حاجة — وأجلس أنا أفكر وأفكر وأتذكر الأيام الخوالي
 كل ما كان حزينا وكل ما كان ممتعا كما تضي أمام عيني ثم أسترجع كل
 الوجوه التي أحببت وألفت مرة أخرى (حتى لا أكاد أراها رأى العين ،
 ويرادني خيال أمي أكثر من الآخرين ، ثم أي رؤى وأحلام تراودني ؟
 أحسن أن صحتي تتدهور ، فأنا ضعيفة جدا ، وعندما استيقظت هذا
 الصباح أصابني الإغماء . ولقد تملكني سعال خبيث لفترة ما ، إنني
 لأعتقد أن أجلى قريب ، ولكن من يعنيه هذا ؟ من سيدفد دمة من
 أجلى ؟ ومن سيشتيع جثمانى إلى مقبره الأخير ؟ بل لعله كتب على أن
 أموت في منزل غريب . وفي مكان غريب . يا إلهي . . كم هي حزينة
 هذه الحياة !

بربك لماذا تغذي بالحلوى طوال الوقت يا ماكار ؟ ألحق أنني
 لا أستطيع أن أتخيل مصدر هذه النقود أفلا تقتصد نفودك يا صديق
 العزيز ؟ .

فيدورا تبيح قطعة من قماش طرزتها أنا ، وهم يعرضون خمسين روبلا
ثمنا لها وهو ثمن معقول ، لم أكن لأتوقعه . سأعطي فيدورا ثلاثة
روبلات ، ثم أخيط فستاناً لنفسى : فستاناً بسيطاً ، ولكنه سيدفئنى ،
وسأعمل صدارا لك سأفصله لك بنفسى ومن قماش جيد أيضا .

واقدرت فيدورا كتاب . حكايات إيفان بلكين^(١) ، وهأذا
أبعث به إليك لتقرأه إذا أردت ، ولكن أرجوك ألا تهمله فيتسخ ،
ولا تحتفظ به طويلا فهو ليس كتابى . . . وقد قرأت هذه القصص
أنا وأبى معاً منذ سنتين ، وأحزنتنى الآن أن أقرأها وحدى : إذا كان
عندك أى كتب فأرجو أن ترسلها إلى — اللهم إلا إذا كانت من عند
ريتا زيف . ومن المؤكد أنه سيهدى إليك مؤلفاته عندما تطبع ، ولكن
هذا لن يحدث . بربك كيف تعجب بها يا ماكار اليكسيفتش ؟ . إنها
لا تعدو مجرد تفاهات .

والآن وداعاً ، لقد أفضت كثيراً ، ولكننى أحب أن أثرر أحيانا عندما
أكون حزينة . إن الثثرة كالدرام ، لأننى أخفف من هموم عقلى بهذه
الطريقة وداعاً يا صديق . . . وداعاً

المخالصة

ف . د

(١) مجموعه قصص بقلم بوشكين كُتبت فى عام ١٨٢٠ .



٢٨ من يونيو

فارقارا أليكسييفنا .. يا يمامتي

ألا تخجلين من استسلامك لمثل هذا اليأس ؟ — وكيف يمكن —
يا ملاكي — أن تراودك مثل هذه الأفكار ؟ إنك لست مريضة على
الإطلاق يا حبي ، لست مريضة على الإطلاق فأنت تزدهرين .. تزدهرين
فحسب ، هذا كل مافي الأمر . ولعلك شاحبة قليلا ، ولكنك تزدهرين
رغم ذلك . وأد أحلام ورؤى تلك التي تخجلين ؟ يجب أن تخجلي
يا حبيبتي الصغيرة . إنك تستطيعين أن تطردوها جميعاً بإشارة من
أصابعك . وكيف أنام أنا نوما عميقا ؟ — أو تظنين ذلك لأنه
لا يزعجني شيء ؟ لماذا إذن لا تمشلين بي ؟ إنني أنام كلوح من خشب ،
وفي أتم صحة وقوة حتى لسكأنني شاب صغير إنني فعلا كذلك .

دعيك من هذا كله إذن بافارنكا ، وتعالكي أعصابك . إنني أعرف ..

هاذا يدور في رأسك الصغير . فأى ثقافة تثير فيك الأحلام والقلق . ألا تتكلمين عن ذلك من أجل ؟ أما عن وظيفة المربية هذه فلا تقبلها أبداً . . . كلا ، ثم كلا ، بربك كيف يمكنك أن تفكرى مثل هذا التفكير ! والمكان قصى أيضا . كلا ياعزيزتى . لن أوافق على هذا . وأعارض الفكرة بكل قوتي .

لأننى لأفضل أن أبيع معطى القسديم أولا وأمشى فى ملابسى الداخلية ولا أدعك تقاسين أبدا من الحاجة . كلا يافارنيكا . ليس هذا ما يناسبك : إنها حماقة لا أكثر . وأنا واثق أن فيدورا هى الملوثة فى هذا كله ، فهذه المرأة الخقاء هى التى أدخلت هذه الفكرة فى رأسك ، فلا تستمعى إليها ياعزيزتى ، ولعلها ترمى إلى أغراض لا تعرفينها ، وهى خقاء تنيفظنى ثرثرتها ، ولقد ظلمت تعسكر حياة المرحوم زوجها حتى أدت به إلى الموت لعلها أغضبتك ، ولكن حتى لو حدث هذا فكللا ثم كلا ياعزيزتى ، فلا تقبلى هذه الوظيفة من أجل أى شئ فى العالم .

وماذا سأفعل أنا ؟ وأى شئ سيقى لى ؟ كلا ياعزيزتى فارنيكا . اطردى هذا الموضوع كله من عقلك . وبعد هذا كله ماذا ينقصك هنا ؟ وأى متعة تمنحيفنا . . . أنا وفيدورا وأنت مغرمة بنا أيضا . لماذا إذن لا تعيشين مطمئنة مرتاحة كما نعيش نحن ؟ تستطيعين أن تقرنى أو تحوى الملابس أو مجرد أن تقرنى ولا تحوى . . . فقط لا تتبعدى عنا أبدا ، فذهابك

بعيداً ان يأتى بخير . سأتى بالكتب التى تطلبين . . . وسقوم بنزهاتنا مرة أخرى ، ولكن تعقلى ولا تفكرى أبداً فى مثل هذه الحماقات وسأتى لزيارتك سريعاً .

اغفرى لى إذ أصرح لك بالقول — ولكنى لا أملك إلا أن أصرح لك : إن ما قلته عار يا عزيزتى — عار مشين . طبعى أنى لست بالرجل المثقف ، والتعليم الذى حظيت به لا يساوى كوبىكا كما يقول المثل . ولكنى لا أريد أن أتحدث عن نفسى بل عن « راتازيف » . — اغفرى لى يا عزيزتى ، ولكن يجب أن أتشفع من أجله ، فهو صديق ومن واجبى أن أفعل هذا . إنه يحسن الكتابة حقاً بل الواقع أن كتاباته ليست رديئة على الإطلاق ، ولا أستطيع أن أوافقك على رأى فى هذا — لأننى بصراحة لا أستطيع ، فهو يكتب بطريقة مبدعة كلها قوة ، وبأسلوب حديث لطيف ، وفى كتابته كل أنواع الأفكار أيضاً . ولعلك قرأتها وأنت فى غير استعداد لتقبل ما يكتب يا فارتكا . ولعلك كنت متحرفة المزاج — لعلك كنت غضبى مع فيدورا أو ضايقتك شىء ما . أقرئها مرة أخرى يا فارتكا وأنت فى حالة هادئة وبذلى لها عناية أكثر — أقرئها عند ما تكونى مريحة راضية معتدلة المزاج ، وفى فلك مثلاً قطعة من الحلوى .

وينبغى أن أعترف طبعاً أن هناك كتاباً أفضل من راتازيف : ولعلمهم أفضل منه بكثير ، كتاباً لا بأس بهم ، ولكن راتازيف كاتب لا بأس

به أيضاً . إن كتاباتهم جيدة ولكن كتاباته ليست رديئة كذلك ، وهو يكتب بطريقة الخاصة ، يكتب ما يريد وما يرضيه .

وداعاً يا حبيبتي — فلا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا فأنا مشغول اليوم . ولكن تذكرى يا طائر الصغير ألا تضايقي نفسك مرة أخرى بأفكار كثيرة ، وليكن الله معك وسأظل أنا . .

صديقك المخلص

ماكس

ملاحظة : أشرك كثيراً على الكتاب الذى أرسلته يا عزيزتى — سأقرأ مؤلفات بوشكين أنا أيضاً سأتى لزيارتك حينما يقبل المساء . .



١ من يولية

صديق العزيز ما كار أليكسييفتش

.. الحق أننى أعتقد أنه لا حياة لى هنا بينكم . ١ وقد وجدت بعد روية أنه من الخطأ أن أرفض مثل هذا العرض السخى الذى أتيج لى ، فعلى الأقل سأنكسب قوت يومى ، وسأبذل جهدى حتى أصبح جديرة بعطف أسرة غريبة ، بل لئننى سأحاول أن أغير من شخصيتى لو اقتضى الأمر . وطبيعى أنه من العسير طبعها على نفسى أن أعيش وسط غرباء ، وأن أحاول لإرضاءهم وألا تكون لى حياتى الخاصة ، ولكن ربما أعاننى الله على ذلك .

ولست أَرْضَى أن أظل مخلوقا نافرا خجولا طيلة حياتى ، ولقد حدثت لى مثل هذه الأشياء من قبل ، وما نسيت بعد أيامى فى المدرسة الداخلية ولا زلت أذكر أيام الآحاد عند ما كنت أتمادى فى شقاروقى فى المنزل ، وإذا ما عنفتنى امى لم يتألم قلبي قط ، ولكن إذا ما أقبل المساء ،

أقبل معه الأسى إذ أذكر أن على أن أذهب إلى المدرسة في التاسعة — المدرسة حيث كل شيء غريب بارد صارم ، والمدرسات عابسات الوجوه أيام الاثنين ثم يغلبني البكاء ، فأنتحي ركنا أبكى فيه خلصة لثلاثين عامًا عني إلى فتاة كسول ، وما كانت الدروس هي التي تثير بكائي . . . ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ مع الزمن ألفت المدرسة أيضا حتى بت أبكى إذا كان على أن أنرك أصدقائي وأفارقهم .

وأحسب أنه ليس من العدل كذلك أن أكون عبثاً عليك وعلى فيدورا ، إن الفسكير في هذا يعذبني . وأنا أكتب إليك بصراحة ، لأنني تعودت على هذه الصراحة معك ألا أرى كيف تستيقظ فيدورا مع ظلام الفجر كي تبدأ غسيلها طيلة النهار على حين تحتاج عظامها العجوز الراحة كما علم ؟ ألا أرى أنك تنفق مائتة على ، حتى آخر كوبك معك مع ضالة مرتبك أيها الصديق ؟

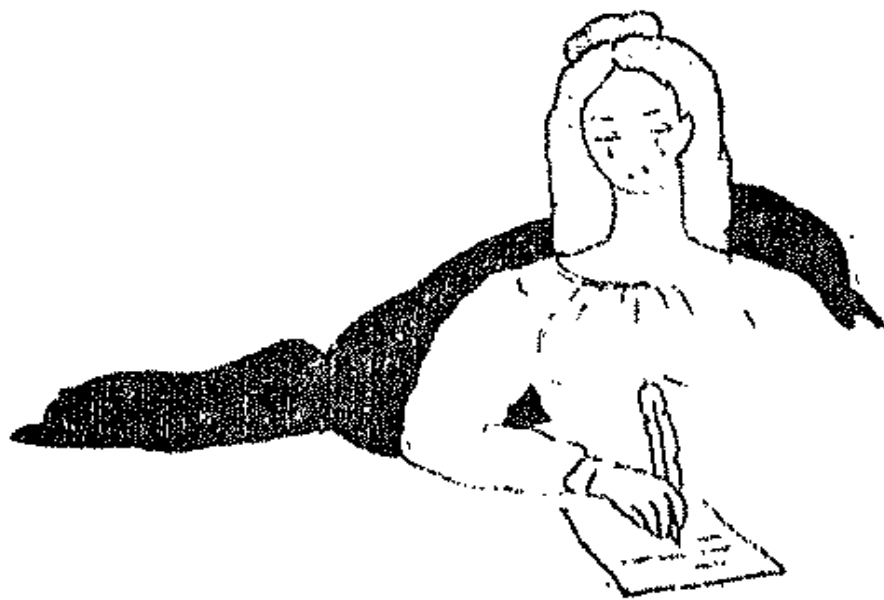
لقد كتبت إلى تقول : إنك مستعد أن تخلع معطئك وتبيعه كي تقيني شر الحاجة ، وإن لأصدقك يا عزيزي . لأنني لأصدق قلبك العطوف ، وهذا هو ما تقوله الآن إذ يذا عبك أمل هذه العسلاوة التي تنتظرها ، ولكن ماذا فيما بعد ، وأنت تعلم أنني مريضة على الدوام لا تفرغ لي حاجة إلى دراهم أو كساء ، وليست بي طاقة على العمل المستمر كما تفعل أنت ، وإن كان ذلك يسعدني ؟ وحتى لو استطعت فليس هناك عمل كاف دائما لذن ماذا بقي لي ؟ . أن أحضر هباء وأنا (م ٨ - الساكن)

أرقيكم أيها المساكين ؟ وكيف يتأتى أن أكون أقل فائدة لآي منكما ؟
لأننى أتعاق بكم من كل قلبى . وأنتم أعزاء جدا لى نفسى ، ولكن هذا
ما كتب على ، أستطيع أن أحب ، ولكنى لا أستطيع أن أحول حبي
إلى خير ، فأكافئكم على عطفكم ، فلا تسبقونى أكثر من هذا — أفلا
تفكر فى هذا كله وتخبرنى برأيك النهائى .

وفى انتظار ردك سأظل .

المحاسة

ف . د



١ من يولية

أى أو هام وأى خرافات يافار تكا هذه التى تكتبين ! أنت لا تكادين
تفردين بنفسك - من تقبل طر أنوار اخراجات إلى رأسك الصغير ، فإذا
بك لا تحبين هذا ولا تحبين ذاك : ويبدو لك كل شيء مقابوا رأسا على
عقب ويسدى أسود فأقول لك : إن هذه كلها أو هام وخيالات . هلا
أخبرتني ماذا تحتاجين بالذات ؟ ما ينقصك بالضبط ؟ إن
كلينا متعلق بالآخر . ونلينا فافع وسعيد ، ماذا يمكن أن نشد أكثر
من هذا ؟ وماذا يمكن أن نجد بين الغرياء . أنت تجهلين الغرياء
يا عزيزتى ! وإن أخرى بك أن تسألين كيف يكونون . لأنى أعرف من
هم أعرف هذا جيدا ، فلقد ذقت خبرهم . لهم أشرار يافار تكا وخبرهم
أكثر مما نحتاجه . ولديناك ، وسيعفصون حياتك بمسارات النأييب
وبالنظرات الحبيشة على حين أنك تعيشين معنا هنا فى دفء وحنان ناعمة

البال كطائر صغير في عشه ، فإذا طرت بعيدا فماذا ستفعل نحن المساكين .
وقد سلبنا قلوبنا ؟ — ماذا أستطيع أنا العجوز أن أفعل وأنت تقولين .
لأنه لا نفع فيك لنا ؟ فكيف يمكن أن يكون هذا ؟ . لست عديمة النفع
على الإطلاق . . فكرى جيدا ترى هذا فأول شيء أن لك تأثيرا خيرا
علينا . . خذى مثلالذلك أننى أفكر فيك الآن وهذا يسعدنى جدا . وأحيانا
أضع كل مشاعرى فى الخطابات التى أكتبها إليك ثم أنتظر ردا مفصلا
أستطيع أيضا أن أشتري لك أشياء لطيفة تريديها ، بل لقد اشتريت لك
قبعة . . أو هل هناك أشياء تريدين منى أن أفعلها ؟ وماذا يجب أن أفعل
— أنا العجوز الوحيد ؟ . ماذا أصالح له ؟ لعلك لم تفكرى فى هذا
وكان من الواجب أن تفكرى فيه .

أنظرى إلى الموضوع من هذه الزاوية : كيف تكون حال العجوز
بدونك ؟ لقد تعودت أن تكونى قريبة منى . وإذا ماضيت أنت فليس
أمامى سوى شيء واحد أفعله أمضى إلى نهر النيفا وأضع حدا لكل شيء
وإلا فأى شيء أمامى سوى ذلك .

آه يا فارتكا . . يا حبيبتي فارتكا : يبدو كأنك تحبين أن أوضع على عربة
وأمضى وحيدا إلى مقابر نولكوفو حيث لا يكون لى من خليل سوى
شحاذ عجوز ، يرقبهم وهم يهيلون التراب على قبرى . ثم يمضون بعد أن
يتروكنى هناك نسيا منسيا . إنها لخطيئة يا عزيزتى — خطيئة كبيرة أن
يتمنى المرء مثل هذه الأشياء .

إننى أعيد إليك كتابك يا فارتكا ، وإن شئت أن تعرفى رأى يا صديقتى .
الصغيرة فأليك هو : إننى لم أقرأ فى حياتى قط كتابا أفضل منه . وإننى
أظلم أسأل نفسى يا عزيزتى : كيف استطعت أن أظلم جلفا فظا خشنا
هكذا .. ؟ ليخبر لى الله .. ماذا كنت أفعل بنفسى ؟ من أى غابات
أقبلت ؟ الحق أنى لست أعرف شيئا يا عزيزتى ، لست أعرف شيئا على
الإطلاق ، إننى رجل جاهل يا فارتكا ؛ فما قرأت إلا القليل . القليل جدا .
يكاد يكون لا شيء سوى كتب ثلاثة هى كل ما قرأت ، وقد قرأت الآن
ناظر المحطة ^(١) فى كتابك الذى أرسلته لى . وهكذا ترين يا حبيبتي فارتكا
أن الأمر قد يصل لى أن يعيش المرء فترة طويلة من عمره وهو لا يدرك
أبدا أن فى متناول يده كتابا يروى قصة حياته كاملة وببساطة كأنها أغنية .
وما كان غامضا من قبل يصبح واضحا كلما مضى الإنسان فى القراءة ، ثم
يتذكر المرء أشياء ، ويفهم أشياء .. ويدرك أشياء .

شيء آخر أحبه فى الكتاب . ذلك أن الكتب الأخرى كثيرا
ما تكون عالية المستوى حتى إننى أقرأ وأقرأ ولا أستطيع أن أفهم شيئا
فيها يتصل بحياتى أنا ، وأنا بطيء الفهم بطبعى لا تناسبنى الكتب الممتازة .
جدا ، ولكن عندما تقرأين هذا الكتاب تحسنى كأنما قد كتبتة بنفسك .

(١) إحدى قصص بوشكين فى كتابه (حكايات إيفان بلسكين)

ولو شئنا الإيضاح لقلنا كما لو كان قطعة من قلبي أنا — مهما كانت هذه القطعة — وهى أمام الجميع ليقرءوها فأى كتاب هو ؟

الحق أنه واضح وبسيط ، حتى لا يستطيع أن يكتبه أنا بنفسى ، ولم لا ؟ إننى لأحس بالأمور كما هو مكتوبة فى الكتاب بالضبط . ألم أمر بنفسى بالتجربة التى مر بها سامسون فيرين^(١) المسكين ؟ وأى عدد كبير من المساكين من أمثال فيرين يعيشون بيننا ؟ ألم يحسف هو كل شيء . يا بداع ؟ لقد كدت أبكى يا عزيزتى وأنا أقرا كيف أدمن الخمر ، وكيف كان يشربها حتى يفقد وعيه ثم يرقد نائما طيلة اليوم على جلد ما عز ، أو يجلس يمسح الدموع بطرف كم معطفه القذر وهو يفكر فى انبته الضالة المسكينة هذه هى الحياة !

أقرئ هذا الكتاب مرة أخرى يا فارتيجا ، فهو شيء حتى لقد رأيت هذا بنفسى وكل ما فيه ألمه حولى خذى مثلا فريزا أو كاتيلنا المسكين ، أليس هو سامسون فيرين آخر وإن يكن اسمه جور شكوف ؟ كلنا نعيش هكذا ، وقد يحدث هذا الشيء نفسه لأى شخص منا قد يحدث هذا حتى لهذا الكونت الذى يعيش على « النفسكى » ، وإن بدا هذا غريبا نظرا لعلو مراكزهم ، ولكن علو المركز هذا لن يغير من الأمر شيئا . نعم أى شيء قد يحدث بل لعله قد يحدث لى أنا . أتريين كيف تمنى الحياة

(١) إحدى شخصيات قصة ناظر الحياة .

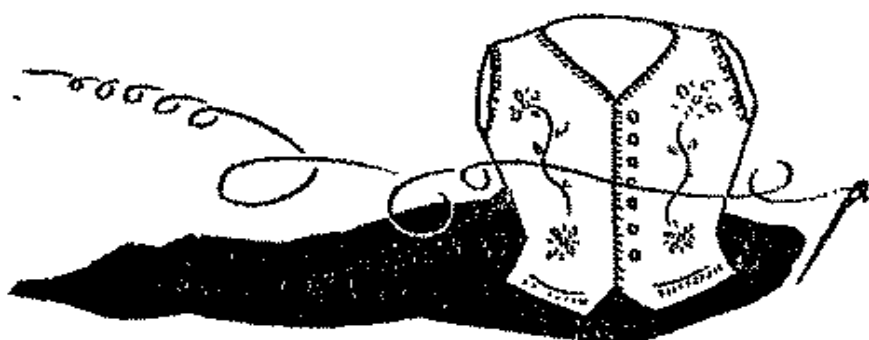
يا عزيزتى . . إذن كيف تفكرين في هجرنا ؟ . لعل رذيلة فيرين تتملكنى
أنا أيضا ثم يتعظم كل منا ، إذن أستحلفك بالله يا عزيزتى أن تطردى
هذه الأفكار الشريرة من عقلك ولا تعذبنى أكثر من هذا !

كيف يمكنك عندئذ أن توفرى لنفسك الغذاء أو أن تحمى نفسك من
أذى الأشرار يا فرخى الصغير المسكين ؟ بربك يا فارتكا لا تلقى بالا لكل
نصيحة فى غير موضعها . وستفعلين خيرا لو قرأت كتابك مرة أخرى
وبمزيد من العناية وسيفيدك هذا كثيرا .

لقد أخبرت ، راتا زيف ، عن ، ناظر المحطة ، ، وهو يصر على
أنها قصة من طراز قديم ، وأن كل الكتب الجيدة فى هذه الأيام بها
صور وإيضاحات متعددة ، ولم أستطع أن أفهمه جيدا . لقد سلم معى
بان بوشكين كاتب ممتاز ، وأنه أضاف شيئا ما إلى مجد روسيا ، وقال
شيئا كثيرا فى هذا المجال ، لكن الحق يا فارتكا أنه كتاب جيد . كتاب
جيد جدا ويجب أن تعيدى قراءته وبمزيد من العناية اعلمى بنصيحتى
وأسعدى رجلا عجوزا بما تبدين له من طاعة ، وسيجزيك الله خيرا
يا حبيبتى . إنه سيجزيك بكل تأكيد

صديقك المخلص

منكار .



٦ من يولية

عزيزى ماكار

« اليوم أحضرت لى فيدورا خمسة عشر روبلا من الفضة ، وفرحت المسكينة عندما أعطيتها ثلاثة روبلات . إننى أكتب هذا فى عجلة من أمرى : فأنا أقص نموذجاً (بترونا) لصدار لك من نسج فاخر : أصفر مزين بالزهور . أرسل إليك كتاباً آخر عبارة عن مجموعة من القصص ولقد قرأت بعضها . فاقرأ القصة التى عنوانها المعطف (١)

وأنت ترغمنى على قبول دعوتك إلى المسرح ، أليس هذا بدخاً ؛ إذا كان لابد من ذهابنا فلتشتري التذاكر فى أعلى التياترو ، وأنا لم أذهب إلى المسرح منذ فترة طويلة حتى إننى لا أستطيع أن أتذكر متى ذهبت آخر مرة . ولكنى أعود فأكرر : ألا يكلفك هذا كثيراً ، إن فيدور دأبة على مز رأسها وهى تقول ، إنك تنفق أكثر من دخلك ، وإن

(١) قصة بقلم جوجول كتبها فى عام ١٨٤٢ .

لأشاركها في الرأي فما أكثر ما أنفقت على أنا وحدي ، وأخشى أن يصيبك شيء . ما إذا ما مضيت على هذا المنوال ، ولقد نقلت فيدورا إلى ما تنامي إلى سمعها عن مشاحناتك مع صاحبة الدار حول إيجار غرفتك ، فأقلقني هذا يا ما كار اليكسيفتش .

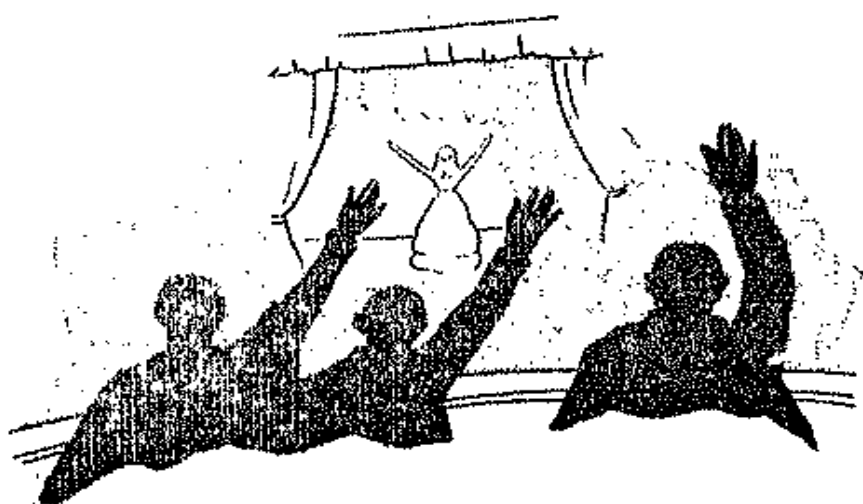
وداعاً . إنني متعجلة الآن ، فأماي أمر صغير يجب أن أعنى به :
يجب أن أغير شريط قبعتي . . .

ف . د

ملاحظة :

إذا ما ذهبنا إلى المسرح فسأضع قبعتي الجديدة وشالي التل.
الأسود .

سيكون هذا لطيفاً أليس كذلك ؟



٧ من يولية

أعز أعراني فافار ألي كسيفنا

لكي أصل ما انقطع من حديثنا بالأمس دعيني أضيف يا حبيبتى،
أننى كنت أنا أيضا ذات يوم شاباً طائشاً هائماً بممثلة ، ولم يكن هذا:
بأغرب شيء فالغريب هو أننى لم أشاهد هذه الممثلة سوى مرة واحدة ،
وعلى خشبة المسرح ، ومع هذا كنت غارقاً حتى أذنى فى هواها .

وكان جيرانى فى ذلك الوقت نصف دسنة من الشباب الطائش ،
وتوطدت صداقتى بهم على كره منى ، وإن تباعدت بلباقة عن مشاركتهم
فى مغامراتهم ، ولكنى ظللت على ودى بهم مراعاة للجيرة فحسب ، وكم
من أمور حدثتونيها عن هذه الممثلة اففى كل مساء ، وكلما كان لها حفل ،
حجرت عصبتهم بقضنها وقضبضها المقاعد فى أعلى الشرفة ، فلم يمكن كل
ما معهم يزيد على كوابك يواجهون به نفقات الحياة العادية . ثم يجلسون

هناك ، ويصفقون ويهتفون لها قبل أن تنزل الستار مرة بعد أخرى ،
وهم يصيحون كالمجانين ، فإذا عادوا إلى المنزل لم يخطر ببالهم شيء اسمه
النوم ، بل جلسوا يتحدثون عن حبيبتهم ، جلاشا ، طيلة الليل . . . كان
كلهم متيم في حبها ، كلهم كرجل واحد ، كانت العصفور الجميلة تغرد في
كل قلب .

وانتهى بهم الأمر أن شغفوني بها حبا ولم أكن سوى شاب عاجز
لا حيلة لي وقبل أن أدري وجدت نفسي في أعلى الشرفة مع الآخرين .
وحيثما جلست لم أكن أرى غير جزء من المسرح فحسب ، ولكن لم
يفت أذني شاردة أو واردة .

والحق أن العصفورة كانت حلوة الصوت : تغريد يتعالى عذبا كأنه بلبل
يغنى وكنا نصرخ حتى بحت أصواتنا ، وعنفقا حتى التهبنا أكفنا ، واجتذبتنا
أنظار الجميع حتى طرد أحدنا فعلا . وعدت إلى منزلي وأنا في شبه حلم
وفي جيبي روبل واحد هو كل ما أملك حتى أقبض مرتب الشهر القادم .
بعد عشرة أيام ! وماذا تظنينني فعلت بعد ذلك يا عزيزتي ؟ في اليوم
التالي مباشرة ، وقبل انتهاء موعد المكتب ، أنفقت بقية نقودي في
شراء عطر وصابون معطر لها من عند الحلاق الفرنسي ، أما لماذا
اشتريتها فهذا ما أعجب منه حتى اليوم ؟

وأمضيت يومي ذلك دون غذاء ، ولكنني استنفدت وقتي واقفا تحت

نافذتها ، وكانت تعيش في الشارع الثالث في « نفسكي » ، وما أن انتهت من عمل حتى هجعت ساعة في منزلي ثم عدت أحوم تحت نافذتها في نفسكي . وداومت على هذه الحال شهرا ونصف الشهر ، وقد أكرى عربة عند منعطف الطريق ، أمضى بها مسرعة تحت نافذتها وأنا في أوج أجهتي . وكان من الطبيعي أن تثقلني الديون ، ولكن عاطفتي خمدت آخر الأمر وسئمت الموضوع كله .

يا عزيزتي هذا هو المستوى الذي يمكن أن يهبط إليه الرجل الشريف إذا هام بمثلة

ولكني كنت شابة نرفا في تلك الأيام . .



٨ يولية

عزيزتى فارقارا

أسارع بإعادة الكتاب الذى تلقيته منك فى السادس من هذا الشهر،
وفى الوقت نفسه أتهز هذه الفرصة للتعبير عن رأي

ألم تكن قسوة منك يا عزيزتى أن تبعثى إلى بكتاب مثل هذا . لقد
وضع الله القدير كل رجل فى موضعه الذى يستحقه من الحياة ، فالبعض
قد قدر لهم أن يضعوا شارة الجنرال ، والبعض قدر لهم أن يخدموا
ككاتم أسرار . والبعض يأمر والآخر يطيع ويخاف ولا يملك الشكوى .
كل هذا قد نظم وفقا لقدرة كل إنسان البعض يصلح لشيء ما ، والبعض
الآخر لشيء آخر . وهذا ما قدره الله نفسه . ولقد عملت فى وظيفتى منذ
ثلاثين عاما خلعت حتى الآن وخلعت خدمتى حتى الآن أيضا من المثالب
وكان سلوكى مستقيما ولم يوبخنى أحد قط لإخلالى بالنظام يوما
أما باعتبارى مواطنا فأنى أرى نفسى - وأنا أعنى جيدا ما أقول - رجلا

له نقائصه ولكن له فضائله أيضا . (ورؤسائي) يحترموني حتى «معادته»
راض عني وأنا أعلم أنه راض عني حتى لو لم يظهر علامات تقدير
خاصة لي حتى الآن .

ولقد عشت حتى وخط الشيب رأسي دون أن اقترف خطأيا خطيرة تثقل
ضميري . أما عن العثرات الصغيرة فن ذا الذي يراها ؟ فكل شخص
يتعثر يوما في أشياء صغيرة — حتى أنت يا حبيبتي . ولكني لم أتهم قط بجريمة
أو بما يشين ، أو خرجت يوما على القانون أو كدرت صفو السلام كلاً لم
يحدث هذا قط . بل لقد أتى وقت رشحت فيه لنيل وسام ولكن لماذا
أذكر هذا كله وكان الأجدر بك أن تعرفيه منذ وقت طويل ، وكان
يجب عليه أيضا — ذلك المؤلف — أن يعرف هذا أيضا ؟ فإذا ما قرر
إنسان أن يصف كل شيء كان عليه أيضاً أن يعرف كل شيء . لأنني لم أتوقع
شيئاً ما مثل هذا منك يا عزيزتي ، منك أنت بالذات دون البشر
أجمعين .

أيعني هذا أن المرء لا يستطيع أن يعيش في سلام ، في ركنه الصغير ،
كما يحب أن يعيش ، وكما تعود أن يعيش في هدوء : يخشى الله ولا يغضب
مخلوقاً ، ومن حقه أن ينتظر أن يدعه الآخرون وشأنه ، وأن يهتموا
بشؤونهم ولا يتدخلوا في شؤنه أبداً :

أي حق لهم أن يتجسسوا على شؤون المرء الخاصة ؟ ماذا يعنيهم

إذا كان عند المرء صدقاً جيداً أولاً ، إذا كان يملك ملابس داخلية أو لا يملك ، إذا كان عنده زوج من الأحذية أو ليس عنده ، وهل هذه الأحذية قد أصححت إتقان أولاً ، لماذا يجب أن يعرفوا ماذا يأكل المرء ؟ وماذا يشرب ؟ ، أو لماذا يتسخ المرء ؟ وماذا لومشيت حافي القدمين عند الجزء المحطم من الرصيف في أحافله على نعل ؟ . لماذا يعنى المؤلف بأن يخبر قارئه ، أ. أخاه الإذن . يعاني أحياناً من ظروف قاسية حتى ليحس أن يستغنى عن الشاي ، كما لو كان من واجب كل شخص أن يشرب الشاي ؟ هل أراقب أنا كل كسرة يتناولها جيرانى ، هل أفعل أنا هذا ؟ هل يجرؤ مخلوق على القول إننى أفعل هذا ؟ إذن لماذا يفعل الآخرون ؟ . هذا ما أغنيه يا فارغارا أليكسييفنا .

إن الرجل منا لينكب على عمله متحمساً — ويحترمه حتى رئيسه (وقولى ما شئت فهذا صحيح) . ثم فجأة يعترضه كاتب ما ويجعل سخرية منه أمام الناس . وطبعى أنه قد يشتري لنفسه شيئاً جديداً من حين لآخر وصحيح أنه قد يشعر بالسعادة أحياناً حتى لا يغمض له جفن طيلة ليله ، وهذا هو مثلاً الشعور الذى مألوفى عندما انتعلت أحذية جديدة . وبأىها من لذة تشبه الخطيئة أن يرى المرء قدميه فى مثل هذا الجلد اللطيف ، . والحمد لله أن الكاتب قد وصف هذا كله كما يحدث بالضبط ، ومع هذا فالحق إننى لأدهش كيف يحب رئيسنا فيودور فيودورفتش مثل هذه الكتب وكان من الواجب أن يسخط عليها ، فهو إذا سخط عليها فانما

يدافع عن شخصيته . ولكن من الحق أنه موظف صغير ، وأنه يجب أن
 يصرخ فينا أحياناً مثل ذلك الموظف الذي يصفه الكتاب : ولكن لماذا
 يجب ألا يفعل ؟ لماذا يجب أن يكف عن صراخه في وجوهنا ولماذا يجب
 أن يكف عن أن يصلينا بغضبه ، إن السمك الصغير يجب أن يصطلي النار .
 صحيح أنه يفعل هذا إظهاراً لسلطته ، ولماذا يجب ألا يفعل ، من
 الواجب عليه أن يضع كلا منافي موضعه وأن يبت فينا خوف الله ،
 فبيني وبينك يا قارئنا نحن السمك الصغير لاقيمة لنا دون الخوف من
 الله . وكل منا لا يفكر إلا في أن يظل اسماً في كشف الماهيات لحسب ،
 شغلنا الشاغل أن يظل اسماً فيه . . لأن نعمل . ومادامت هناك مراتب
 مختلفة وكل منها يعذب الآخرين وبطريقته الخاصة فإن اللهجة المستعملة
 تختلف طبقاً لاختلاف المراتب . كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك
 — هكذا الحياة يا عزيزي . كل منا يجعل نفسه في موضع أعلى من الآخرين
 ولا بد من أن يشوى بعضنا البعض الآخر على النار ، ولولا هذا لانتهى
 العالم — ولكني أعجب بعد هذا كله من أن يوافق فيودور فيودورفتش
 على مثل هذه الوقاحة .

أي خير يخرج من كتابة مثل هذه الأشياء ؟ وما فائدتها ؟ هل سيهدي
 إلى القارئ معطفاً جديداً للعمل ، أو زوجاً من الأحذية ؟ لن يحدث
 شيء من هذا القبيل يا قارئنا . أنه سيقروها جميعاً ثم يطلب منها المزيد
 والإنسان حريص على إخفاء نقائصه ، حريص جداً حتى لينطوى على

نفسه خشية الأفاويل . . وكل كومة من التراب تصبح جبلا ، وقبل أن يدرك المرء توضع حياته العامة والخاصة جميعا عارية في كتاب ثم تصبح موضع السخرية ، ويدور حولها النقاش : وكيف يستطيع المرء أن يظهر في الشارع بعد ذلك وقد وصف كل شيء بدقة حتى يعرفه الناس من مجرد مشيته !

ولعل الأمر ما كان يسوء إلى هذا الحد لو أن المؤلف قد تمالك وعيه قرب نهاية الكتاب ، ثم لطاف الأمور قليلا بقوله ، وبعد أن وصف كيف استمزموا به وسخروا منه — إنه كان رجلا طيباً فاضلاً ، وإنه لم يكن ليستحق أبدا أن يعامله زملاؤه معاملة كهذه ، وإنه كان يطيع رؤسائه (ومن المستحسن أن يعطى بعض الأمثلة هنا) ، وإنه لم يحمل ضغينة لأحد ، وأمن بالله ثم مات (إذا ما أصر المؤلف على موته) وتناح عليه الأهل والأصدقاء .

ومع هذا فسيكون من الأفضل ألا يدع المسكين يموت بل يدعه يسترد معطفه ، ويستدعيه وسعاده ، الذي يرقيه في الدرجة ويرفع مرتبه بعد تحريات دقيقة عن مزايده ، وبذلك تقتصر الفضيلة وتجاوزي الرذيلة في شخص زملائه .

ذلك ما كنت أكتبه أنا ! إن المؤلف لم يفعل إلا أن وصف فترة نافذة ضئيلة من وجودنا اليومي النافذ لحسب . .

كيف طاوعتك نفسك أن تبعثى إلى بمثل هذا الكتاب يا حبيبتي ؛ إنه
كتاب مفسد يا فارنكا . مجرد أنه كذب لأنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا
الكاتب الحكومى لأننى أرى أنه يجب أن أرفع شكوى ضد هذا الكتاب
يا فارنكا .

خادمك المطيع
ماكار دوفشكين



٢٧ من يولية :

عزيزى ماكار :

إن الأشياء التى حدثت أخيرا ، وخطاباتك الأخيرة أيضا ، قد سببت لى قلقاً عظيماً ، وجعلتنى فى حيرة من أمرى حتى شرحت لى فيدورا كل شيء ، لماذا تستسلم لليأس وتتردى فى مثل هذه الهاوية ياماكار أليكسييفتش ؟ . إن أعذارك التى تتعلل بها لم تعد تقنعنى وكما ترى الآن كان يجب أن أقبل هذه الوظيفة الجزئية ، فما حدث أخيراً قد أثار فزعى حقاً

تقول إن حبك لى دفعك إلى كتمان أشياء . ولقد شعرت دائماً أنى مدينة لك ، وإن كنت اعتقدت دائماً أن ما تنفقه على من نقود إنما هو من مدخراتك فى البنك ، فنكيف بربك يكون شعورى عندما

أعلم أنك لم تكن ذامال قط ، وأنت كنت تسحب مرتبك مقدماً لأنك كنت ترى لحالي لحسب ، وأنت بعث معطفك عندما كنت مريضة .. ماذا سأفعل يا صديق المسكين ؟ .

كان يجب أن تكشف عن هذا كله بعد مظاهر العطف الأول التي أغدقتها على بدافع من شفقتك وشعورك بالقربي ، وكان يجب ألا تبعثر أموالك على الكاليات . لست صديقاً حقيقياً ياما كار ، فلم تك صريحاً معي ، والآن وقد علمت أن آخر كوكبك كان معك قد أنفقت في شراء الملابس والخلوى وتذاكر المسرح والكتب وضروب التسلية المختلفة فإني أدفع ثمن حماقتي غالباً (ألم أقبل أنا كل شيء دون أن أفكر فيما تحتاج إليه أنت) . وكل الأشياء التي رجوت أن تجلب بها السرور إلى قلبي قد جلبت إليه الحزن والندم الذي لا طائل وراه .

لقد لاحظت انقباضك أخيراً ، وأقلقني هذا ، ولكن ما حدث مثلاً قد تجاوز أسوأ مخاوفي . يا إلهي ! كيف استطعت أن يفلت منك زمام نفسك إلى هذا الحد ياما كار أليكسيقتش ؟ ماذا سيقوله الناس ؟ .

إنني لا أستطيع أن أنكر أنك أنت — أنت الذي يحترمه الجميع لتواضعه واتزانه وطيبته ، قد ارتكبت أسوأ الرذائل — رذيلة لم يكن لك إليها ميل من قبل . وكيف ينبغي أن أشعر عندما أخبرتني فيدورا أنهم عثروا عليك ثملاً في الشوارع فأحضرتك الشرطة إلى المنزل .

ما كدت أصدق أذن بالرغم من أننى توقعت شيئاً ما يخرج على المألوف
مادمت لم تحضر لزيارتى طيلة أيام أربعة . هل فكرت يا ما كارفيا سيقول
رؤساؤك لو علموا السبب الحقيقى لغيابك ! لقد كتبت إلى تقول : إن
الجميع يسخرون منك ، ولأنهم قد علموا بصدافتنا وإن جيرانك يذكرون
اسمى هازئين . استخلفك بالله يا ما كار أليكسيفتش ألا تلقى إليهم بالاً
واعتن بإصلاح شأنك .

وتلك الحادثة التى حدثت منك مع الضباط تعلقنى أيضاً ، ولقد
وصلتنى بعض الشائعات عنها ، فأرجو أن تخبرنى بها .

ولقد كتبت أنك كنت تخشى أن تذكر لى الحقيقة كلها فتفقد صداقتى ،
وأنت كنت يائساً إذ كنت لا تعرف كيف تستمر فى مساعدتى والإنفاق
على علاجى حتى أظل خارج المستشفى ، وأنت قد اقترضت الكثير من
النقود على قدر ما استطعت ، واضطرتت إلى مشاجرات حادة . مع
صاحبة الدار ، ولكنك لم تكن لتفعل شيئاً أسوأ من تكتمك عنى
هذا كله ومهما يكن من أمر فإننى أعرف كل شيء الآن .

إن سر ترددك هو أنك حريص على ألا تشعرنى بأننى كنت سبب
متاعبك ، ولكنك فى الواقع قد ضاعفت حزنى بمسلكك . إن هذا
التصرف يحطم القلب يا ما كار . آه يا صديقى . . إن سوء الحظ يعدى
كالوباء ، ويجب أن يتعد بعض الفقراء والتعساء عن بعضهم الآخر

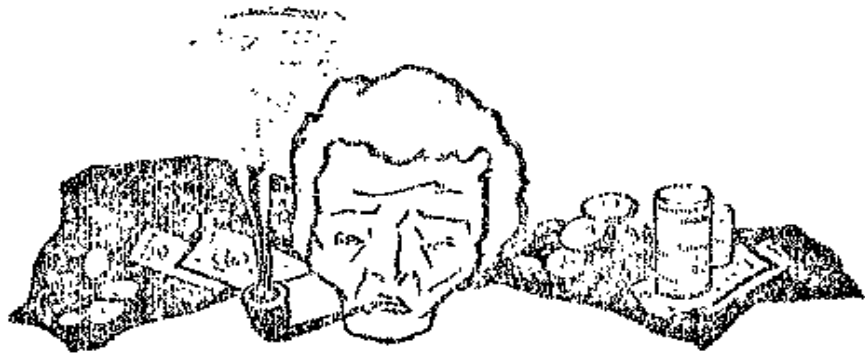
فأفقد جلبت عليك متاعب لم تكن لتعانيتها من قبل في وجودك المتواضع المنعزل لأنني لا أحتمل التفكير في هذا .

خبرني بصراحة ماذا حدث لك بالضبط ، وكيف انحدرت إلى مثل هذا الدرك ، أخبرني شيئاً يبعث الطمأنينة في قلبي أو أمكنك .

وليست الأنانية هي التي تدفعني إلى أن أطلب منك هذا ، بل هي صداقتي لك التي لن يستطيع شيء أن ينزعمها من قلبي . وداعاً يا صديق .. لأنني متلهفة لأصبر حتى يأتي ردك . لقد أخطأت يا مكار إذ ظننتني على مثل ما ظننت .

المختصة

ف . د



٢٨ من يولية .

طفلى الغالية فارفارا اليكسينفنا

.. الآن ، وقد انتهى كل شيء وعادت حياتى إلى مجراها الطبيعى ،
استطيع أن أخبرك بهذا : يقلقك ما قد يظن الناس ، ولكنى أبادر
فأؤكد لك أن شرفى أعز عندى من أى شيء آخر فى الوجود ، وعلى
هذا أخبرك هنا ، عن تكباتى وأقرر أن رؤسائى لا يعلمون عنها شيئاً ،
ولن يعلموا شيئاً ، وهكذا سيستمر احترامهم القديم لى كما كانت الحال
من قبل ، شيء واحد يقلقنى فحسب ، وهو مروجو الشائعات ، أما صاحبة
الدار فلقد استحالت صراخها إلى زجيرة بفضل روبا لاناك العشرة التى دفعتها
لأسد متآخرانى . أما بالنسبة للآخرين فهم لا يشيرون أية مشكلات
على الإطلاق ما دمت لا أحاول أن أستدين منهم المزيد .

وسأنتهى لإيضاحاتى بهذه الحقيقة أقررها يا حبيبتى : إن تقديرى لى
أهم عندى من أى شيء آخر فى الوجود ، ولأنه يعوضنى تماماً عن كل
ما نزل بى من مصائب ، وشكر الله أن نذر العاصفة الأولى قد مضت ،

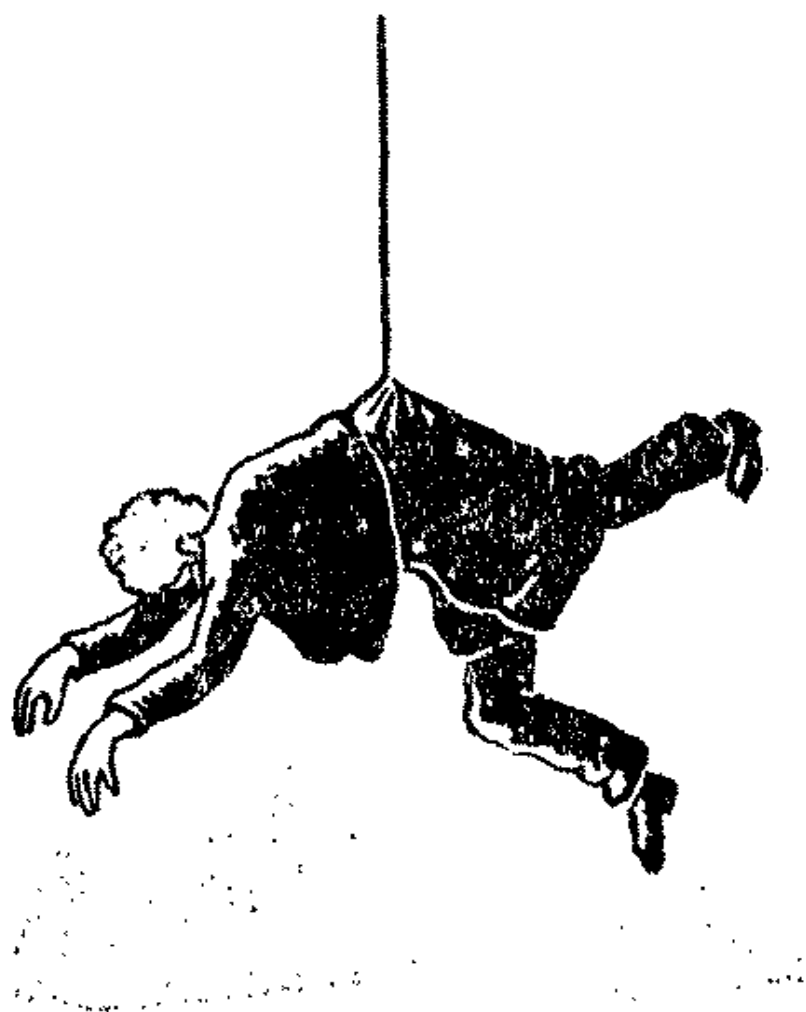
وأنت لا تعتبرنى صديقاً خادعاً وشخصاً أنايا لأننى لم أطلق أن أدعك
تذهبين بعيداً وهكذا خدعتك بالرغم عما فى قلبى من حب لك يا ملاكى
الصغير الحبيب .

وقد عدت إلى عملى بحماس مضاعف وقت بكل ما هو مطلوب منى
بكل امتياز ، ولم يقل بيغستانى إيفانوفتش كلمة واحدة ، عندما مررت به
أمس ، ومن أخفى عنك يا حبيبتى أننى مشغل بالديون ، وأن رثانة ثيابى
تخزينى ، ولكن هذا لا يهم كثيراً ، وأرجو ألا تقلقى . أما هذه القطعة
ذات الخسین كوبكا التى أرسلتها فقد مسبت شغاف قلبى . إذن لقد وصل
الأمر إلى هذا الحد ! لست أنا الأحق العجوز الذى يساعدك ، بل أنت
يا طفلى اليتيمة بلا حماية ، التى تقدمين إلى يد المعونة .

وقد كان جميلاً من فيدورا أن تحصل على هذا المال ، ففى الوقت
الحالى لا يوجد أدنى أمل فى الحصول عليه يا حبيبتى ، إذا ما تغيرت
الحال يا عزيزتى فساخبرك فوراً بيد أن أقاويل الناس - هى ما يزعجك
أكثر من أى شىء آخر .

وداعاً يا ملاكى . لا أستطيع أن أكتب فى تفصيل أكثر فعلى أن
أسرع إلى المكتب ، ويجب أن أعرض إهمالى . سأكتب إليك هذا المساء
عن الأشياء الأخرى التى حدثت وعن مشكلاتى مع الضباط .

صديقك الذى يحترمك ويحبك
ماكار .



٢٨ من يوليو

آه يا فارنكا ..

[نه أنت التي يجب أن تخرجي من نفسك الآن واست أنا . وسيظل
هذا الأمر يشغل ضميرك إلى الأبد ، فقد تركني خطاياك الأخير في أشد
حالات الاضطراب . ولكنني عندما بحثت في قلبي وجدت أنني كنت
على حق تماماً . ولست أشير طبعاً إلى مجونتي [وكفانا من هذا يا عزيزتي]

ولكننى أشير إلى حقيقة معينة ، تلك أننى مغرم بك ، وأنه ليس من الجنون قط أن أغرم بك . وأنت لا تعرفين شيئاً عن حبي يا حبيبتي . لو عرفت حقيقة لماذا لا أملك إلا أن أغرم بك ما ذكرت الأمور التي ذكرتُها . وأنا على يقين أن عقلك فقط هو الذى يتحدث ، ولكننى على يقين من أن قلبك سبقول أشياء أخرى .

وإن شئت الحق يا حبيبتي فإننى لا أذكر ماذا حدث بينى وبين هؤلاء الضباط بالضبط ولا بد أن أقول يا عزيزتى إننى كنت أعانى ظروفاً كئيبة فقد ظلت شهراً كاملاً وأنا كالمعلق فى الهواء بخيط واه ، وكان ذلك موقفاً مزرياً وتكتمت عنك وعن جيراني ، ولكن ربة دارى أثارَت ضجة كبيرة ، ولست أعبأ طبعاً ، فلتصرخ هذه الساحرة العجوز كما تشاء حتى تسكتنى . ولكن أول كل شيء أنها أثارَت فضيحة ، وأنها علمت بأمر خطاباتنا ، ويعلم الله كيف علمت ، وبدأت تقذف بالسباب والتهم حتى اضطرت أن أصم أذنى . ولسوء الحظ لم يصم الآخرون آذانهم ، بل على العكس أصاخوا سمعهم حتى لأحس بالحجل والحزى إلى الآن يا عزيزتى .

وهكذا يا فارنكا كاد هذا السيل من النكبات يقضى على ، ولكن أقسى تلك النكبات عندى كان عندما أخبرتنى فيدورا أن شخصاً منحطاً قد أتى إلى غرفتك فأهانك بما كان يضمرة لك من نوايا خبيثة . .

وإني لمقدر كم تألمت أنت ، فقد آلمني هذا كثيرا ، وعندئذ فقدت أعصابي فاندفعت يافارنسكا في ثورة عارمة أبغى مسكن ذلك الشرير المنحط ، لم أكن أدري ماذا أنا فاعل ، كل ما كان يعينني أنني لا أشعل أن يهينك مخلوق ياملاكي الصغير .

كنت حزينا ، وزاد من نجي وثوري أن الدنيا كانت تمطر والشوارع ممتلئة بالوحل حتى لازل الأقدام . . . كل شيء حزين كئيب . وكنت على وشك أن أعدل عن الذهاب ، وأعود أدراجي — ولكن عندئذ بدأ سقوطي . . . فقد تصادم أن قاربت يميليا — أعني يميليان اليتس . وقد كان ناسها معنا حتى فصل من وظيفته ، ولست أدري بالضبط ماذا يفعل الآن ، وهكذا سرنا معا . . . وعندئذ . . . ولكن أي متعة تجدونها يافارنسكا في قراءة قصة تكليات صديقات وعثراته ؟

وفي مساء اليوم الثالث ، دفعني يميليا إلى الانتقام من ذلك الضابط وعلبت عنوان مسكنه من البواب . وعلى ذكر هذا الضابط ياعزيرتي أقول إنني قد لاحظت منذ أمد طويل أن بأخلاق هذا الضابط سفاهة فقد راقبته كثيرا عندما كان يسكن في منزلنا . وإني لأحس الآن بقلة فطنتي ، فالحق أصرح به إنني كنت نخورا عندما اقتحمت غرفته ، ولست أتذكر شيئا يافارنسكا اللهم إلا أن الغرفة كانت ممتلئة بالضباط — أو لعل بصرى زاعغ فرأيتها ممتلئة بالضباط : لست أدري ويعلم الله

ولست أستطيع أن أذكر ماذا قلت بالضبط ، ولكنني أعرف .
أنتى قلت شيئاً كثيراً دفعنى إليه حتى ، فطردونى خارج الغرفة ، بل
لقد ألغوا بى على الدرج ، أعنى أنهم لم يرمونى رمياً على الدرج . ولكنهم
طردونى خارج المنزل ، ولقد بلغك كيف عدت إلى منزلى ، وهذا هو
كل ما حدث .

وطببعى أن كرامتى قد أهينت ، ولكن لا يدرى أحد بهذا ،
أعنى أنه ما من غريب يدرى بها . ومادمت أنت الشخص الوحيد الذى
يعرف فكان الأمر لم يحدث قط . أليس الأمر كذلك يا فارزكا ؟
إن ما أعرفه حق المعرفة أنه فى العام الماضى أهان ، اكستى .
أوزييوفتش ، كرامة « بيوتر بتروفتش » فى المكتب ولكن حدث .
هذا سرا ، فقد استدعاه إلى حجرة البواب ، وقد رأيت كل ذلك خلال
صدع فى الباب — ثم كال له الإهانات — ولكن بطريقة مهذبة —
ودون أن يدرى أحد . أما عنى فإنى لم أذكر شيئاً عن ذلك لآى
مخلوق ، ثم استمرت علاقتهما بعد ذلك كأنما لم يحدث شيء . وكان
بيوتر بتروفتش محترماً حقاً ، ولم يتحدث لمخلوق بما حدث ، وبعد هذا
تصالحا وتبادلا التحيات .

أما أنا فلن أجادل يا عزيزى لأننى لا أجرو على ذلك ، والحق .
أنتى قد أهنت . وأسوأ ما فى الأمر أننى احتفرت نفسى . ولا بد أنه

هذا أمر قدرته السماء ، ومن يستطيع ان يهرب من يد القدر .
وهكذا تعلمين الآن قصة نكباتي وعثراتي كاملة يا فارنكا . ولا أظنها
تستحق القرامة . اما أنا فإلست بخير ، فقد فقدت كل احترامى لنفسى .
واسمعى لى فى النهاية ان اؤكد لك تقديرى وحبى وإخلاصى وأن أظل
يا عزيزتى فارفارا اليكسييفنا .

خادمك المطيع

ماكاردوفشكين



٢٩ من يوليو

صديقي العزيز ما كار أليكسييفتش

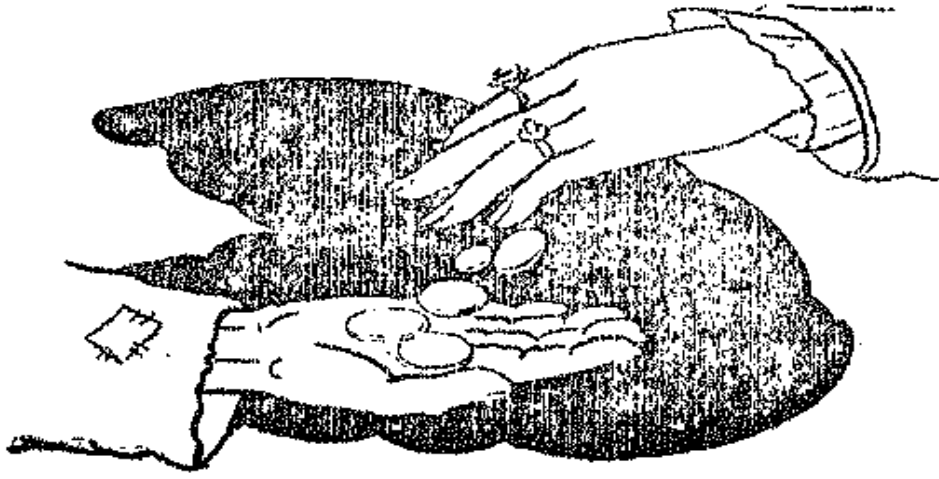
قرأت خطابيك فتملكني اضطراب شديد . يا صديقي المسكين ، إما أنك أخفيت عني جانباً من همومك .. وإما أنك ... فالحق يا ما كار أليكسييفتش أنك تعاني من مشكلة ما لم تخبرني عنها كما فهمت من خطاباتك .

أرجوك أن تأتي لزيارتنا اليوم ولا تتأخر ، وأفضل من هذا أن تأتي وتتناول غداءك معنا . وأنت لم تخبرني حتى كيف تدبر حياتك يوماً بعد يوم ، وكيف تمضي بك الأمور مع ربة الدار ، فإنه لابد لي أنك تعتمد أن تبتكم عن هذه الأمور .

وداعاً يا صديقي . وابذل جهدك كي تحضر إلينا ، ولعله من الأفضل أن نتناول غداءك معنا دائماً ، ففيدورا طاهية ممتازة ووداعاً .

المخلصة

فارفارا دوبروسيلولوفا



الأول من أغسطس

فارفارا يا حياتي

أراك سعيدة يا أعز مخلوق لدى لأن الله قد أتاح لي فرصة لرد الجليل وأنا على يقين من ذلك لأنني واثق من طيبة قلبك . ولكنني أرجوك الإلتوبخينيني لأنني تنسكرت لشينخوختي [ولا أقصد من هذا إهانتك طبعاً] . فإذا أصررت ، اعترفت بأنهما كانت خطيئة ، ولكن أشد ما يؤلمني أن أسمع هذا منك أنت بالذات يا صديقتي الصغيرة ، ولا بغضبك مني أن أقول مثل هذه الأشياء فإن قلبي تملؤه الحسرة . والفقراء يافتاني في ريبة دائماً . . وأظنهم ولدوا هكذا ، فلطالما شعرت بهذا من قبل .

إن الفقير رجل مستريب دائماً ، إنه دائماً في حذر من كل شيء . دائماً يتساءل ماذا يقول الناس عنه ؟ لربما يقولون : دأى حطام مسكين!

ترى فيم يفكر الآن ، وعلى أية صورة تعسة يبدو من هذا الجانب أو ذاك ؟ وكما يعلم الجميع يا فارتسكا لا يستحق الرجل الفقير شروى فقير ولا يمكن أن يحترمه أحد ، ومهما قال الكتاب فسيظل كل شيء على ما هو عليه ، ولماذا ؟ .. لأنهم يتوقعون أن يمضي الرجل الفقير وقد أظهر للناس كل ما بطن من أمره .. لأنهم يريدون ألا يكون له ما يخفيه أو ما يقده.

أما عن الاعتزاز بالنفس — فهذا ما لم يخلق له قط : بالأمس فقط أخبرني يميليا أنه كان يعمل عملاً إضافياً . ولكنه كان يخضع لتفتيش رسمي عن كل عشرة كوربات بتقاضاها .

لقد ظنوا أنهم يتصدقون بأموالهم ، ولكن الواقع أنهم كانوا يدفعون ثمناً لقمعهم بمنظر رجل فقير ، والإحسان يوزع توزيعاً غريباً في هذه الأيام ، بل من يدري ؟ لعله كان كذلك دائماً . فهم إما أنهم لا يعرفون كيف يتصدقون أو أنهم يعرفون هذا جيداً . على كل فهكذا هي الحال يا عزيزتي وربما لا تعرف إلا القليل عن الأشياء الأخرى ، ولكننا نعرف الكثير عن الإحسان . ولماذا ! بحكم التجربة : فإني واثق من أنني سأرى سيداً يمضي في طريقه إلى قهسوته ، وهو يقول لنفسه : إنني لأنساءل ماذا سيتناول هذا الكاتب الرث من غذاء اليوم ؟ سأتناول أنا لحماً مشوياً ، وأغلب الظن أن هذا البائس سيتناول عصيدة دون زبد ! .

ماذا يعنيه من غذائي ؟ هناك سادة فعلا يفكرون بهذه الطريقة
ياقارنكا إنهم كتاب متسكعون يراقبون المرء دائماً ليعرفوا : هل يمشي
وجلا أو لا : أو هل هذا الكاتب الفقير في هذه المصلحة أو تلك يمشي
في حذاء ممزق تطل منه أصابعه ؟ أو يطل مرفقه من سترته ؟ ثم يمضي
بعدها إلى منزله ليسجل هذا كله ، ثم يلقى بتفاهاته إلى المطبعة .

يا سيدي العزيز ماذا يعنيك إذا ما أطل مرفق من سترتي الممزقة
أو لم يطل ! لتغفري لي فظاظتي ياقارنكا ، ولكن الحق أن الرجل الفقير
يشعر بالخجل كما تشعر به الخادومات . وأنت لا تتجردين من ثيابك أمام
الغرباء — ولتغفري لي وقاحتي — وهكذا لا يجب الرجل الفقير أن
يتجسس أي شخص على عوراته ، أو على شئونه العائلية . وهذه هي
المشكلة بالضبط . هذا هو بالضبط ما جعلني أنألم غاية الألم لأن أعدائي
لطنخوا سمعتي وأهدروا احترامى لنفسي .

وفي المكتب أيضاً سلكت كما يسلك أي عصفور حقير أجرب... إنني
أوشك أن احترق خجلاً إذ أفكر في هذا . كيف أمنع نفسي من الخجل حينما
أرى أن مرفقي يطل من أكام سترتي وأن أزرار سترتي كانت تتراقص بخيوطها
مثل الأجراس ؟ ويشاء حظي العاثر أن يكون هذا اليوم أسوأ من أي يوم
آخر وهذا وحده يكفي لتثبيط همه أي إنسان . بل إن ستيفان كارلوفتش
نفسه لاحظ هذا أيضاً . فبينما كنا نتحدث في أمور تتعلق بالعمل فاجأني
بقوله :

(م ١٠ - الساكن)

— عزيزى المسكين ما كار اليك سيفتش . . .

ولم يكمل .

ولكننى تكلمت بما يريد أن يقول ، وغمرنى الخجل حتى كادت صلعتى تشتعل . طبعى أن الأمر تافه ، ولكنه مع هذا مؤلم أيضاً . أياكون قد تناهى إلى سمعهم شيء ؟ حاشا لله أن يحدث هذا . وأصرح لك يا عزيزتى أننى أشك فى رجل معين بالذات . والكتاب لا يعنىهم شيء فهو لاء الأشرار على استعداد لأن يبيعوا حياتك الشخصية مقابل كوبك واحد . فلا شيء مقدس لديهم .

إنى لعلى يقين من الشخص الذى يكمن وراء هذا كله . إنه « راتازيف » ، ولا أحد غيره . فهو على علاقة بشخص ما فى وزارتنا ، ولعله قد روى له كل شيء بعد أن يضيف إليه ما يشاء من اختلافات منمقة . أو لعله قد تحدث فى وزارته هو ، ثم تسرب حديثه حتى وصل إلى وزرائنا . وجيرانى جميعهم يعرفون كل شيء . بل إننى رأيتهم يشيرون ذات مرة إلى نافذتك ، وعندما كنت أتناول غذائى معك أطلوا برءوسهم جميعاً من النوافذ ، وقالت ربة الدار أن الشيطان العجوز قد أغرى فتاة صغيرة ، ونعتك نعتاً بذيئاً . ولكن ما أهمية هذا كله إلى جانب ما ينتويه « راتازيف » الشرير من أن يكتب هذا كله فى كتاب ويصفنا فى سخرية لاذعة . ؟ لقد قال لى ما معناه هذا ، وحذرني كثيرون من الاختيار .

لقد أعيتنى الحيلة يا حبيبتي فإذا يجب أن أفعل . يبدو لي يا ملاكي أن الله
يغني عقابنا .

لقد وعدتني أن ترسل لي كتابا أقتل به وقتي ، ولكن لا تهتم بالكتاب .
وما قيمة الكتاب آخر الأمر ؟ مجرد مجموعة من الحماقات . وما قيمة
العقبة ؟ تفاهات كتبت ليتسلى بها المتسكعون ! أأستأعرف هذا بحكم
خبرتي الطويلة وهم إذا ما تحدثوا عن شكسبير قالوا :

— أما في الأدب فاقرئي شكسبير . .

ولكن كوني راضية يا فتاتي أنه لغو وتفاهة مثل الأدب كله . . وكله
حماقات وافتراء . . ولا يصلح إلا للمجاهة لحسب .

المخلص

ماكار دوفشكين



٢ من أغسطس :

عزيزى ماكار أليكسيفتش

بربك لا يخلقك شيء ، فبعون الله ستتحسن الأمور . وقد وفقت
«فيدورا» إلى عمل كثير لى ولها ، وبدأنا فيه بحاس علنا نصلح أمورنا .
«فيدورا» تشك أن يكون لمشكلاتى الأخيرة صلة ما بأننا فيدورفنا ،
ولكن ماذا يهمنى من هذا ؟ لئننى اليوم مبهجة على غير ما تعودت .
ولقد علمت أنك تنوى الاقتراض مرة أخرى . بربك لا تفعل فستواجه
مشكلات لا تنتهى إذا حان موعد السداد . بربك لا تلق بالآلى إلى ربة
الدار واذكر أنك اقرب أصدقائنا وتعال لزيارتنا على قدر ما تستطيع .
أما عن بقية الأعداء والحساد فأنا واثقة من أن مخاوفك وهمية يا ماكار .
لقد أخبرتك أن طريقتك فى الكتابة غير منتظمة ولا زالت كذلك .
وداعا حتى نلتقى ، وإنى لنى انتظار زيارة منك قريباً .

المخالصة

ف. د.



٣ من أغسطس

ملاكي الصغير

أبادر فأزف إليك يا حياتي بأن الغمة إلى زوال ، ولكن .. كيف
تطلبين مني ألا أقترص ، . إن هذا لمستحيل يا ملاكي الصغير . أنا الآن
مفاس ، ماذا إذن لو حدث لك شيء ، لا قدر الله ، إنك رقيقة
الصحة جدا يا فتاتي . ولهذا كان لا مفر من الاقتراض .

وأواصل الحديث فأقول :

دعيني أخبرك أولا يا قارقارا أنني أجاور في مكنتي زميلا يدعى
إميليان إيفانوفتش . وليس هذا هو إميليان الذي سبق أن حدثتك عنه
فإميليان هذا موظف صغير ، ولعل كلينا أقدم موظفي الديوان .
وهو رجل طيب القلب ، محب للآخرين ، لا يفتح فاه أبداً حتى ليبدو
تكذيباً بري . ومع هذا فهو رجل كفء في عمله ، وخطه جميل حقاً ،

وقصارى القول إنه رجل جدير بالاحترام . والحق أن الصداقة لم تتوطد بيننا قط ، ولم يكن الأمر يعدو مجرد تبادل التحية ، فطبيعى أن أسأله كلما احتجت إلى مبرة أشذب بها قلبي :

— هل تتكرم بإقراضى مبرائك يا إميليان إيفانوفتش ؟

ولم يزد الأمر عن هذا قط . ولكنه اليوم باغتنى بقوله .

— بربك لا تجهد نفسك فى الفكر ياما كار . .

وشعرت أن الرجل يضم لى خيرا ، فأخبرته بكل شيء ، لا .. ليس كل شيء ، إذ لم تواتنى الشجاعة أن أخبره بجميع أحوالى ، وإنما اقتصرت على أن أفضى إليه بأحوالى قد تأزمت .. وأناى قد مررت بظروف قاسية ، وقال لى إميليان :

— « إذن لماذا لا اقترض بعض المال من بيوتر بتروفتش ، أيها الصديق العزيز ؟ إنه يقرض المال بالربا ، ولطالما اقترضت منه أنا نفسى بفائدة معقولة لا إجحاف فيها .

والحق يا فارتكا إن قلبي كاد يقفز من صدرى إذ سمعت هذا ، وقلت لنفسى : لعل الله يوحى لى بيوتر بتروفتش ، فيقنعه بإقراضى هذه النقود ، فلقد كنت أحسب حساب ربة الدار ، وكيف أدفع لها الإيجار وأقدم لك شيئا من المعونة ، ثم أشتري أنا ما أحتاج ،

وأنت تعلمين المنظر الذرى الذى أبدو فيه حتى لا كاد أموت من البرد .
وأنا فى مثل هذه الشيايب بالإضافة إلى السخرية التى يعذبنى بها رفقاء .
السوء — فليغفر الله لهم .

وأحيانا أيضا يمر سعادته ليتفقد المسكاتب . فكيف يكون الحال .
لأنه لاحظ رثائه ملبسى ، وليرحنى الله إذا حدث ذلك .

وسعادته يعنيه كثيرا مظهر الموظفين . طبيعى أنه قد يمر ثم لا يقول
شيئا ، ولكنى سأموت من العار ، لهذا كله وضعت عارى فى جيوبى .
الممزقة ، ومضيت إلى بيوتر بتروفتش وأنا أشبه ما يكون بالموتى وإن
كان قلبى يراوده بصيص من الأمل ، وتخيلى يا فارنكا أن ينتهى هذا
كله إلى لا شيء ، لا شيء على الإطلاق . كان بيوتر بتروفتش منهما
فى الحديث مع فيدوى إيفانوفتش عند ما تسالت إلى جانبه ، وجذبت
كم سترته كما لو كنت أقول :

— بيوتر بتروفتش — إننى هنا .

وعند ما التفت إلى شرحت له أن كل أحتاج لا يعدو ثلاثين .
روبلًا . ويبدو أنه لم يفهم مرادى أول الأمر ، وعند ما شرحت
له ما أريد ضحك ملء شديقه ، وكان هذا كل رده . وبدأت أشرح
له مقصدى مرة أخرى حتى قال :

— أى ضمان لديك . . ؟

ثم انهمك فى أوراقه ، وبدا كأنما قد نسى كل شيء عنى ، وأثارنى هذا قليلا فأجبت .

— كلا يا بيوتر بتروفتش — ليس عندى ضمان ، ولكنى سأعيد إليك نقودك بمجرد حصولى على مرتبى ، سأردها إليك بالتأكيـد —
تق أننى سأردها لك .

وفى هذه اللحظة دعاه داع ، فوقفت أنتظر ، ولكنه عند ما عاد بدأ يشذب ريشته ، وكأنه لا يحس لى وجودا . ، وبدأت محاولتى مرة أخرى .

— بيوتر بتروفتش . ألا يمكن أن تدبر الأمر بطريقة ما ؟ ولكنه لم يبد عليه أنه سمعنى . وطال وقوفى حتى قررت أخيرا أن أقوم بمحاولة أخيرة ، فشدت كم سترته مرة أخرى . وهل تظنين أنه نطق ولو بكلمة واحدة ؟ . . كلا . . لا شيء من هذا القليل ، انتهى من تشذيب ريشته ثم انصرف إلى الكتابة ، وهكذا انصرفت انا .

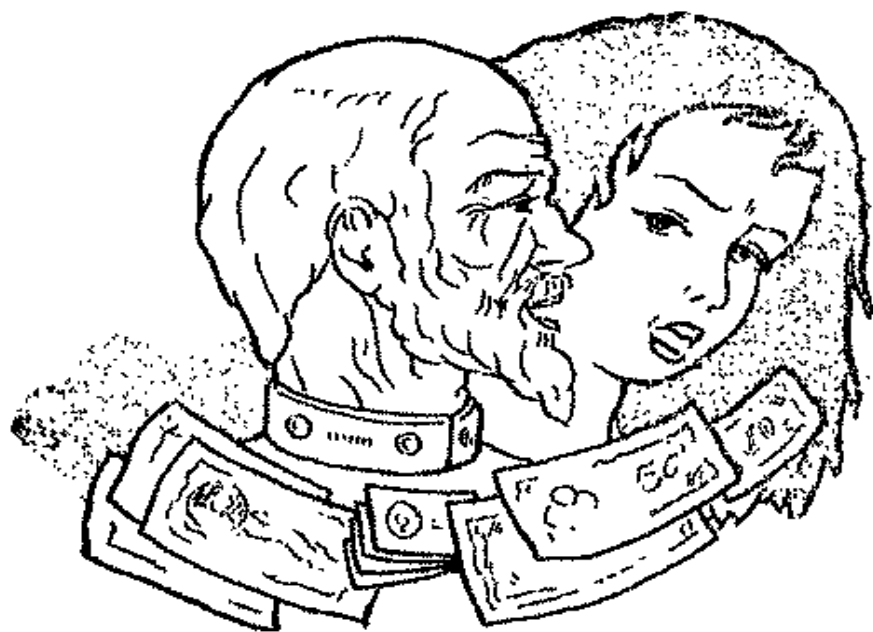
لعلم جميعا محترمون — هؤلاء القوم — ولكنهم متكبرون . نعم بهم كبرياء شديدة وفى منزل عنا يا فارقا . ولكن لماذا أكتب إليك هذا كله ؟ لقد حدث أن إيليان إيفانوفتش ضحك كما فعل بيوتر بتروفتش وهز رأسه أسفا عند ما علم ، ولكن الرجل الطيب

مع هذا شجعني ووعد أن يوصي بي صديقا موظفا صغيرا يسكن شارع
فيبروجسكايا ويقرض المال بالربا . وإميليان ليفانوفتش يؤكد أنه واثق
أنه سيقترضني وسأذهب إليه غدا فما رأيك ؟

عسى الله أن يوفقني في الحصول على النقود ، فريفة الدار ستطردني
من منزلها وتمنع عني الغداء ، ونعلی قد بليتنا وافتقرنا أيضا إلى
الآزرار . . . وأى شيء إلا أفقر إليه ؛ وماذا يحدث لو أن أحدرؤسائی
حانت منه نظرة إلى منظري المزرى .

فارتبكنا . . يبدو أن متاعبنا لانهاية لها . . لانهاية لها على الإطلاق .

ماكار . .



٤ من أغسطس

صديق العطوف ماكار

ربك اقترض المال بأسرع ما تستطيع. أرجوك أن تفعل هذا ...
وما كنت لأطلب معونتك في مثل هذه الظروف التي تعانيها ، ولكن
لو تعلم أى موقف نحن فيه الآن . . . إننا لانستطيع أن نستقر في هذا
المسكن أكثر من ذلك ، فلقد عانيت الكثير من المشكلات ، ولا
أستطيع أن أصف لك مدى اضطرابي .

ففي هذا الصباح اقتحم غرفتي رجل متقدم في السن ، بل رجل
عجوز تقريبا يرتدى الكثير من النياشين . وتملكتنى دهشة ، ولم أستطع
أن أنخيل ماذا يعني . وكانت فيدورا في الخارج لشراء حاجياتنا .

السوق . وسألني العجوز كيف أعيش ، ودون أن أرد علي أسأله صرح لي بأنه خال ذلك الشاب ، ، أنه ثار علي ابن أخته ، وعلى ساوكة معي الذي أثار حديث المنزل كله عنا ، ثم قال إن ابن أخته مجرد شاب مدلل لا يصلح لعمل ، ، أنه مستعد . أي الخال — أن يمنحني حمايته . ثم نصحني أن أتجاهل الشبان ، وأضاف أنه يعطف علي كآب ، وأن مشاعره أبوية فحسب ، ، أنه مستعد أن يمنحني معوقته .

ووقفت خجلا لأعرف ماذا أقول ، وإن كنت لم أسرع بشكره .

ثم اختطف يدي علي الرغم مني وداعب وجهي ، وهو يهاري جمالي ، ويعبر عن إنجابه بغازتي (ويعلم الله لماذا) ثم حاول أخيرا أن يقبلني ، وهو يقول إنه ليس أكثر من رجل عجوز (وأى عجوز قدر هو) .

وفي هذه اللحظة دخلت فيدي را ، فاضطرب قليلا ثم أكد لي أنه يحترم من أجل تواضعي وتعقلي ، ثم تمنى لولم أعامله كرجل غريب ، ثم انتحى بفيدورا جانبا ، وحاول أن يعطيها شيئا من المال متعللا بـمعاذير غريبة .

ومن الطبيعي أن ترفض فيدورا ، فاضطر آخر الأمر إلى الانصراف ولكنه أخذ يكرر وعوده ويعلن أنه سيأتي لزيارتي مرة أخرى ، وسيحضر لي قرطين أحلي بهما أذني . (ولكنه كان يبدو في ضيق) ،

ثم نصحنى أيضاً بأن أنتقل إلى مسكن أفضل ينتقيه هو ، وإن بكلفنى شيئاً . ثم كرر إعجابه الكبير بى لأننى فتاة عاقلة شريفة وحذرتى مرة أخرى من الشباب الفاسدين . واعترف أخيراً بأنه يعرف آنا فيدورفنا وأنها طلبت منه أن يخبرنى أنها ستأتى لزيارتى بنفسها .

وفى هذه اللحظة أدركت الحقيقة كلها ، ولا أستطيع أن أخبرك كيف كان شعورى ؛ فقد كانت هذه المرة الأولى التى أجد نفسى فيها فى مثل هذا الموقف . . . وفقدت أعصابى وصرحت له برأى فيه ، وساعدتنى فيدورا حتى طردناه ؛ إننا واثقتان أن هذا من مكاييد آنا فيدورفنا وإلا فكيف يمكن أن يعلم عنا شيئاً إلا عن طريقها .

أتوسل إليك الآن يا ماكار ألا تتخلى عنى فى موقف كهذا ، وأرجوك أن تقرض بعض النقود ، لأنه من الواجب علينا أن نرحل عن هذا المكان ، وفيدورا من رأى أيضاً . إننا فى حاجة إلى خمسة وعشرين روبلا على الأقل ، وثق أننى سأرد إليك هذا المبلغ ، سأعمل حتى أتكسبها ، وستجد فيدورا مزيداً من العمل لى .

وعلى هذا فأرجوك أن تقرض النقود مهما بلغت فوائدها ، وسأعيدها كلها . . . ولكن ساعدنى الآن . لشد ما يؤلمنى أن أضعف همومك على حين أن أحوالك نفسها سيئة ، ولكنك أملى الوحييد . وداعاً يا ماكار .
أذكركنى وليوفقك الله كي تبذل أقصى جهدك .
ف . د



٤ من أغسطس

حبيبتي الغالية فارفارا

كم هزنتني هذه الضربات المباشرة ! حتى لتئن روحي من هذه
النكبات . ولماذا تمتص قواك وحياتك يا ملاكي هذه الحفنة من
المنافقين وعجائز الأشرار ؟ وبسببهم سأنحدر إلى قبري . أقسم لك
أني سأفعل ، ولكنني أؤثر الموت على ألا أجد لك النقود التي تطلبين .
غير أنني لو فعلت فسيكون في هذا قضاء أكيد على حياتي أيضاً إذ
ستمضين عني كما يهجر الطائر عشه إذ احط عليه يوم الشوم ، ولكن كيف
تستطيعين أن تفعل هذا بي يا فارقا . . كيف ؟ إنك لتتألمين وتتعذبن
يا صغيرتي ، ولكن مع هذا تتعمدين ايذاءني فتؤكد لي بمرارة أنك
ستعيدين النقود ، ومعنى هذا أنك ستحطمين قواك النحيلة كي تفي بفوائد

الذيون في موعدها . فكري جيداً يافارنكا قبل أن تقولى مثل هذه الأشياء . لماذا تشقين منكبة على الحياة تملأ الهموم رأسك . وتفسدين عينيك الجميلتين وتحطمين صحتك ؟ آه يافارنكا ! لأننى أعلم أننى عجز لا أصلح لشيء ، ولكنى سأجبر نفسى على أن تصلىح لشيء ، وإن يعوقنى شيء ، سأحصل على عمل إضافى — سأنسخ الأوراق للكتاب ، سأذهب إليهم بنفسي وأتوسل إليهم أن يعطونى عملاً ما ولا شك أنهم فى حاجة إلى شخص يستطيع أن ينسخ جيداً . لأننى واثق أنهم فى حاجة إلى مثل هذا الشخص ، ولكنى لن أسمح لك إطلاقاً أن تعملى وترهق نفسك حتى تسقطى صريعة المرض . . . لن أسمح لك أن تنفذى نواياك المهلكة وثق أننى سأقترض المال بأية طريقة ياملاكى ! لأننى أؤثر الموت على الفشل . تقولين إنه ينبغي ألا أخشى الفوائد الباهظة لا قلقى يا عزيزتى : فإست أخشى شيئاً الآن وسأقترض أربعين روبلاً فهذا ليس بالكثير ، أليس كذلك أترينهم يثقون فى فيقرضوننى أربعين روبلاً ؟ وترى هل سيأخذون بكلمتى لحسب ؟ أترانى قادراً على أن أوحى بالثقة لأول وهلة ؟ أعنى هل أول نظرة إلى وجهى تترك أثراً طيباً ، حاول أن تستحضرى يا حبيبتى أمام ناظريك شخصيتى ووجهى ثم أخبرينى ، هل أستطيع أن أوحى بهذا كله ؟ وما رأيك فى هذا كله ؟ لأننى نأثر الأعصاب الآن فالحق أن الأمر كله مؤلم .

وإذا ما اقترضنا الأربعين روبلاً هذه فسأخصص لك منها خمسة وعشرين يافارنكا ، ثم سأعطي اثنتين لربة الدار ، والباقى أقضى به .

حاجاتي . وطبيعي أنني مدين لربة الدار بأكثر من هذا ولكن قدرى
يا فارنيكا ما أحتاج وسترين معى أنى حقاً لا أستطيع أن أعطيها أكثر من
هذا ولا داعى لأن أذكر لك ما أحتاج إليه وإن يكن روبل من الفضة
يكفى شراء زوج جديد من الأحذية فإننى لأخشى ألا يحملنى حذائى إلى
المكتب حتى غد .

وطبيعى أنني أرحب برباط للعنق فرباطى الحالى قد عمر عاماً ولكن
لاداعى للاهتمام به مادمت قد وعدت بعمل رباط عنق من ثوب قديم
عندك ، وهكذا سيكون عندى زوج جديد من الأحذية ورباط للعنق
ولكن ماذا سنعمل بخصوص الأزرار يا صديقتى الصغيرة ؟ ولعلك
توافقين معى يا فارنيكا على أنني لا أستطيع أن أستغنى عن الأزرار وقد
ضاع كل ما فى سترتى الحالية منها . وإننى أرتجف لمجرد التفكير فى
أن سعادته قد يلاحظ مثل هذه الرثاثة ثم يقول ...

أما ما سيقوله فلن أعرفه أبداً يا عزيزتى ، سأكون ميتاً قبل أن أسمع
سأسقط ميتاً فى مكانى خجلاً ، وسيتبقى بعد هذا ثلاثة روبلات لنفقات
حياتى ولشراء نصف رطل من الطباق ، فليت بمسطيع يا صغيرتى أن
اعيش دونه ، وها قد انقضت أيام تسعة لم أدخن فيها غليونى ، وقد كان
بوسعى أن أشتريه ولا أخبرك بشيء عنه ، ولكنى كنت خليفاً بأن
أخجل إذا أتيت عملاً مثل هذا ، وكفى أنك فى مثل هذه الحال من اليأس

على حين أنغمس أنا في ملاذى بيد أنى أكتب هذا كله يا فارنيكا حتى
أنخفف من عذاب ضميرى . ويجب أن أخبرك يا عزيزتى صراحة أنى
أقاسى الآن أسوأ ظروف مرت فى حياتى :

فصاحبة الدار لا تكاد تطيق رؤيتى ولا تسكن لى أى احترام وهناك
الكثير الذى أحتاج على حين تثقلنى الديون ، أما عن كتبة الوزارة
فقد كانوا دائماً لا يطاقون أما الآن فإنهم أسوأ حالا . هذا مع حرصى
على إخفاء كل شئ عن الناس جميعاً بل إننى أحاول أن أخفى نفسى ،
وأسى جهدى للتسلل خلسة فى الدخول والخروج دون أن يلحظنى أحد
وليس عندى من الشجاعة ما أتكلم به مع أحد اللهم إلا أنت .

ولكن .. ماذا لو أخفقت فى هذا القرض ؟ ولكن كلا .. من
الأفضل يا فارنيكا ألا تفكرى فى هذا ، فليذا نعذب أنفسنا بمثل هذه
الافكار ؟ إننى أقول يجب ألا تجزعى ولكن لو حدث هذا لا قدر الله
فماذا تكون حالى ؟ صحيح أنك ستظلين قريبة منى ، وإن تقدرى على
الانتقال إلى مسكن آخر ولكن كيف سأجرؤ أنا على العودة
إلى المنزل فى مثل هذه الحال ؟ سأكون ضائعاً ، محطماً .

كان من الواجب أن أخلق لحيتى بدلاً من الإطالة فى الحديث فلعل
بحلاقتها أدعى لأن أبدو فى مظهر أكثر احتراماً ، وكما تعلمين أن الثقة
لا تمنح إلا لذوى المظهر الحسن .. ولكن ليساعدنى الله سأتلو صلواتى
سم أمضى فى طريقى .

م . دفشكين



ه من أغسطس

عزيزى المحترم ماكار أليكسيفتش

لا تدع اليأس يتطرق إلى نفسك

بربك ، فإذا سيكون مصيرنا لو فعلت ..

كفانا ما نحن فيه من متاعب .

هذه ثلاثون كوبكا من الفضة أبعث بها إليك ، واعذرنى إذا لم
أستطع أن أرسل أكثر منها ، ولكن عليها تكفى لتصلح بها من أمرك
حتى غدا ، أما أنا وفيدورا فلا نكاد نملك شيئاً ، ولست أدري ماذا
نحن صانعان غداً ؟

إنه الأمر محزن يا ماكار ولكن بربك لا تحزن ، صحيح أنك فشلت

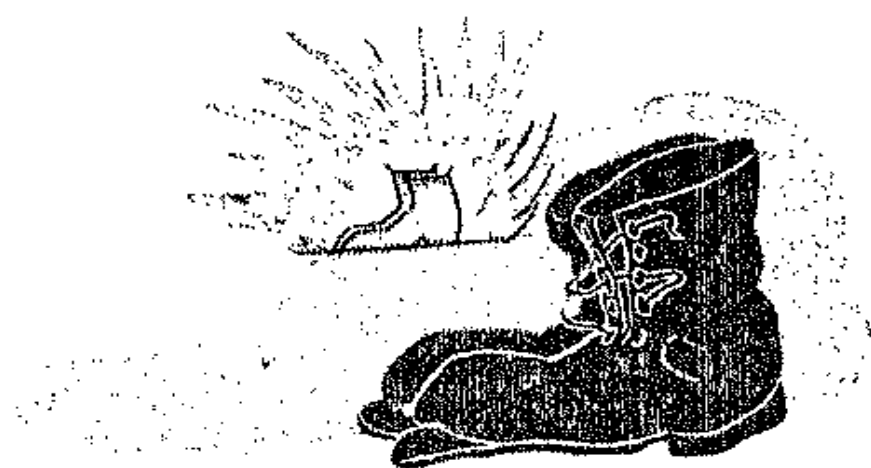
ولكنك على الأقل فعلت كل ما في وسعك . فيدور ترى أنه من الأوفق أن نستمر في إقامتنا هنا ، وأنه حتى لو انتقلنا إلى مسكن آخر ففي استطاعتهم أن يستدلوا علينا إذا شاموا . ولكني لازلت أرى أنه لا فائدة من انتقالنا وقد كنت أود أن أطيل الكتابة لولا أنني منحرفة المزاج .

يا لك من شخصية غريبة حقاً يا ما كار اليكسفتش ، إنك تكثر كثيراً لكل شيء . وسيجعلك هذا دائماً أتعس الناس . وإنني لأقرأ خطاباتك بعناية كبيرة وأستطيع أن أستشف منها أنه ليعنيك أمرى أكثر مما تعني بنفسك . والناس جميعاً ترى أنك طيب القلب ، وكنت أود أن أعتقد مثلهم . ولكن اسمح لي يا ما كار أن أقدم لك نصيحة ودية : إنني لك لشاكرة معترفة بحميتك على كل ما صنعت من أجلى وإنني لأحس بهذا إحساساً عميقاً ، تخيل إذن كيف يكون شعورى إذا أرى أنه بعد كل هذه النكبات .. التي كنت أنا السبب المباشر فيها .. تتبادى في مشاركتي في أفراحي وأتراحي وأنتك تعيش من أجل العناية بي لحسب . ولا غرو إذن إذا غدوت إنساناً بائساً مادمت تملأ قلبك بالأم الناس . وكما راعى منظرك عندما أقبلت لزيارتى بعد انتهائك من عملك اليوم . لشد ما كنت وجللاً صاحب الوجه ، كنت شبح نفسك لحسب ، ولماذا ؟ .. لأنك كنت تخشى أن تصرح لي بإخفاقك فتصدمنى ، وأى عبء انزعاج عن كاهلك عندما رأيت أننى على استعداد للضحك . ألا ، فلتكف عن القلق يا ما كار ... ولينشرح صدرك . إننى أتوسل إليك أن تتعقل فستنتهى

الأمور على خير ما يرام... ومترى ، وإلا فستكون حياتك قاسية مادمت
تحزن وتتألم من أجل الآخرين كما تفعل الآن .

إلى اللقاء يا صديق ... وأرجو مرة أخرى ألا تشغل بالك بهموى ..
أرجوك ...

ف . د



١٠ من أغسطس

فارنيكا ... يافتاني الودعة

هذا شيء جميل حقاً يا ملاكي ... جميل حقاً أن تقول لي أنك لم تأبهي
كثيراً لفشلي في اقتراض النقود هذا حسن جداً لأنه يطمئنتني حتى ليغمرنني
بالسعادة . بل بما يسعدني أكثر أنك ستظلمين في مسكنك حيث انت
الآن دون أن تهجرينني .. أنا الرجل العجوز وأصارع لك أن خطابك
قد أثلج صدري وأسعدتني هذه الطريقة التي أظهرت بها تقديرك
لمشاعري ، ولست أقول هذا بدافع من كبريائي فحسب ، بل لأنني رأيت
أنك تحبينني وتقدرين كل أحاسيس قلبي ...

ولكن فيم الحديث عن قلبي ؟ فما قلبي في نهاية الأمر غير قلبي أنا
فحسب ... ولكنك تقوين يا عزيزتي إن المرء يجب ألا يكون ضعيف
القلب هذا حق يا حياتي : يجب ألا يكون المرء ضعيف القلب ، ولكني
مع هذا يا صغيرتي هناك أشياء أخرى كثيرة يجب أن نفكر فيها ، فهناك

النعال أيضاً ، النعال التي سأنتعلها غدا إلى مكتبي . . . هذه هي المشكلة ومثل هذه المشكلات جديرة بأن تحطم المرء ، وجديرة بأن تحطمه تماما . وليس ما يعذبني هو شعوري أنا فأنا لا أعبأ بشيء ، ولا يضيرني أن أمضي في ملابس الداخلية عاري القدم في الصقيع القارس . ماذا يعني هذا كله ؟ فما أنا إلا رجل ضئيل من عامة الشعب ، ولكن ماذا سيقول الناس ، وأي السنة سوء ستنتطلق من أفواه أعدائي لو رأوني أمضي بغير معطف ؟ وما يرتدى المرء معطفا إلا خشية هذا ، بل لعله لا يلبس النعال إلا خشية هذا أيضا ، وهكذا ترين يا فاريكا أن النعال أمر جوهري إذا ما أردت أن أحفظ بشرفي أو سمعتي . . . والنعال الممزقة قد تفقد المرء هذا وذاك معاً وثق أن هذه هي الحقيقة يا حبيبتي . فلقد علمتني هذا سنوات من التجربة ، وعلى هذا فمن الخير أن تصدق رجلا عجوزاً يعرف جيداً حقيقة العالم وحقيقة البشر الذين يعيشون فيه ؟ ولا تصنع مطلقاً لتفاهات الكتاب والمؤلفين . . .

ولكنني لم أخبرك يا حبيبتي بعد بما حدث اليوم . إن ما قاسيته هذا الصباح يكني لأن يشق به شخص آخر عاما بأكمله وإليك ما حدث .

أقد ذهبت في ساعات الفجر الندية لكي أجد الرجل في منزله . وحتى لا أتأخر عن موعد عملي ، وكانت السماء تمطر والأحوال تملأ الطريق . فالتفت في معطفي ، وأسرعت في طريقي وأنا أفكر وأدعو السماء .

— يا إلهي الرحيم . . اغفر لي خطاياي واستجب دعائي هذه المرة
فحسب . وحينما مررت بكنيسة رسمت علامة الصليب ودعوت
الله من أعماقي أن يغفر لي خطاياي ، ولكنني تذكرت أن الله لا يحب
الصفقات أبداً . فمضيت في سبيلي تائها مع أفكاري لأدري شيئاً ولا
أعبأ بشيء مما يتصادفني في طريق . . وكانت الشوارع خالية ، والقلائل
الذين لقيتهم كانوا مثلي تماماً ، غارقين في القلق والهموم . . ولا عجب . .
إذ لا يمكن أن يمضي في مثل هذه الطقس إلا من كان مثلي . والتقيت
بحفنة من العمال البؤساء ، ولكن الأشرار دفعوني في طريقهم غير
عابئين . ولجأة أحسست بالحنق والاضطراب فلم أعد أعبأ بالمال . .
وقلت لنفسي : محاولة أخرى ثم أدع الأمر كله ، وما إن وصلت إلى قنطرة
، فوسكر سنسكي ، حتى انفصل نعل حذائي وبدأ يصفق ، وبات من
العسير علي أن أتابع سيرى ، ولم يقابلني في مثل هذه الحال من بين خلق
الله جميعاً سوى يرمولايف — وهو ناسخ فحسب ، مجرد كاتب صغير ،
وتسمر في مكانه حين رأيته وتبعني بنظراته كما لو كان ينتظر مني قطعة
من نقود يشرب بها نخب صحتي . . وحدثت نفسي قائلاً : يشرب نخب
صحتي . . ومن يهتم بصحتي الآن . . ولكنني لم أعبأ ومضيت في طريق .
ولم أستطع أن أمضي إذ انتابني التعب فوقفْتُ لاستريح هنيهة ، ثم
واصلت السير ونظرت حولي أبحث عن شيء أركز فيه انتباهي ، شيء
ما أشغل به خاطري أو يشجعني ، ولكن عبثاً حاولت فلم تطرأ لي ولو

فمكرة واحدة ثم اندفعت في بركة من الأوحال ، فعلتني الأقدار حتى
كدت أبكي خجلاً ، وأخيراً لمحت من بعيد منزلاً خشبياً أصفر اللون
وطابقه الثاني مثلث الشكل . وقلت لنفسي .

— هذا هو بيت « ماركوف » تماماً كما وصفه لي إيفانوفتش
(وماركوف هذا هو من يفرش الأموال بالربا) ، ولكنني كنت
عصبياً ، وعلى الرغم من معرفتي بأن هذا هو بيت ماركوف أحببت
أن أتيقن فسألت البواب لمن يكون هذا المنزل أيها الصديق ؟

وأجابني الرجل إجابة تنسم بالجفاء ، إجابة بواب حقا إذ قال :

.. هذا منزل ماركوف إذا كان يعنيك أن تعرف !

إن هؤلاء البوابين متبلدو الإحساس ! ولكن لم آبه له طبعاً وإن
ترك هذا الرد مرارة في في . إن الأمور يتوالى بعضها من بعض ،
وتعكس كل تفاهة على حالة المرء . وطففت بمنزل الرجل ثلاث مرات
وفي كل مرة كنت لأجد الشجاعة على الدخول . وقلت لنفسي :

— إنه لن يعطيني النقود .— لن يعطيني إياها أبداً . إنني غريب
عنه رث المظهر ، والموضوع حرج — ولكن دع المصادير تجري في
أعنتها . سأفعل ذلك حتى لا ألوم نفسي من بعد وعلى كل حال فإن
يأكلني الناس .

وهكذا فتحت البوابة في حذر ، ودخلت ، ولكن منذ هذه اللحظة بدأت المشكلات — لقد انبرى لى جرو صغير خبيث جعل يفتح نباحاً متواصلاً ، وتقاهة حقيرة مثل هذه قد تدفع بالإنسان إلى الجنون ، فهى توهن من عزمه وتقلب كل مشروعاته رأساً على عقب ، فقد دخلت المنزل وأنا أشبه بالموتى منى بالأحياء ، فاذا بى أواجه مشكلات أخرى : فعلى عتبة الباب تعثرت بامرأة عجوز ، ولم أكن قد تبينتها فى غبش الفجر وكانت عاكفة على أوعية لبن تملؤها فانقلبت الأوعية طبعاً فأخذت تعوى وتصرخ فى وجهى قائلة .

— ماذا تفعل هنا ؟

ثم عادت تصب على رأسى الشتائم مرة بعد أخرى .

وإنى لأروى لك هذا يا فارتكا لأن مثل هذه الأشياء تحدث لى دائماً وفى ظروف مثل هذه وهذا مصيرى . أن أقع دائماً فى مشكلات . وأقبلت على الضجة ربة الدار وهى امرأة فنلندية قبيحة المنظر ، فسألتها هل يقطن ماركوف هنا ؟ فأجابتنى هذا ليس بمنزله ، ولكنها عادت تتفحصنى ، ولعلها غيرت رأيها إذ سألتنى عن الدافع لى لى رؤيته ؛ وشرحت لها أن يميلان إيفانو فقتش قد أرسلنى وأخبرتها بكل شئ . وعندئذ نادى العجوز ابنتها ، وهى فتاة أميل إلى الطول حافية القدمين وقالت لها :

— استدعى أباك ، إنه فى الطابق الثانى مع المستأجرين .

ثم التفتت إلى وقالت .

— تفضل بالدخول .

فدخلت ، وكانت الغرفة مريحة إلى حد كبير وقد زينت بجدرانها
بصور أغلبها لقواد عسكريين ، وفى الغرفة أريكة ومنضدة مستديرة ،
وأحصص ريجان على النافذة . وقلت لنفسى : لعلنى أحسن صنعا لو خرجت
قبل أن تفوت الفرصة ، وكدت أركض خارجا ياعزيتى ، وقررت أن
أعود إذا كان الغد ، لعل الجو سيكون أفضل وصور القادة على الحائط
تبدو أقل غضبا ، ودون أن أسكب اللبن كما سكبته اليوم . وكنت على وشك
أن أتخذ طريقى إلى الباب عندما دخل هو : رجل ضئيل عجوز زائغ
البصر ، فى ثوب يعالوه الوهن قد شد حول الخصر بميل . وعندما سألتنى
عن مطلبى حدثته عن يميليان إيفانوفتش والأربعين روبلا التى أريد —
ولكنى لم أحاول أن أنهى حديثى ، فقد رأيت فى عينيه أنى قد فشلت .
وأخيرا قال :

— أنت فى حاجة ملحة إلى المال ، ولكن ليس عندى مال — وأى

ضمان يمكنك تقديمه إلى . ؟

وأوضحت له أن ليس عندى ضمان أقدمه ، وذكرت ثانية يميليان
إيفانوفتش ، وأكدت له مرة أخرى أن الأمر ملح ، فسألنى .

— وما علاقة بيليان بإفانوفتش بهذا ؟ ليس عندي مال ..

وقلت لنفسى : من الطبيعى أنك لا تملك ، وكنت أعرف هذا طيلة الوقت . آه يا فارنكا . لو أن الأرض قد انشقت فابتلعتنى ساعتها ؛ لقد تسمرت قدماى ، وتمسكتنى قشعريرة مباغته . وجعلت أنظر إلى الرجل والرجل ينظر إلى وتكاد عيناه تقولان .

— ماذا تنتظر . ؟ من الأفضل أن تمضى ..

ولو لم يكن هذا عملا جديا للملأنى الضيق .

— ولماذا تريد المال ؟

هذا هو بالضبط السؤال الذى وجهه إلى ..

وبدأت أتحدث مرة أخرى لمجرد الحديث فحسب : ولكنه لم يعد يصغى إلى وقال :

— كلا .. ليس عندي مال . إنى لأسف .

ولكنى رحت أقنعه وأتوسل إليه : فوعده أن أرد إليه ماله فى الموعد الذى يحدده ، بل قبل الموعد الذى يحدده ، وأن أدفع أية فائدة يطلبها . بل طلبت منه أن يعطينى جزءا من المبلغ الذى طلبته أول الأمر ؟ وفى هذه اللحظة كنت أفكر فيك يا حبيبتي ، وفى نصف الروبل الذى أعطيتنى ، وفى كل مشكلاتنا وضروريات حياتنا .

ولكنه قال :

— كلا — لا تذكر الفائدة : يجب أن تقدم أى شيء ضمناً لو فاتك
بالدين ، وأقسم بالله أنى آسف .

بالله ! .. ذلك اللص يعيث باسم الله ..

والحق أننى لا أذكر كيف تركت الدار ، واخترق الشارع
والكوبرى . كنت مجهداً يكاد يقتلنى البرد . ووصلت الديوان متأخراً ،
فى العاشرة صباحاً . وأحببت أن أنظف الملابس ، ولكن منعنى عن هذا
سبنخريوف الحاجب ، إذ كان يخشى أن أفسد الفرشاة ، والفرشاة من
أملاك الحكومة قبل كل شيء . وإلى هذا الحد بلغ امتنانهم لى يا عزيزتى ،
وهذا هو ما يقتلنى يا فارنكا وليست الحاجة إلى المال ولكنها هذه
البسات والنسكات والتلبيحات . وماذا لو تصادف وسمع بها منعادته .

— يا لها من أيام شريرة تلك التى أحيانا ؟ ..

لقد أعدت تلاوة خطاباك كلها اليوم يا حبيبتى ، كم هى حزينة . إلى
اللقاء يا عزيزتى . وليباركك الرب .

م . دوفشكين

ملاحظة : لقد حاولت أن أصف آلامى بشيء من الفكاهة فأسليك ،
ولكنى لم أفصح . سأزورك يا عزيزتى . سأزورك غداً بكل تأكيد .



١١ من أغسطس

فارفارا أليكسييفنا . . يا يمامتي الصغيرة

. . لقد ضعت ! بل لقد ضاع كلانا دون أمل ! لقد تحطم كل شيء ،
سمعتي . . وشرفي . لقد قضى على وقضيت أنا عليك يا عزيزتي المسكينة ،
فأنا السبب في ضياعك ؟ . إنهم يضطهدونني ويحتقرونني ويسخرون مني ،
بل لقد اجترات ربة الدار على أن تلعنني . بل إنها صاحت في وجهي فعلا
وعاملتني كما لو كنت شيئا قدرا ! وفي ندوة راتازيف قرأ أحدهم بصوت
مرتفع مسودة خطاب كتبته إليك : وكانت قد وقعت من جيبي . وكم
علقوا بنكاتهم علينا ! وقالوا كل ما يمكن أن يخطر ببال ! وكانوا
يقهقهون . . هؤلاء الخونة . فثرت واقتحمت الغرفة ، ووصمت
« راتازيف » بأنه صديق غادر خائن ، ولكنه رد على بأنني أنا الخائن
لا هو ، وأني رحت أغزو قلوب النساء ، ونعتني بالخبيث وبأنني زير
نساء . وهذا هو ما يدعوني به كل شخص الآن . زير نساء . إنه لآمر
فظيح يا حبيبتي . ولكنهم يعرفون كل شيء . كل ما يمكن معرفته عنى
وعنك . بل تخيلي أن فالدوني قد جاراهم في سخريتهم ، عندما طلبت منه
أن يذهب إلى البقال ليشتري لي شيئا رفض قائلا إنه مشغول . وقلت :

— ولكنه واجبك .

فقال : كلا ايس هذا واجبي ، لأنك لا تدفع إيجار غرفتك .

ولم أستطع أن أتحمل مثل هذه الإهانة من فلاح غبي ونعته بالخماقة .
اتعلين بما أجاب ؟ . إن الذى يقول هذا هو اللاحق ! ولم أصدق أن
الرجل فى كامل وعيه ، فصحت به :

— أنت تمل أيها الغبي .

فرد على قاتلا :

— وهل سكرت بمالك ؟ لماذا : إنك ما تشتري به لنفسك شيئا يرد
عليك وعيك بعد ليلة الأمس ؟ ألم تحاول إستجداء عشرة كوبكات
من السيدة ؟ .

ثم أضاف إلى هذا كله .

— إنك نوع لطيف من السادة !

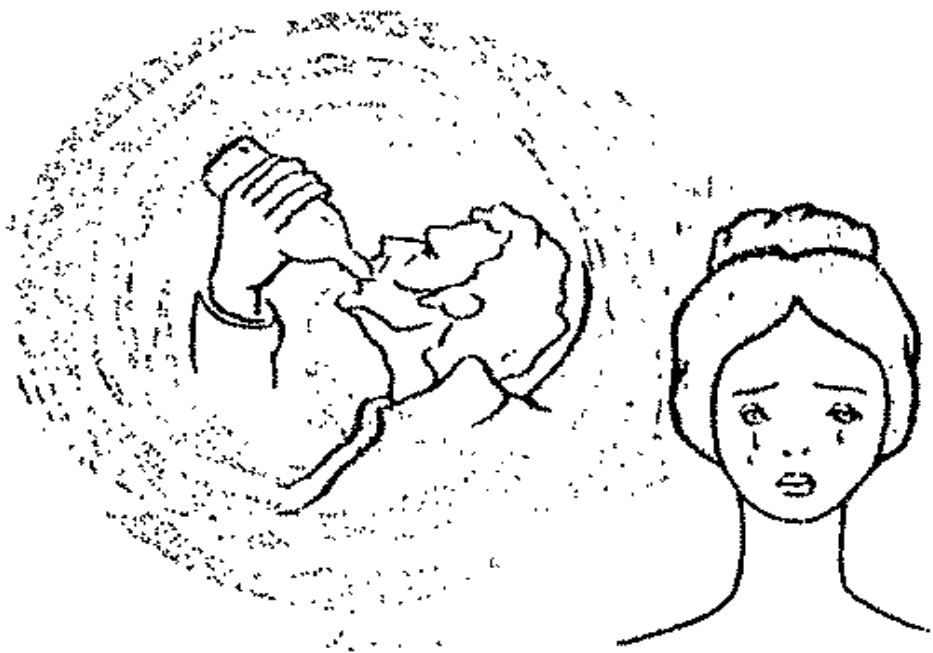
هذا هو ما صرنا إليه يا فارنكا حتى لقد بت خجلان من حياتي .
لقد عوملت كمنبوذ طريد لا يحمل جواز المرور . أى تكبات أتولي بي ؟
لقد قضى على قضاء لا أمل بعده .



١٣ من أغسطس :

لقد نسكأثرت علينا النكبات يا عزيزى ما كار حتى لا أكاد أدرى
ما العمل ؟ . وماذا سيكون مصيرك ؟ وكيف يمكننى أن أكون ذات
فائدة ما لك ؟ ولقد أحرقت يدي بالمسكواة اليوم فقد أنزلت من يدي
وأحرقتنى . وماذا سأفعل الآن ؟ إننى لا أستطيع العمل ، وفيدورا
مريضة منذ أيام ثلاثة . إننى فى هم مقيم . أرسل إليك ثلاثين كوبكا من
الفضة، وهذه هى كل ما نملك ، ويعلم الله أننى كنت أحب أن أمد لك
يد العون أكثر من هذا ، ولكن الحال بلغت حدا يستدر البكاء . إلى
اللقاء يا صديق العزيز وسيكون من دواعى عزائى لو أقبلت لربارقى اليوم-

ف . د



١٤ من أغسطس ..

يا مكار اليك سيفتش ..

.. ماذا دهاك ؟ هل فقدت خوفك من الله ؟ . إنك تدفعني إلى الجنون . يجب أن تخجل فأنت تحطم نفسك . فكّر في سمعتك .. أنت الرجل المحترم الوقور ؟ كيف استطعت أن تفعل هذا ؟ وماذا لو سمعوا به في الديوان ؟ ستموت خجلاً حينذاك . تذكر شعرك الأشيب ولا تفقد خشيتك من الله . فيدورا تقول إنها لن تساعدك بعد اليوم ، ولن أساعدك أنا أيضاً . أظن أن مسلكك لا يعني ؟ . أنت لا تعلم كم أقالى بسبك ! فما أكاد أجرو على الظهور في درج يتي على حين أنه كل شخص ينظر إلى ويقول مختلف الأقاويل : لانهم يقولون إنني قد ارتبطت « بسكير » . وعندما يحملونك ثملاً إلى المنزل أسمع الناس

يقولون : « لقد عادوا بذلك الكاتب مرة أخرى ، ويكاد العار يبيكني .
أقسم لك أنني سأرحل عن هنا فإني لأؤثر العمل تكادمة أو غسالة على
البقاء هنا .

لقد طلبت منك أن تأتي لرؤيتي ، ولكنك لم تفعل ، فما تغني دموعي
وتوسلاتي شيئاً عندك يا ماكار اليكسيفتش . ومن أين لك بالمال ؟ ..
بربك ، هلا تعتنى بنفسك ! إنك تحطم حياتك .. فلماذا ؟

ولقد بلغني أن ربة الدار لم تسمح لك بدخول الشقة ، فسكان لزاماً
عليك أن تقضى ليلتك في الدهليز .. وبالله العار .. أي مرارة شعرت بها
عندما بلغني هذا .

تعال لزيارتنا فستشعر بالسعادة بيننا ، وستقرأ معاً ، وتذكر الماضي .
وستروى لنا فيدورا عن الأماكن المقدسة التي زارتها . وأستحلفك بالله
أيها العزيز ألا تحطم نفسك وتحطمني . فأنا أعيش من أجلك أنت وحدك
وما من شيء يمنعني من الرحيل عن هنا سواء كنت رجلاً شريفاً لا يخضع
للرذائل ، وتذكر أنها ليست خطيئة أن تكون فقيراً . ولماذا يبلغ بك
اليأس هذا الحد ؟ إن الله رحيم وستنتهي كل متاعبنا ، ولكنك
يجب أن تتحملها حتى تزول .

أبعث إليك بعشرين كوبكاً لتشتري بها طباقاً لضيوفك أو أي شيء

آخر تحتاج إليه الآن ، ولكنى أناشدك الله ألا تنفقها على الخمر .
أرجوك أن تأتى لزيارتنا ، وإذا كنت تتخجل أن تأتى كما تعودت
خذعك من خجلك هذا ، تنخل عن كبريائك المزيفة ، واطلب التوبة مخلصاً
وثق في الله الذى سيدبر كل خير .

ف . د



١٩ من أغسطس

فار فارا أليكسييفنا ، يا عزيزتى الجميلة ..

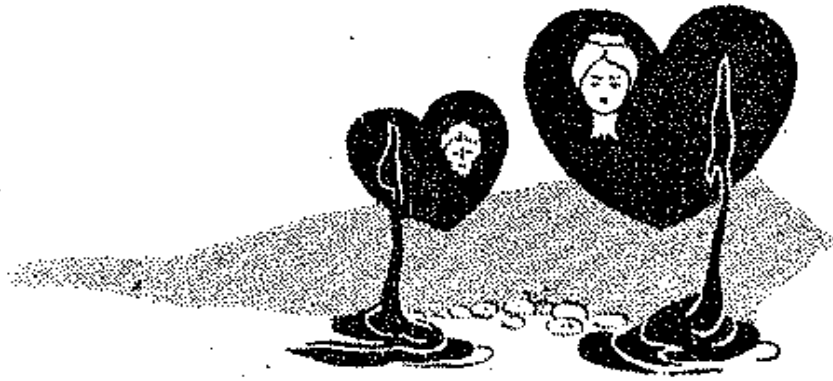
لانى خجل حقاً يا حياتى حتى لأدارى وجهى خجلاً ، ولكن أى ضرر
قد وقع فعلاً يا عزيزتى ؟ ولماذا لانسعد القلب مرة فى العمر ؟ لانى ألسى
ساعتها أن خروق حداثى تؤلمنى ؛ لانى إذا ما فكرت أجد أن الخروق
لاشئ ، مجرد تفاهة ؛ وستظل خروقا قدرة بشعة لآخر فيها .

بل الأحذية أيضاً لغو فارغ . وإذا كان حكماء اليونان قد استطاعوا
المشى دونها فلماذا نكلف أنفسنا شيئاً لا جدوى منه ؟ لماذا يسخر منى
الناس لاذن ويدأبون على إهانتى ؟ . ألم تجدى ماستكتيئنه خيراً من
هذا يا عزيزتى الصغيرة ، أخبرى فيدورا على لسانى أنها امرأة خاطبة
العقل ، امرأة قاسية متعبة وغبية أيضاً ، وحقاء إلى أقصى حد . أما عن
شعرى الأشيب فاقدر أخطأت يا عزيزتى فلست من الهرم كما تتوهمين .
يميليان يرسل تحياته . ولقد كتبت إلى تقولين إنك تحطمت بسببى وبكيت

وأقول إنني أيضاً قد تحطمت بسيفك ، وبكيت كذلك .
ونختاماً أتمنى لك صحة طيبة ومزاجاً طيباً . . . أما عنى فأنا بخير ،
وسأظل . . . ياملاكى الصغير

صديقك

ماكس



٢١ من أغسطس

صديقتي العزيزة المحبوبة فارفارا أليكسييفنا

إنني لأشعر بجرمي يا عزيزتي ، ولكن ما الفائدة ، مادمت قد شعرت
به من قبل عند ما ارتكبت ذنوبي وكما أشعر الآن ؟ ولكنني مع هذا
عدت وارتكبتها رغم شعوري الكامل بالذنب .

يا حبيبتي العزيزة : لست بالشرير المتحجر القلب ، ولكني يؤذيك
إنسان ياطفأني يجب أن يكون له قلب نمر ضار ، أما أنا فقلبي قلب جمل
وديع ، ولست بالمتوحش أبدا كما تعرفين .

هذا إلى أنني لست وحدي المعلوم يا عزيزتي ، وليس قلبي ولا عقلي
أيضا . أما من المعلوم فذلك ما لا أستطيع قوله إنه شيء غامض يا عزيزتي
لا أستطيع تبيينه .

لقد بعثت إلى ثلاثين كوبكا من الفضة ، ثم أرسلت عشرين أخرى ،
وجلسنا أنا هناك . . أرقب فضة اليتيمة المسكينة ، وقلبي يخفق ألما ،

فلقد أحرقت يديك ولا تستطيعين عملا وسرعان ما ستهلكين جوعا ،
ومع هذا ترسلين إلى نقودا تشتري بها طباقا لعليونى يا إلهى .. ما هذا
الذى فعلت ؟ أنتهب يتيمة فقيرة دون رادع من ضميرى ؟ وملكنتى
كآبة عميقة يا عزيزتى ، فشعرت بآدى الأمر أننى تافه وأن رقع أحذيتى
لخير منى . وهكذا بدالى مضحكا أن أعتبر نفسى شيئا له أهمية ، بل على
العكس لقد قررت أن أعتبر نفسى شيئا لا أهمية له ، شيئا لا جدوى منه .
وما كدت أفقد احترامى لنفسى حتى أنكرت كل فضائل واحترامى
لنفسى . وكان هذا هو بداية سقوطى .. إنه القدر كما تعلمين .

وبدأ الأمر بأن خرجت طلبا لهواء ينعشنى ، ثم تعقدت الأمور ،
فأفضى أمر إلى غيره وهكذا : وكانت الطبيعة حزينة ، والجو بارد والسماء
تمطر ، وقابلت يميليا فى طريقى .. وكان قد رهن كل شيء يافارنكا :
كل ما يملك ارتنه ولم يكن لديه كسرة من خبزه طيلة يومين ، والآن
كان يريد أن يرهن شيئا لا يملك أن يرهن أبدا ، والحق يافارنكا أننى
استسلمت بدافع من شفقتى وحزنى من أجل الرجل أكثر مما فعلت
بدافع من رغبتى .. وهذا ارتكبت الخطيئة . وبكى كثيرا وتذكرناك
إنه روح عطوف يميليا هذا .. رقيق طيب القلب .

وأنا أحس بكل هذه الآلام ، وهذا هو السبب فى أن كل هذه
الاشياء تحدث لى .. لأننى أحسن . وأنا أعلم كم أنا مدين لك يا عزيزتى ،
وعندما عرفت أنك عرفت نفسى على حقيقتها وعرفت كيف أحبك .

وقبل أن أعرفك يا ملاكي كنت وحيدا في عالمي ، وما كنت أحيا
بل أنام .

وفي تلك الأيام تعود الأشرار أن يقولوا كثيرا حتى إن هيتي كلها
خطأ ، وظلوا بي يحتقرونني حتى وصلت أخيرا إلى أن أحتقر نفسي .
تعودوا القول بأنني أحق غي حتى وصلت إلى أن أرى هذا عن نفسي .
ولكن عندما ظهرت في حياتي وكأنك رؤيا من السماء ، أدخلت النور
في وجودي المظلم ، أدخلت النور في قلبي وروحي ونعمت أخيرا
بالسلام ، إذ علمت أنني لست أسوأ من الآخرين .

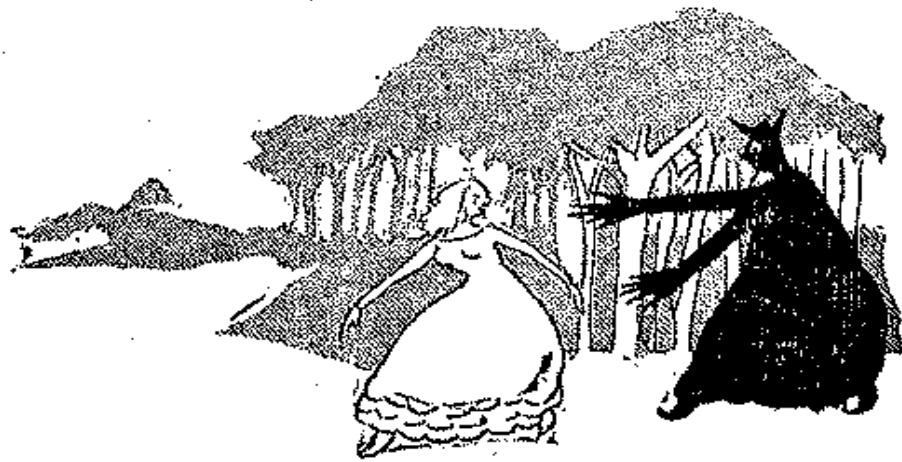
لعلني أفنقر إلى المنظر أو طريقة الحديث أو الأناقة ولكني رجل ؛
قلبا وعقلا .

فلما ناء قلبي من عبء النكبات شعرت أنني طريد شريد ولم أعد
أقدر احتراس نفسي . . وفقدت قلبي .

والآن وقد ذكرت لك كل شيء ، اتوسل إليك والدموع في عيني
ألا تذكرني هذا الموضوع مرة أخرى ، فأنا حزين مكدود محطم القلب .
لك مني خالص الاحترام يا عزيزتي وسأظل ...

صديقك إلى الأبد

ماكار دوفشكين



٣ من سبتمبر

إنتى لم أتم خطابى الأخير إليك يا ماكار الكسيفتش

إذ كان من العسير على أن أكتب ، فثمة اللحظات أحب أن أنفرد فيها
بنفسى وأن أطلق العنان لوحدتى وشجى ، وهذه الحال تعاودنى بكثرة
هذه الأيام ، إن فى الذكريات شيئاً غريباً يصعب على المرء تفسيره
شيئاً ما يحملنى بعيداً دون أن أستطيع له مقاومة حتى لأنسى كل شيء لعدة
ساعات . ولا يمر بى الآن إحساس حزين أو سار دون أن يذكرنى بشيء
يمائله وقع لى فى ماضى أيامى ، ولا سيما ما وقع لى فى طفولتى الذهبية .
يبد أن الكتابة تستبد بى بعد هذه اللحظات ، ويزداد ضعفى فأحلامى
تكاد تستنفد قواى وصحى تندهور من سىء إلى أسوأ

ولكننا نتمتع اليوم بصباح مشرق مرح بما يندر فى الخريف ، وأنا
أشعر بالصحة والسعادة ، إذن لقد أقبل الخريف ، كم كنت أحبه حينما
كنت فى الريف ، وكنت طفلة يومئذ ولكن إحساسى بالأشياء كان عميقاً ،

وكانت أمسيات الخريف أحب إلى قلبي من صباحه . وكانت ثمة بحيرة قائمة وراء التل ، على مسافة يسيرة من بيتنا . . . بل إنى لا أكاد أتخيلها الآن ، راحة لامعة كصفحة واسعة من بللور ، وإذا كان المساء هادئاً طواها السكون فلم تصدر همسة واحدة من الأشجار العالية التي تطل عليها وأصبح الهواء رطباً منعشاً . ورصعت قطرات الندى العشب الأخضر ، وبدأت الأضواء في التوافد تحت الأسقف المصنوعة من اللبن في الوقت الذي تعود فيه الماشية إلى مأواها .

في ذلك الوقت كنت أحب أن أتسلل بعيداً إلى بحيرتي ، فأنسى كل شيء من حولي . وأرقب الأشعة تعدو على صفحة الماء وقد انعكست من النيران التي أشعلها الصيادون على الشاطئ ، وأرقب السماء الباردة الزرقاء وقد مستها حمرة ذابلة حتى يطالع القمر ، والهواء الساكن يردد كل صوت كأنه جرس فضي : جناح طائر أو همسة متتومة أو سمكة تعبت في الماء ، ثم يبدو الغمام رقيقاً شفافاً فوق صفحة المياه المظلمة ، ويبدو كل شيء من بعيد غامضاً حتى يختفي : وعلى مدى البصر يلوح كل شيء واضحاً حتى لكأنه منحوت : القوارب ، وحافة الماء . والجزر الصغيرة ، أو برميل مهمل في المياه أو غصن أعفر من شجرة يعبت به التيار وقد يغطي طائر بحري . تختلف عن رفاقه إلى الأعماق الباردة ثم يطفو إلى السطح مرة أخرى . وأنا جالسة هناك ، أرقب واصغي وأشعر بمشاعر غريبة فقد كنت طفلة حينذاك .

فعم ، كنت أحب الخريف . لاسيما أواخره : حينما يتم الحصاد
وينتهي العمل كله ، ويتجمع الفلاحون في مكان ما ، يتحدثون ...
ويغنون ... وينتظرون الشتاء .. تبدو الأشياء جميعا مظلمة مكفهرة
بالسحب . وحيث ترقد أوراق الشجر الصفراء كشيقة عند أطراف الغابة
الجرداء ، ويشتد ظلام السماء ثم يضرب إلى الزرقة وخاصة قرب المساء
عندما يستقر الضباب وتغوص الأشجار ... تغوص في الأعماق كأنها
مردة أو أشباح ضخمة .

ولقد مضت أوقات تصادف فيها أن أكون خارج منزلي في ساعة
متأخرة من الليل أو أن أتخلف عن الآخرين خلال نزهة في الليل —
وبخفة أدرك أنني وحدي ، فأركض إلى المنزل وقد ملأ الرعب قلبي ،
وأنا أرتعد مثل ورقة في مهب الريح متوقعة أن يواجهني وجه مخيف
يحدق في من جوف شجرة ، وعندئذ تعربد الرياح خلال الغابة ، فتزأر
وتئن وهي تكتسح في طريقها الأوراق الباقية على الغصون العارية . ثم
تتبعها الطيور في جماعات ضخمة تثير الضوضاء ، وتحجب وجه السماء .
وبلأني رعب لا يوصف وأتخيل أني أسمع صوتاً بهمس .

— أسرع يا طفلي — أسرع بعيداً ! ستكون الحال مروعة هنا

بعد قليل . . . أسرع .

وأركض أنا إلى أن تنقطع أنفاسي ، فإذا ما وصلت إلى بيتنا آخر

الأمم وجدت كل شيء مرحاً دافئاً ، وتأخذ نحن الأطفال ، في فض
الخشخاش أو الفول على حين يفرقع الخشب المندى في المدفأة ، والدق
عانا ومريمتي العجوز يوليانا تقص علينا ماسلف من أيامها أو تحكي
لنا قصص السحرة والخفافيش الكبيرة ، ويتصلاصق بعضنا ببعض
ولكننا نبتم ونحن نصغى إليها . ثم تسودنا فترة صمت : ألم يطرق الباب
أحد ؟ كلا إنها فرولوفنا العجوز تغزل على عجلتها فتتعالى ضحكاتها ، فإذا
آويت إلى فراشي لم أستطع يوماً خوفاً من الأحلام وقد أهب من نومي
مذعورة في منتصف الليل وأنا أخشى أن أتحرك وأظل مستيقظة حتى
الفجر .

غير أنني كنت أصحو في الصباح نشيطة منتعشة كزهرة ، فأنظر من
خافذتي رأري الحقول قد وخطتها الثلوج ، وأن صقيع الحريف
يتشبث بالأفرع الجرداء ، والغدير تغطيه صفحة رقيقة من ثلج تلعب تحت
الغمام ، والطيور تعبث وتطلق صيحات مرحة ، ولكن سرعان ما تذوب
هذه القشرة الرقيقة من الجليد التي تغطي سطح البحيرة — تحت
أشعة الشمس الدافئة ، وإذا بالعالم كله زاه مشرق مغمم بالحياة والسعادة ،
والمواقف تزار مرة أخرى ، ونحن نجلس حول موقد الشاي وكلبنا
الأسود بولسكان لا يزال يرتعش من برد الليل ، وهو لا يزال ينظر
إلى النافذة ويهز ذيله مرحاً ، وعربة يقودها فلاح تمر بنا بسرعة في

طريقها إلى الغابة طلبا للخشب ، وكلنا راض مبتهج في تلك الأيام السعيدة .
إن هذه الذكريات تشير بكائي : فالماضي مشرق زاه سعيد ، والحاضر
مظلم كئيب ، وكيف سينتهي هذا كله يا إلهي العزيز ؟

أتعلم أن شعورا راودني بأني سأموت هذا الخريف : أنا واثقة
من هذا ، وأنا مريضة — مريضة جدا ، وكثيراً ما أفكر في هذا ،
ولست أريد أن أموت هنا وأن أدفن في هذه الأرض . ولعل سألزم
الفراش مرة أخرى كما فعلت في الربيع الماضي ، وأنت تعلم أنني لم أسترد
صحتي حقاً وها قد عاد المرض يبلع علي . إنني وحيدة تماماً : فقيدورا
غائبة عن الدار طيلة يومها ، وثمة أوقات تمر بي أخشى فيها الوحدة
ويملأني شعور غريب بأن معي شخصاً آخر في الغرفة ، شخصاً آخر
يحدثني ، وخاصة عندما أفيق من هواجسي . ولعل هذا ما جعلني أكتب
مثل هذا الخطاب الطويل ، فالخوف يهرب عني عندما أكتب .

إلى اللقاء ، فيجب أن أنهي خطابي فقد انتهى ما عندي من ورق ،
هذا إلى أنني مشغولة ، ولم يبق عندي من مال سوى روبل واحد من
الفضة . إنني ؛ سعيدة لأنك أعطيت صاحبة دارك روبلين من الفضة ،
لعل هذا يسكتها فترة من زمن .

حاول أن تصلح من ملابسك ، وداعاً يا صديقي ؛ فأني ضعيفة يصيني
السكرال بسرعة ، وأي مجهود ينهك قواي ، فكيف إذن سأستطيع العمل
حتى لو تيسر العمل ، إن مجرد التفكير في هذا وحده يقتل كل أمل .



٥ من سبتمبر . .

عزيزتي فارانكا .

تبدلت على هذا الصباح أحاسيس شتى . أولها صداع تملككني ، فضنيت
أتنزه على شاطئ فونتاناكا أطلب منه خلاصا ، وكان المساء رطبا مظلما
والظلام يخيم على الدنيا بعد الساعة الخامسة كما تعلين ، ولم يكن ثمة مطر ،
بيد أن الضباب كان أسوأ من أى مطر ، ومالت صفحة السماء غيوم
ضخمة متقطعة ، والناس يغدون مسرعين إلى الشاطئ ، والغريب أن
وجوههم جميعا علتها مسحة من كآبة وقنوط : كانوا فلاحين سكارى ،
ومعقوفى الأنوف عراة الرؤوس ، ونساء فنلنديات فى أحذية طويلة ،
وعمالا ، وسائق عربات ، وكتابا حكوميين من كل نوع ، وصديا نجحلا
مسلولا فى قميص مخطط قد سود الشحم وجهه وأمسك فى يديه قفلا
ضخما ، ثم جنديا مطرودا من الخدمة فارع الطول . وكان يبدو أن
الناس يتدفقون كل يوم فى مثل هذه الساعة ، وكانت التربة نفسها جديرة

بالملاحظة أيضاً إذ كيف يمكن أن تدسح لسكل هذا العدد من القوارب ؟ وعلى السكوبرى جلست نساء يعن كعكاً معسلاً مبللاً ، وتفاحاً عفناً ، لكن مجموعة كبيرة منهن كن ماططخات بالأوساخ والقذارة . وأدركت أن فوتنانكا ليست بالمكان الذى يتنزه فيه المرء ، فليس فيه غير أحوال تنزل منها القدم ، ومنازل عالية تنفث الدخان . والضباب يكتنف كل جانب ويحيط بالمرء رس . . . يا له من مساء حزين كان ذلك المساء .

وعندما انحرقت إلى شارع جوروفايا كان الظلام قد أرخى سدوله وبدأ العمال ينثرون مصابيح الغاز ، ولم أكن قد زرت هذا الشارع منذ أمد بعيد ، فبدأ لى مليئاً بالحركة والحياة ، ففيه المحال الجميلة ، كبيرها وصغيرها ، كلها تلمع وتزهو بما فيها من بضائع غالية وزهور وقبعات محلاة بالأشرطة ، حتى ليظن المرء أنها ما وضعت كلها على هذا النظام إلا حباً فى الجمال فحسب . أيشترى الرجال أشياء جميلة كهذه لزوجاتهم ؟ إنه شارع غنى يعيش فيه كثيرون من الخبازين الألمان ولا بد أنهم أغنياء . والشارع مليء بالعربات . ولست أدري : كيف تتحملها حجارة الطريق ؟ وأى عربات فاخرة كانت تلك التى تبدو لامعة النواقد محلاة بالحرير والقטיפه ، على جانبها القواصون بإشاراتهم وسيوفهم .

ونظرت داخل كل منها أثناء مرورها وأخذت أنساء هل السيدة التى بداخلها كوتاميسة أو أميرة ؟ وكانت تلك الساعة هى الوقت المعتاد الذى يذهب فيها الناس إلى المراقص والحفلات الساهرة . ولعله من

المتع أن يشاهد المرء عن كذب كوثنية أو حتى أى سيدة عظيمة . أنا واثق أنها متعة كبيرة ، ولم أحظ أنا بمثل هذه الفرصة اللهم إلا وأنا أسترق النظر فى عربة كما فعلت ساعتها . ولقد فكرت فىك أيضا ، ومآلى هذا يا عزيزتى المسكينة . لماذا أنت بائسة يا فارنكا ؟ . وأى شيء ينقصك عن الأخريات ياملاكى الصغير العزيز ، وأنت جميلة مثقفة طيبة القلب ؟ فلماذا تهسو عليك الحياة ؟ ولماذا يجب أن يعيش رجل طيب فى عز وحاجة على حين نسعى السعادة إلى آخرين طائفة مختارة ؟

وطبيعى يا عزيزتى أنه ما كان ينبغي أن تخطر لى مثل هذه الأفكار ، لأن لها مذاق الفكر الحر — لكنى لا أملك إلا أن أتساءل : لماذا يتسم الحظ لشخص على حين يعبس لآخر لا لسبب إلا لأنه ولد يتيما ؟ وكما يحدث فى القصص الخيالية قد يتسم الحظ أحيانا لإيفانوشكا العبيط وحينئذ يعيث فى خرائن مبرائه ويعب الخمر ، ويمرح على حين يقف حطام مسكين آخر يلحق شفتيه ويرقبه متحسرا ، فهذا كل ما يستطيع . وهذا كل ما ولد من أجله !

إنها الخطيئة طبعاً أن يفكر المرء على هذا النحو ، ولكن هناك بعض الخطايا التى تتسلل إلى القلب قبل أن يحس بها المرء .

لقد تساءلت لماذا لا يمكنك أن تركبى إحدى هذه العربات يا حبيبتي العزيزة — تركبينها مع القادة والأمراء . لامننا نحن السمك الصغير وكلهم متلهف لا بتسامتك الحلوة ؟ ستلبسين عندئذ الذهب والفضة بدلا

من هذه الملابس المتواضعة من التيل . وهل ستكونين حينئذ رقيقة
الصحة كما أنت الآن ؟ .. كلا . . . لا شيء من هذا القليل . . . ستكونين
حينئذ كدمية أنقى صنعها . . . جميلة عذبة ممثلة الجسم ؛ مودة الحدين .
كم كنت أتمنى عندئذ أن أختلس النظر إلى نوافذك المضيفة كي أرى
خيالك وأطمئن أنك سعيدة راضية .

يا إلهي ، كم يكون هذا ممتعاً يا حبيبتي . . . يا عصفورتي الصغيرة . .
ولكن كيف تسير الأمور في الحياة الواقعية ؟ لا شيء سوى الأسى ، وقد
دفعك إلى الأسى أشرار ، لم يكفهم ما ألحقوا بك من إهانة فأضافوا
إليها الأذى وأزعجوك بما أشاعوا عنك من اختلاقات كاذبة . . المجرد
أنه يتبختر في معطف جديد ، ويستطيع أن يغمرك خلال منظاره
الذهبي يتخيل هذا الغمر المفتون أنه يستطيع استباحة الحقوق ، وأن
على الناس أن تتحمل وقاحته . . ؟ أيجب أن يفعل المرء هذا حقاً ؟

ولماذا . . ؟ ألائك بقيمة عاجزة . . دون أصدقاء أقوياء يمنحونك
حمايتهم ؟ . . أى نوع من الرجال ، ذلك الذى يعتدى على فتاة صغيرة
عاجزة ؟ . إنه قطعة من نفاية وليس بالرجل أبداً . . رجل فى المظهر
فحسب ، أنا واثق أنه كذلك ، بل إن عازف الأرغول الذى صادفته
فى شارع جورو خوفاً يا اليوم أكثر رجولة منه . وماذا يعنيه لو قضى
يومه فى الشارع انتظاراً لسكوبك واحد ؟ انه سيد نفسه ويتكسب قوته
بنفسه ، إنه ليس سائلاً بل يحترق من أجل متعة الناس ، اليكم أمتعوا

أنفسكم أفهذبا ما خلقت أنا له ! ولعله شحاذ بعد كل هذا — شحاذ حقيقى ، ولكنه شحاذ شريف من أجل هذا كله ، وبالرغم من التعب والجوع يدأب هو على عمله بطريقة الخاصة ، بل بالطريقة نفسها .

وهناك يا حياىى الكثيرون الذين يقومون بأعمال متواضعة ، ولا يتكسبون منها إلا القليل ، ولكنهم لن ينحنوا لمخلوق أو يستجدوا لأكف ، وأنا بالضبط مثل عازف الأرعول هذا ، أعنى أنى لست مثله على الإطلاق ، ولكنى مثله تماما من حيث الإحساس الرقيق الشريف بحسب . وأنا أبذل جهدى ما استطعت . فإذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ؟

إن ما ذكرنى بعازف الأرعول هو أنى أحسست بفقرى اليوم أكثر مما أحسست به فيما سبق من أيامى ، ووقفت فى الطريق أرقب عازف الأرعول يعزف ، فعلت هذا كى أهرب من نفسى كى أطرده الأفكار الكئيبة بعيدا عن عقلى . ووقف بعض سائق العربات وامرأة شابة ، وفتاة زرية المنظر ، يرقبونه معى أيضا . وكان عازف الأرعول قد اتخذ له موقعا تحت نافذة من النوافذ . ثم رأيت طفلا فى حوالى العاشرة من عمره لولا هزاله وسقمه لبدا رائع المظهر ، وكان حافى القدمين لا يرتدى إلا قيصا وقد وقف فاغرا فاه يستمع — إن الأطفال هم الأطفال دائما ، ولم يستطع أن يرفع عينيه عن الدمية الراقصة على الأرعول بالرغم من

أن ركبتيه كانتا ترتعشان من شدة البرد، وظل يمس كم قبضه، ولاحظت أيضاً أنه كان يمسك بقطعة من الورق في يديه . وأخيراً ألقى أحد المتفرجين بقطعة من نقود في الصندوق الذي كانت ترقص عليه الذي الرجل الفرنسي (وسيداته) . وأيقظت ذمة العملة الطفل من استغراقه فنظر حائراً إلى المتفرجين . ولا بد أنه ظننى أنا الذى أسقطت هذه القطعة من النقود ، إذ هرع إلى وناولنى الورقة بأصابع مرتعشة ، ورجائى فى صوت متعثر أن أقرأها . وفضضتها : وكانت طبعا عبارة القصة المعتادة : أم تحتضر ، وثلاثة أطفال يتضورون جوعاً ، وضراعة إلى حنان البشر الأعزاء أن يمدوا يد العون . ثم وعد بأنه عندما تموت الأم فستشفع لهم وتذكرهم فى السماء .

ولم يكن بالورقة ما يستغلق على الفهم ، ولكن ماذا كنت سأعطى الطفل ؟ لا شيء على الإطلاق . ولكن كم أسفت للطفل ! طفل صغير مسكين مثل هذا ، يكاد يقتله البرد . . والجوع أيضاً . ولم يكن الطفل يكذب على أكلا لا يمكن أن يكون كاذباً فأنا أعرف هذا جيداً . ولكن أقدر ما فى الموضوع أن فى الوجود أمهات شريرات يبعثن بأبنائهن إلى الخارج وهم شبه عرايا حيث البرد القارس ، لعل قلبها قد تمجج ، أو لعلها لا تجد من يساعدها فاضطرت إلى البقاء مع أبنائها ، ولعلها مريضة حقاً ، ولكن مع هذا كان من الواجب عليها أن تلجأ إلى السلطات المختصة . أما أن تفعل هذا فهى إنما تتطفل على المارة أو ترسل ابنها الجائع المريض

ليستجدي . وأى نوع من التربية سيحظى بها بسبب هذه القصاصات من الورق ، ما هو ذا يجرى هنا وهناك متوسلاً ، ولكن الناس لا تعنى به ، فقلوبهم كالصخر ، وقلوبهم قاسية ، «امض بعيداً أيها المشرّد !!» «لا تبعد عنا بنحسك» .

إن هذا الطفل سيتعود القسوة وهو يرتعش من البرد ، هذا الفرخ الصغير المذعور الذى سقط من عشه لقد تخدرت يداه وهو لا يكاد يقوى على التنفس فى هذا البرد القاتل ، وقبل أن يدرى سيبدأ السعال ، وترحف المرض متسللاً إلى صدره ، وسرعان ما يترصده الموت فى ركن قدر مظلم لأنه ما من شخص سيعنى به أو يساعده . وهكذا تنهى حياته الصغيرة .

وهذا هو كل ما قدر لبعض الناس من حياة يا فارتكا . وليس من اليسير إطلاقاً أن تسمى شخصاً يقول : «ساعدنى محبة فى المسيح» ثم تمرين به دون أن تمنحيه شيئاً اللهم إلا مجرد القول : «فليساعذك الله» فثمة أوقات طبعاً لا تثير فيها كلمات : «محبة فى المسيح» : [فتلك أنواع مختلفة من «محبة فى المسيح» يا حبيبتي] : بعضها يقال فى تهنيد آلى ، كما يفعل معظم الشحاذين فإذا لم يمنح المزمع شيئاً شخصاً مثل هذا لم يعذبه ضميره كثيراً ، فهو من النوع الذى تعود الاستجداء ، وسيدير أمره بأية طريقة ، ولكن فى أوقات أخرى تدوى «محبة فى المسيح» بطريقة غريبة : خشنة مرعبة ، كما سمعتها اليوم عندما كنت أقرأ ورقة الطفل

وقال لي شحاذ يقف إلى جوار الحاجز ، كان واقفا هناك فحسب ،
ولا يستجدي مثل الآخرين : قال لي : « امنحني قطعة من نقود محبة
في المسيح ، » .

وكان الصوت خشنا حتى إنني ارتجعت . ولكن ماذا يمكنني أن أمنحه ؟
كنت لا أملك شيئا وتخيل أن بعض الأغنياء يضيقون ذرعا عندما يشكو
الفقراء حياتهم القاسية ، ويقولون : إنهم يضايقونهم وينغصون حياتهم ..
هل تقضى أنات الجوعى مضاجعهم ليلا ؟

وأصرح لك بالحق يا حبيبتى العزيزة أنتى قد كتبت هذا كله لسبيين :
أولهما كي أخفف العبء عن قلبي والآخركى أعطيك مثلا لأسلوبى الجيد
فى الكتابة . وكما ترين يا عزيزتى بدأ أسلوبى يتبلور أخيراً . والقنوط
يملكنى الآن حتى لا أملك إلا أن أتجاوب أنا وأفكارى الخاصة ، ومع
أنى أعلم يا حبيبتى أن مثل هذا التجاوب لن يودى بى إلى شيء إلا أنه من
الممتع أن يتجاوب المرء وأفكاره ، هذا إلى أنها تؤدي به إلى التواضع
وتشعره بتفاهته وأنه أقل مرتبة من قطعة خشب ، وإذا ما أردت
المقارنة فلعلنى أخبرك أن هذا كله لأننى محطم بائس ، مثل ذلك الطفل
الذى سألنى اليوم إحسانا .

اغفرى لى يا فارتكا إذ اندفعت فى شيء من ضرب الأمثال والمواعظ ،
ففى طريقى إلى الديوان فى الصباح الباكر يحدث أحيانا أن أتأمل المدينة ،

أتأمل الدخان وذلك الاضطراب والضجيج الذى يجعلنى أشعر بضآلتى ، وكأنما شخص ما قد أشعرتنى بتطفلى ، وعندما يحدث هذا أثوب لنفسى وأمضى متواريا كنفار ، ولكن دعينا الآن نؤمن النظر ونرى ماذا يحدث فى هذه المنازل الكبيرة المظلمة الجرداء ؟ . انظرى ثم احكى : هل من الخير أن يتواضع المرء ويشعر بالكآبة بسبب هذا أولا ؟ . ولكن تذكرى يافارنكا أننى أقول هذا كله على سبيل المثال فحسب . والآن ماذا سنرى فى هذه المنازل ؟ . سنرى كيف يستيقظ عامل فى ركن صغير فى قاعة رطبة يسمونها شقة . ولعله من المحتمل أن يكون قد قضى ليلة يحلم بزواج من النعال أتلفه فى يومه السابق ، وتخيل أن إنسانا يحلم يافارنكا بمثل هذه النفاية ، ولكن من الطبيعى أنه عامل — إسكافى — ولعل هذا عذره فى تفكيره الدائم فى مثل هذه الأمور ؟ . إن أطفاله ينتحبون وامراته جوعى .

وليس الإسكافيون فحسب هم الذين يستيقظون فى الصباح ولا يملأ رءوسهم سوى مثل هذه الأشياء ياعزيزتى ، ولعل الموضوع كله لا يستحق الذكر لولا حال أخرى ، وفى هذا المنزل نفسه ، وفى الطابق الأعلى يعيش رجل غنى كان يحلم فى غرفته المذهبة خلال الليل كله بالنعال ، وطبيعى أنها ليست النعال نفسها ولكننا نعال على أية حال . وهكذا ترين ياعزيزتى ، أن كلنا إسكافى إلى حد ما !

ومع هذا أيضاً فليس الأمر خليقا بالتفكير ، لولا أن المشكلة هى

أنه لا يوجد من يهمس في أذن الرجل الفنى أن يكف عن التفكير في نفسه ، وأن يكف عن العيش لنفسه فحسب ، فهو ليس بالإسكافي ، وأطفاله في أتم صحة ، وزوجته ليست جوعى ، لماذا إذن لا ينظر حوله ، ويجد شيئا نبيلًا يشغل فكره به غير النعال ؟ .

وهذا هو ما قصدت أن أقوله لك عن طريق الأمثلة . ولعل هذا فكر حر متطرف يا فارتكا ولكنه يخطر لي أحيانا ، وعندما يخطر لي يتدفع من قلبي في كلمات كثيرة . وهكذا ترين أنه ما من داع أن يتمن المرء نفسه ويخشى كل هذا الاضطراب والضجيج . وختاماً أقول لك يا عزيزتى : تعلمك تظنينى أثر فحسب ، أو أننى متوعدك المزاج فحسب ، أو لعلك تظنينى نقلتها من كتاب أو نحوه . كلا يا عزيزتى ، لأننى أؤكد لك أنه ما من شيء أحقر مثل الثثرة ، ولأننى لست متوعدك المزاج ، ولم أنقل شيئا من أى كتاب .

لقد عدت إلى منزلى مسكدود الحاطر ، ووضعت لإبريق الشاي على الموقد ، وكنت على وشك أن أتناول قدحا من الشاي ، وفجأة دخل على جارى المسكين ، جورشكوف ، كنت قد لاحظت فى الصباح أنه كان يتسلل فى مشيته يتحاشى ويتحاشى الآخرين . وأحب أن أذكر لك أن حياته أسوأ بكثير لدرجة لا يمكن أن تقارن بحياتى أنا ، وكيف يمكن أن تكون غير هذا — مع وجود زوجته وأطفاله ووجودهم جميعا .

والحق أننى لو كنت « جورشكوف » ، ما كنت أدرى ماذا أفعل حقاً .
وهكذا دخل جورشكوف الغرفة وغض بصره ذليلاً إلى الأرض
كعادته ، ووقف هناك يلمث ، ولا يستطيع أن يفتح فاه بكلمة .
وقدمت إليه مقعداً ، مقعداً مكسوراً ليس عندى غيره — وقدحاً من
الشاي ، وظل طويلاً يعتذر عن قبوله ثم قبله أخيراً ، ولكنه رفض
السكر وبدأ يعتذر مرة أخرى ، وعندما ألححت عليه بأن يأخذ السكر
أخذ يرفضه ثم استقطع لنفسه أضال قطعة وأكد لي أن الشاي حلوا إلى
درجة كبيرة . يا إلهي : إلى أى درك يهبط الفقر بالإنسان .

وسألته :

كيف حالك أيها الصديق ؟

فقال :

— شكراً ! ثم مضى يقول :

ألا تستطيع يا ما كار اليكسيفتش أن ترفق رحمة الله وتساعد أسرة
منكوبة ، فليس عندى ما أقمت به زوجتى وأطفالي كما تعلم وأنا أبوهم
أرقيهم عاجزاً .

وكنت على وشك أن أقول شيئاً ما ، ولكنه قاطعنى قائلاً :

— إننى أخشى كل ساكن هنا يا ما كار اليكسيفتش ، بل الحق
أننى أخجل أكثر مما أخشى محادثتهم ، فهم يضيّقون بي وينعزلون عني ،

وما كنت أفكر قط في إزعاجك أيها الصديق المفضل فأني أعلم أن
عندك من المشكلات ما يكفيك ، وأنتك لا تستطيع مساعدتي كثيراً ،
ولكنني أرجو أن تقرضني شيئاً ، ولم يكن من اليسير علي نفسي أن
أسعى إليك طالبا العون ، ولكنني أعلم أي قلب حنون ينطوي عليه
صدرك ، وأعلم أيضاً أنك في عوز وحاجة مثلي ، لذا فستشعر بالآسى
ونكباتي .

ثم أضاف إلى هذا الكثير من الاعتذار على تجربته وطلبه مني .
وأجبتة بأنه لشد ما كان يسعدني مساعدته ، ولكنني لا أملك شيئاً أبداً
فعاد يتوسل إلى .

صديق الحنون ما كار ، إنني لا أطلب الكثير ، وزوجتي
وأطفالي محتضرون جوعاً ، ألا تستطيع إقراضني عشرة كوبكات
فحسب . ؟

ومزق هذا قلبي . نعم . . . حال الرجل أسوأ من حالي . وكان كل
ما أملك في تلك اللحظة عشرين كوبكا كنت أحتفظ بها كي أواجه
ضروريات الغد . فقلت :

— كلا يا صديقي . . الحق أنني لا أستطيع .

وشرحت له لماذا لا أستطيع . ولكنه عاد يقول :

— ولكن يا صديقي العزيز ما كار اليك سيفتش ، قل ماشئت ،
وافعل ماشئت ، ولكن أعطني عشرة كوبكات على الأقل .

وأخذت القطعة ذات العشرة كوبكات التي أملكها وأعطيتها إياه
لأنهم يعتبرون العشرين كوبكا إحسانا أو كذلك هي يا فارنكا ؟ .. لأن
الله الفقير .

وبدأنا نتحدث وسألته أخيرا كيف تأتي له أن يستأجر غرفة
بخمسة روبلات مع ما يمر به من ظروف حرجة فأوضح لي أنه قد أقبل
إلى هنا منذ ستة أشهر خلت وقد دفع لإيجار أشهر ثلاثة مقدما ، ولكن
الأمور قد تأزمت به حتى لا يدري ماذا يفعل الآن ؟ وقد كان يأمل
أن تكون قضيته المنكودة قد فصل فيها خلال تلك المدة ، فهو يتقاضى
تاجرا اختلاس من أموال الحكومة ، وعندما اكتشف الاختلاس
حوكم التاجر ، ولكن الشرير جر « جورشكوف » معه على حين أن
الواقع أن « جورشكوف » مذنب فحسب من حيث السم وإهماله لمصالح
الدولة . ولكن القضية ظلت تنقل بين المحاكم سنين عدة
« جورشكوف » يواجه دائما عقوبات جديدة ، إن جورشكوف
يقول :

إنني بريء من كل هذا العار الذي لحق بي — إنني بريء من السرقة

أو الاختلاس ، ولكن القضية كلفته سمعته ، فطرد ، وبالرغم من أنه لم يحكم بجرمه ، لم يحكم ببراءته أيضاً . ولو كان قد حكم ببراءته لكان على ذلك التاجر أن يدفع له تعويضاً — مبلغاً ضخماً من المال . . . إنه يستحقه بحكم القانون . وأنا مستعد أن أصدق كلمة «جور شكوف» ، ولكن المحكمة لن تفعل ، فالموضوع معقد ملتو حتى إن قرنا من الزمان لن يكشف عنه ، فما يكاد التحقيق يحل عقدة حتى يخترع التاجر عقدة أخرى .

لأنني لأسف يا عزيزتي من أجل «جور شكوف» وأحس بالآلام إحساساً عميقاً ، فهو عاطل بلا عمل فما من مخلوق يرضى باستخدامه بسبب ما أصاب سمعته ، وكل ما كان يملك قد بيع منذ أمد طويل ، وبينما كانت القضية تتمش بين المحاكم ولد له طفل جديد . . . في غير وقته المناسب . وهذا يكلف بالطبع الكثير من المال ، وعندما مرض الطفل احتاج أيضاً إلى المزيد من المال ، وعندما مات زادت الحاجة إلى المال . وزوجته مريضة وهو أيضاً يشكو من علة قديمة . وباختصار إنه يتعذب .

ولكن مهما كانت الحال فهو يزعم أنه ينتظر قراراً في مصلحته يصدر خلال أيام قلائل ، وهو واثق من هذا . لأنني جد آسف وحزين من أجله يا غارتكا ، وقد حاولت جهدي أن أواسيه ، إنه رجل ضئيل

ضائع في أمس حاجة إلى الحماية ، وقد واسيته ، ما استطعت .

إلى اللقاء يا حبيبتي ، وليكن المسيح معك ويحفظك في أتم صحة .

فأرنكا .. يا حياتي : إن التفكير فيك شفاء لروحي ، والعذاب من أجلك ؟

عزاء . .

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين



٩ من سبتمبر

فارفارا أليكسييفنا عزيزتي

أكاد أفقد صوابي ، فثمة شيء فظيع قد حدث ، رأسي يدور بي ، وكل شيء حولي يدور أيضا ، ولن تتوقعي أبدا ما سأفضي به إليك ، فإ تخيلنا قط شيئا مثل هذا ، ولستني قد تخيلته أنا وتوقعته ، كان قلبي يشعر به . بل رأيت حلما يشبه ذلك الخوف حدث .

وإليك ما حدث وسأصفه لك دون زخرف أو تنميق ، سأصفه لك كما تجري به ريشتي لحسب .

ذهبت إلى مكتبي هذا الصباح كالمتأد ، واتخذت مجلسي إلى المكتب وبدأت أكتب ، وهنا يجب أن أذكر يا عزيزتي أنني فعلت الشيء نفسه بالأمس عندما أقبل على تيموفاي إليا وفتش شخصيا ، وقال : إن عنده ورقة يجب أن تنسخ على الفور ، ثم قال :

— أرجو أن تنسخها بأنظف وأسرع ما يمكنك ؛ فسيوقعها
سعادته اليوم .

ويجب أن أذكر كذلك يا عزيزتي أنني بالأمس لم أكن أستطيع استجماع
أشتات نفسي ، كنت وحيدا حزينا ، كان قلبي مكدودا كثيباً وكنت
جد قلق عليك يا عزيزتي . وبدأت عملي ، وانسخت الوثيقة نسخاً دقيقاً
جيداً ، ولكنني لست أدري أمن عمل الشيطان هو أم من إرادة السماء
أم بمجرد أنه كان لابد أن يحدث ؛ لقد نسيت سطوراً ، ويعلم الله وحده
كيف غير هذا السطر المعنى ؛ إذ لم يبق للوثيقة معنى على الإطلاق . ولم
يتسع وقتهم لهذه الوثيقة بالأمس فوقعها سعادته اليوم .

وأقبلت إلى مكنتي اليوم وأنا لا أدري شيئاً واتخذت مجلسي إلى
جانب يميليان إيفانوفتش ، وهنا يجب أن أذكر أيضاً أنني قد بت منذ
مدة أكبر خزيًا وخجلاً ، ولم أحاول قط أن أنظر إلى وجوه الناس
بل إن صرير كرسي كاف لأن يشير وجلي ، واليوم أيضاً قد تضاهات
حتى بت كالسلحفاة تدخل رأسها في جسمها وأنا أقرب إلى الموتى مني إلى
الأحياء . حتى إن يفيم اكييموفتش (وهو أكثر خلق الله جونا) قال
بصوت عال يسمعه الجميع : لماذا تجلس هكذا يا ما كان اليك سيفتش
مثل . . . ؟

وهنا قلب سعادته على صورة انفجروا معها جميعاً ضاحكين ، وكان

من الطبيعي أن يعيدوا الكرة ، ولكني أغضضت عيني وسددت أذني
وتظاهرت بأنني لا أسمع ولا أرى . فهذه الطريقة المثلى كي يتركوني
وشأنى .

وفجأة سمعت ضجة تنهاى إلى من بعيد ، ثم سمعت اسمي يذكر
— ولم أستطع أن أصدق أذني .. ولكن كان اسمي أنا . نعم دوفشكين
هو من ينادون .. فاشتد وجيب قلبي — ولست أدري لم تملكني الفرع
فرع لم يملكني في حياتي قط من قبل . وتسمرت في مقعدي لا أريم
حراكا — كما لو أنه لم يكن أنا ذلك الذي ينادون . والأصوات تقترب
وتقترب حتى صارت لصق أذني .

— دوفشكين ! دوفشكين ! أين دوفشكين ؟ ونظرت فإذا
بيفستاف إيفانوفتش واقف يقول :

— إن سعادته يطلبك يا ماكار إليكسييفتش ، فلقد أفسدت تلك
الوثيقة .

كان هذا كل شيء .. ولكن كان يكفيني ما سمعت : ألم يكن كذلك ؟
وسرت البرودة إلى أطرافى وكدت أفقد وعي ، ولست أدري كيف
نهضت ومشيت بل لست أستطيع القول أى شيء جال بخاطري في تلك
اللحظة ، كل ما أذكره أنني اخترقت غرفة ثم أخرى ثم ثالثة إلى المكتب
الخاص حيث وقفت وجها لوجه أمام سعادته وحوله الآخرون ،

وأخشى أن أكون قد نسيت أن أنهي . ووقفت هناك ترتعش شفتاي
وتصطك ركبتي ، وكان ثمة ما يدعو إلى هذا : فأولا تصادف أن حانت
منى نظرة إلى المرأة على يميني وما رأيته فيها كان يكفي كي يدفع بأي إنسان
إلى الجنون ، وثانيا أني سلكت دائما كأنني لم أوجد قط ، فكيف يجب
أن يعرف سموي أنني أعيش على الإطلاق ؛ لعله قد سمع من يذكر اسم
دوفشكين في الوزارة ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء معرفته قط .

وبدا حديثه غاضبا :

— ما معنى هذا أيها السيد ؟ ولماذا لا تبذل المزيد من العناية ؟
كانت وثيقة عاجلة ولقد أفسدتها . .

والتفت سعاده الآن إلى بفتافي ليفانوفتش ، والتقطت أذناي
لمحات مما كان يقول لحسب : « مثل هذا الإهمال . . متاعب كثيرة . . »
وفتحت فأي عدة مرات كي أعذر ، ولكن لم أنطق حرفا ، ووددت لو
أهرب ولكنني لم أجرو ، وعندئذ حدث أسوأ الأمور كلها : شيء مروع
يا حبيبتى حتى لترتعد ريشتي في يدي خربا وأنا أكتننها . ومن أضرار
معطني لعنه الله ، زر كان يتعلق بخيط واحد سقط فجأة ، وأخذ يقفز ،
ويرقص ، ويتدحرج حتى وصل إلى قدم سعاده ، وحدث هذا وسط
السكون الشامل . هذا ما حدث بدلا من اعتذارى ، كان هذا ردى
الوحيد على سعاده .

أما ما تبع هذا فإنه لا يشع بما يوصف ، فقد أدار سعادته بصره إلى
يتفحصني ويتأمل تفاصيل شكلى وملبسى ، وتذكرت ما رأيته فى المرأة
ثم خطوط أقتنص ذلك الزر ولست أدري ماذا تملكتنى حتى أفعل
هذا ؟ . ومددت يدى ألتقطه ولكن العين ظل يدور ويتدحرج .

وهكذا ترين أنى أظهرت نفسى بمظهر الغي المافون ، وشعرت أنى
أفقد وعي ، فلقد ضاع كل شيء : سمعى وكل شيء ضاعت دون أمل فى
استردادها ، وبيننا أنا فى هذه الحال من الاضطراب أخذ تدوى فى أذنى
صرخات تريزا ووالدوى وأقويل آلاف الآلسن .

وأخيراً تغلبت على الزر واقتنصته ونهضت واقفاً ، وكان من
الواجب أن أقف ساكناً تماماً ويداى إلى جانبي ، ولكن كلا ، لقد
رحت أعبت بهذا الزر ، فأدفع فيه الخيط الواهى كأنما يمكن أن يعود
فيلتصق به ، وكنت ابتسم طيلة هذا كله ، نعم كنت ابتسم لحسب ، وأشاح
سعادته بوجهه منى ثم وقعنى بنظرة أخرى ، وقال ليفستافى إيفانوفتش :

— ما معنى هذا ؟ أنظر إلى الرجل ، ماذا به ؟

وأجابه ليفستافى .

— إن سجله نظيف تماماً ، ومسلحه مثالى ، ومرتبته وفق القانون
وقال سعادته :

— ساعدوه بأية طريقة ، امنحوه جزءاً من مرتبه مقدماً .

— ولكنه سحب فعلاً مرتبه لشهور قادمة . ولا بد أن الظروف قد أدت به إلى أن يفعل هذا مادام سلوكه ممتازاً وملف خدمته نظيفاً ولا شيء ضده .

وكان الدم يتدفق إلى وجهي يا عزيزتي حتى لسكاتي كنت أحترق في نيران .

وقال سعادته بصوت عال حتى لقد سمعته :

— حينئذ قلتم نسخ هذه الوثيقة من جديد وبأسرع ما يمكن ، تعال هنا يادوفشكين ، لنسخ هذه الورقة دون أن تخطئ . .. واسمع
وهنا أمر سمارة الآخرين بالخروج ولم يبق سوى وهو ، وأسرع فأخرج حافظته نفوذة من جيبه ، وأخرج منها ورقة بنسكوت من فئة مائة الروبل ، ودسها في يدي وقال :

— اليك بها .. اعتبرها قرصاً إذا أردت ، وإني لأحب أن أفعل شيئاً من أجلك .

وذملت ياملاكي حتى لم أستطع نطقاً ، وأنا لا أكاد أدري ماذا كان يجري ، وهممت أن أقبل يده ، ولكنه تضرع خجلاً ، وحينئذ — ولست أبالغ قط يا فارتكا — أمسك بيدي — بدى أنا — وشد عليها كأنني له تدا . وقال :

— لمض الآن أيها الصديق — متأسف أنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً أكثر من هذا ، واحذر الأخطاء وسنشارك معاً فى تحمل اللوم على ما حدث .

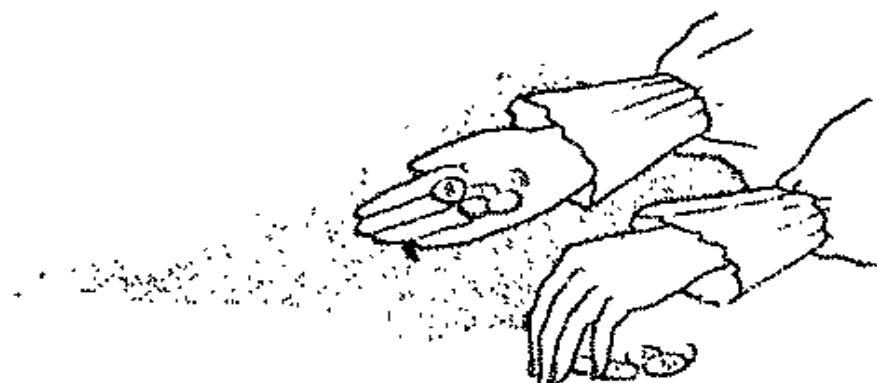
وليك الآن ما أطلبه منك أنت وفيدورا أرجو أن تصلوا من أجل سعادته كل يوم ، ولو كان لى أبناء لطلبت منهم أيضاً أن يصلوا لسعادته أكثر مما يفعلون من أجل والدهم . وسأقول هذا أيضاً يا حياى . . سأقوله جاداً من كل أعماق . إنه ما يعيننى كم قاسيت . . وإذا ما غضضت الطرف عما شعرت به من عذاب بسببك فى أسود أيام عزوتنا عندما كنت أنظر اليك فيمنعنى عجزى عن مساعدتك . . أقول بالرغم من كل هذا وأقسم لك أن هذه الروبلات المائة ليست بالعريضة إلى قلبى قدر تلك الحقيقة : أن سعادته قد صالحتى ، شد على يد سكير زرى المنظر . فقد أعاد إلى رجولتى وروحى وأضاء حياتى . وأنا واثق تماماً أن صلواتى من أجل سعادته ستستجاب بالرغم من أنى رجل ذو خطايا .

لأنى فى أشد الاضطراب والذهول يا فارنكا ، وقلبي يكاد يقفز خارج صدري ، وأحس بضعف شديد ، أبعث اليك خمسة وأربعين روبلا ، وسأعطى ربة دارى عشرين روبلا فيبقى معى خمسة وثلاثون ، وسأصالح ثيابى بعشرين منها ويبقى لى بعد ذلك خمسة عشر روبلا أواجه بها النفقات الأخرى .

لقد قلبت الانفعالات الصباح كياني كله ، ولعله من الأفضل أن آوى
إلى فراشي وإن كنت مع هذا سعيداً هادئ البال اللهم إلا أن روحى
تتعذب ولست أدري لماذا ، وأكاد أسمعها تترنش وتضطرب في أعماق ؟
سأزورك فيما بعد فإني الآن «ضطرب بعد كل هذه الأحداث . إن الله
يرى كل شيء ، ويسمع كل شيء يا حبيبتي ، يا فتاتي الصغيرة الغالية .

صديقك

ماكار دوفشكين



١٠ من سبتمبر

عزيزى ما كار

أسعدنى أن أسمع بحظك السعيد ، وإنى لأقدر تماما عطف رئيسك
وطيبته ، وقد آن لك أن تستريح من همومك ، ولكنى أستحلفك بالله
ألا تبعثر نقودك ، وعش في هدوء وتواضع قدر ما تستطيع ، وأبدأ بأن
تدخر شيئاً ضئيلاً كل يوم حتى إذا ما حلت النكبات وجدتك متأهباً لها.
أرجو ألا تحمل عناهما فستدبر أمورنا أنا وفيدورا بأية طريقة
ولماذا أرسلت إلينا الكثير من المال يا ما كار أليكم سيفتش ؟ .. الواقع
أننا لا نحتاج إلى الكثير من المال .. ونحن قانعتان بما عندنا ، صحيح أننا
سنحتاج إلى المال كي نقتل من هذا المكان ولكن فيدورا تتوقع أن
تسترد ديناً قديماً لها ، إنى احتفظ بعشرين روبلاً للطوارئ وأرسل إليك
الباقى ، فاقصد فى نقودك يا ما كار .

إلى اللقاء ولتستريح من همومك ، ولتحافظ على روحك المعنوية

العالية وقد كنت أحب أن أسترسل إلى الكتابة لولا ما بي من تعب .
بالأمس لازمت فراشي وأنا سعيدة لأنك وعدت أن تزورني ، وأرجوك
أن تفعل .

ف . د



١١ من سبتمبر

فارفارا أليكسييفنا ، يا حبيبتي

أرجوك ألا تذهبي بعيدة عني على حين أتى جد قانع وسعيد ، ولا تصغي لفيدورا يا عزيزتي ، وسأفعل كل ما تطلبين مني أن أفعله . وسأسلكه ساووكا لا تقا ، احتراماً لسعادته على الأقل . وسنعود مرة أخرى إلى تبادل الخطابات السعيدة كما تعودنا من قبل ، سنشترك في الأفراح والمتاعب إذا كان ثمة متاعب ، وسنعيش في وئام وسلام ، وسنعود إلى الأدب مرة أخرى إذ تغير كل شيء في حياتي إلى أفضل يا فارنسكا ؛ قرية الدار قد زاد ودها نحوي ، وأضحت تريزا أكثر ذكاء ، ونالدوني أكثر طاعة ، وقد اصطلمحت أنا ورافازييف . كنت جد سعيد حتى إنني ذهبت أسترضيه بنفسى ، إنه شخص طيب القلب يا عزيزتي ، وكل ما يقوله الناس عنه من شر مجرد اختلاق ، فهو لم يقصد قط أن يصفنا في كتاب ، وقد

صرح لي بهذا ، وقرأ لي بعض كتاباته الجديدة ، أما عن نعتي إياي بـ "زير نساء" فقد وضع لي أنها ليست إهانة في الواقع ، إنما هي كلمة مستعارة من لغة أجنبية ، ولا تعني إلا شخصاً حاذقاً ، وإذا أردنا أن نشرحها بطريقة أكثر أناقة وأن نضفي عليها طابع السكتب فإنها تعني كما لو قلنا "سيد مذهب لبق" . وهكذا ترين يا عزيزتي أنها لم تكن سوى فسكاهة بريئة أسأت أنا الجهول فهمها . وقد اعتذرت إليه .

وكان الجو أيضاً جميلاً ، فقد جعله رذاذ المطر والضبباب الخفيف في الصباح منعشاً خصباً .

لقد اشتريت زوجاً جميلاً من الأحذية ، وخرجت أتزه في نفسي ، ووقفت أقرأ الصحف . يا إلهي ! لقد نسيت أن أخبرك بالموضوع الرئيسي : فلقد اشتركت هذا الصباح في نقاش حول سعادته مع إميليان إيفانووفتش وآكسنتي ميخايلوفتش ، فوجدت أنني لست وحدي الذي غمره بعطفه ؛ فالمعروف عن سعادته أن له قلباً عطوفاً ؛ وقد امتدحه الكثيرون ، وبكى الكثيرون عرفانا بجماله . ويقال : إنه تبني يوماً فتاة يتيمة ورباها ، ثم زوجها رجلاً ذا مركز محترم كان على صلة خاصة بسعادته .

ومعروف أيضاً أنه سعى إلى إيجاد عمل لابن أرملة ، وأنه قام بالكثير من أعمال الخير .

وشعرت أن من واجبي أن أضيف شيئاً إلى هذا كله ، ورويت قصتي للجميع ، رويتها دون أن أكتف منها شيئاً ، ولكنني مارويت خجلي خصب

غير أنه كيف يمكن أن يقال أى حديث عن الخجل فى مثل هذه الظروف
ألا فلتعلن أعمال الخير التى يقوم بها سعادته ولتندسح حتى يعرفها الجميع .

وكننت أتحدث بحرارة ، وجرفنى شعورى حتى نسيت خجلى ، بل
لقد كنت نفورا وأنا أروى شيئا مثل هذا . وقصصت عليهم كل شيء
[والسكنى طبعاً لم أذكر عنك شيئاً] ، رويت لهم كل شيء عن ربة دارى
وعن « فالدونى » وعن « رانا زيف » ، وعن تعالى وعن ماركوف ،
وباختصار حديثهم بكل شيء .

وضحك بعضهم — أو على الأصح ضحكوا جميعاً ، ولعله كان بهيمتى
أو بجدائى ما يثير الضحك ، نعم لئن متيقن الآن أن حديثى عن الأحذية
هو الذى أثار ضحكهم ، فهم شباب وحالهم متيسرة ، ولكنهم ليسوا
أشراراً قط ولا يقصدون سوءاً ، ولكن كيف يستطيعون أن يضحكوا
عند الحديث عن سعادته ؟ أترام يستطيعون يا قارنكا . . ؟

لئنى لازلت مضطرباً يا حياى فقد أذهلتنى الحوادث . ألدبك ما يكفى
من الخشب ؟ اعتنى بنفسك يا قارنكا واحذرى البرد . آه يا حبيبى العزيرة
إن أفكارك الكئيبة تؤلمنى كثيراً فأظل أضرع إلى الله من أجلك . وهل
عندك جوارب صوفية أو ثياب تدفئك ؟ اعطى على رجل عجوز
وأخبريه إذا احتجت إلى أى شيء ، يكفى مجرد تليح منك ، فقد مضت
الأيام السود ، والمستقبل يبشر بكل خير .

لأنها أيام حزينه تلك التي قاسيناها يا فارنكا ، ولكننا مضت إلى غير رجعة ، وإذا ما مضت السنون لم تعد غير ذكرى . إلى لأذكر أيام شبابي . ففي تلك الأيام كانت تمر بي ظروف وليس في جيبى ولا كوبك واحد ، ولكنى كنت سعيداً على الرغم من هذا كله ، ففي تلك الأيام كان يكفى أن أرى وجهاً جميلاً في الصباح في « نفسك » ، حتى أظل سعيداً طيلة يومى . هكذا كانت أيام شبابي .

لأنه لمعت أن يعيش المرء ، وفي بطرسبرج بالذات يا فارنكا . وبالألمس صليت لله والدموع في عيني ، وتوسلت إليه أن يغفر لي آثامى التي اقترفتها خلال متاعبنا وأن يغفر لي الشكوى وما خطر لي من أفكار حرة وانفاس في الخطيئة ، وفكرت فيك خلال صلواتى فلأنى الحنان والشكر ، فأنت التي آزرتنى في محنتى ، وأنت التي واسيتنى ومنحتنى النصيح والإرشاد . وإن أنسى هذا أبداً يا حياتى .

لقد قبلت اليوم خطاباتك جميعاً — خطاباً خطاباً يا عزيزتى .

إلى اللقاء يا حبيبتي فارنكا فلقد بلغت أن هناك من يبيع معطفاً للعمل وربما كان من الواجب أن أستعلم عنه . إلى اللقاء يا ملاكى الصغير .. إلى اللقاء ..

الخلص

ماكار دوفشكين



١٥ من سبتمبر

عزيزى ماكارا اليك سيفتش

... لاني مضطربة أشد اضطراب ولاني لا توقع أسوأ الأمور
واليك ما حدث ، واحكم أنت بنفسك : إن مستر بايكوف فى بطرسبرج
وقد التقت به فيدورا ، كان يركب عربته ، ولكنه نزل منها عندما
رأى فيدورا ، ودنا منها وسألها عن مقامها الآن ، وعندما رفضت
فيدورا أن تخبره ضحك ضحكة قصيرة وقال : إنه يعرف جيدا من
يعيش معها (ولا بد أن أنا فيدوروفنا قد أنبأته بهذا ولم تستطع فيدورا
أن تتمالك نفسها ، وبدأت توبخه وتسبه ، قائلة : إنه رجل منحط وأنه
سبب شقائى ، فأجابها :

لأنه لا بد أن أكون شقية حقا مادمت لا أملك كوبكا واحدة ،
وعندئذ أخبرته فيدورا أنى كنت أستطيع أن أعمل فأكتسب قوتى
أو أتزوج شخصا ما أو أجد لنفسى وظيفة ، ولكنى مريضة بفضله

وأكد أشرف على الموت . وأجابها على هذا : بأنى لازلت شابة قوية وأن كرامتى قد تباطأت أيضا ، (هذه هى عباراته بالضبط) .

وظننت أنا وفيدورا أنه لا يعرف أين نقيم ، ولكن بالأمس عندما خرجت أشتري بعض ما أريد ، جوستنى دفور ، اقتحم غرفتنا فجأة .

ويبدو أنه تعمد أن يأتى عندما أكون خارج الدار ، وعندئذ أخذ يطر فيدورا بالأسئلة عنى وعن حياتى ، وجعل يفحص كل شىء فى الغرفة حتى تطريزى أيضا ، ثم سألها أخيرا : من ذلك الكاتب الذى تتصل بكم كثيرا ؟

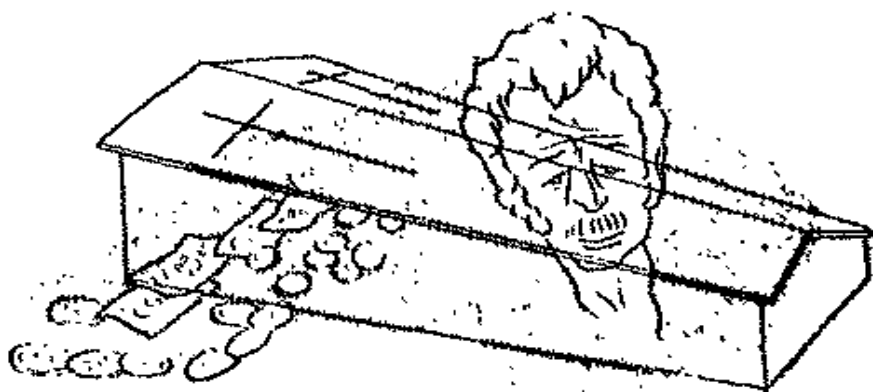
واتفق مرورك فى هذه اللحظة عبر الفناء فأشارت فيدورا إليك ، فنظر إليك وابتسم ، وطلبت منه أن ينصرف قائلة : إننى مريضة بسبب مشكلاتى . وإن رؤيته . قد تسبب إلى كثيرا ، ولم يجبها إلى هذا ، بل قال : إنه جاء للزيارة لحسب ، ثم عرض خمسة وعشرين روبلا على فيدورا ، فرفضتها طبعاً .

فما معنى هذا كله ؟ ولماذا أتى ؟ وكيف استطاع أن يعرف كل شىء عنا ؟ إننى ضائعة وسط أفكارى ، وفيدورا تقول لى : إن آكسينا زوجة شقيقها التى تأتى لزيارتنا أحيانا تعرف ناستاسيا الغسالة ، وابن عم ناستاسيا يعمل خفيرا فى الوزارة التى يعمل فيها أصدقاء آنا فيدوروفنا ،

وهذا هو بلا شك ما أتاح لآنا فيدروفنا أن تعرف شيئاً عنا . وقد تكون فيدورا مخطئة .

إننا لانعرف ماذا نفعل : هل سيأتي مرة أخرى ، إنني لأفزع لجرد التفكير في هذا ، وعندما أخبرتني فيدورا بكل هذا بالأمس كاد يغمى علي . أي شيء آخر يريد مني ؟ إنني أرفض أن أراهم مرة أخرى . ولماذا يتعقب فتاة مسكينة مثلي ؟ إنني في خوف دائم . ماذا لو عاد بيكوف في هذه اللحظة ؟ ماذا يخبره لي القدر ؟ . تعال لرؤيتي فوراً يا ما كار اليكسيفتش . أرجوك أن تأتي حالا ، أستحلفك بالله أن تفعل .

ف . و



١٨ من سبتمبر

عزيزتى فارفارا

وقع فى منزلنا اليوم حادث لم يكن منتظرا ، ولا يمكن تفسيره ، فقد أنصف القضاء ، جور شكوف ، المسكين ، وظهرت براءته التامة ، وقد وقع القرار منذ فترة طويلة ، وذهب اليوم ليستمع إلى الحكم النهائي ، فانقلبت القضية لمصلحته ، ومهما كان خطأه فى الإهمال فقد تم الصفح عنه ، وحكم له بتعويض كبير لقاء ما أصابه من ضرر ، وهكذا تحسنت أحواله ، واسترد سمعته وشرفه .

وباختصار تحسن كل شيء وتحققت أقصى آمانيه . وعاد فى الثالثة بعد الظهر صاحباً كالشيخ ، مختلج الشفتين ، وقد ارتسمت عليهما رغم هذا كله ابتسامة ، فعانق زوجته وأولاده ، وهرعنا إليه جميعا نهشته ، وكان بآدى التأثير ينحن باستمرار ؛ ويشد على يد كل واحد منا عدة مرات . وبدأ كأنما قد ازداد طولا واستقام ظهره ، وذهبت عنه الدموع التى حللما ملأت عينيه .

كم كان مضطرباً ، ذلك المسكين . ولم يستطع أن يقف ساكناً لحظة واحدة ، فأخذ يلتقط أشياء ثم يضعها مكانها ، وهو يتسم وينحنى ؛ ويجلس وينهض ، ويقول أى شيء يثب إلى ذهنه ، أى كلمات عن شرفه وسمعته وأطفاله . ثم بكى ؛ وبكى معظمنا أيضاً . وأراد « راتازيف » أن يسرى عنه ، فقال :

— « ما قيمة الشرف أيها الصديق إذا لم نجد ما نأكله ؟ المال هو ماله قيمة ، وهو ما يجب أن تسعد به ،

ثم ربت على كتفه ، وبدأ لي أن « جورشكوف » قد أهين بهذا القول وإن لم يعبر عن ضيقه مباشرة ، ولكنه سدّد نظرة غريبة إلى راتازيف ثم نحى يده من على كتفه . وما كان ليفعل شيئاً مثل هذا قط من قبل . وطبيعى أن الشخصيات تختلف يافارنكا : فأنا مثلاً ما كنت أزهر إلى هذا الحد فى يوم بهيج مثل هذا ، فثمة أوقات ينحنى المرء فيها أكثر من مرة ، بل يتواضع لا لسبب إلا لمجرد الإفراط فى الشعور الطيب ورقة القلب ، ولكن لماذا أتحدث عن نفسى ؟ .

وقال « جورشكوف » ،

— « أجل ، إن المال شيء لا بأس به أيضاً : شكراً لله عليه .

ثم أخذ يردد قوله « شكراً لله عليه » ،

وطلبت زوجه غذاء ممتازا غالبا أعدته ربة الدار بنفسها . وهي امرأة طيبة القلب ؛ ولكن على طريقتهما الخاصة .

غير أن « جورشكوف » لم ينتظر الغذاء ، بل ظل قلقا حائرا ، وأخذ يزور كل الغرف سواء دعى أم لم يدع ، فهو يدخل الغرفة ، ويلتشم ثم يجلس ويقول شيئا ما ، أو ربما لا يقول شيئا على الإطلاق ثم ينهض خارجا . . وفي حجرة الضابط البحري دعى إلى المشاركة في اللعب ، وكانت النتيجة أنه أفسد عليهم لعبتهم ، ثم تركهم قائلا : لقد أحببت أن لعب قليلا لحسب .

وعندما قابلني في الدهليز نظر إلى عيني ولكن بطريقة غريبة جدا ، ثم شد على يدي مصالفا مرة أخرى ، ثم تركني ومضى وهو لا يزال يلتشم ولكن بطريقة غريبة أيضا — ابتسامة مفتعلة لاهياة فيها .

وكانت زوجه تبكي فرحاً وبدا كل شيء في غرفتهم وكأنه يحتفل بهذه المناسبة ، وبعد الغذاء قال لزوجته : أظنني سأستريح قليلا ، ثم استلق على فراشه ، وأخذ يداعب شعرها ، ثم التفت إلى زوجه وسألها .
— أين ابنتنا باتنكا الآن ؟ .

ورسمت زوجته علامة الصليب على الفور ، وذكرت له بأن « باتنكا » قد ماتت ، فوافق على حديثها قائلا .
— نعم . . إن باتنكا في السماء .

ورأت زوجها أنه ليس في حاله الطبيعية ، وأن المفاجأة قد أفقدته
اتزانه . فأخذت تلح عليه أن ينام . فقال . . سأفعل هذا . .
سأنام قليلا . .

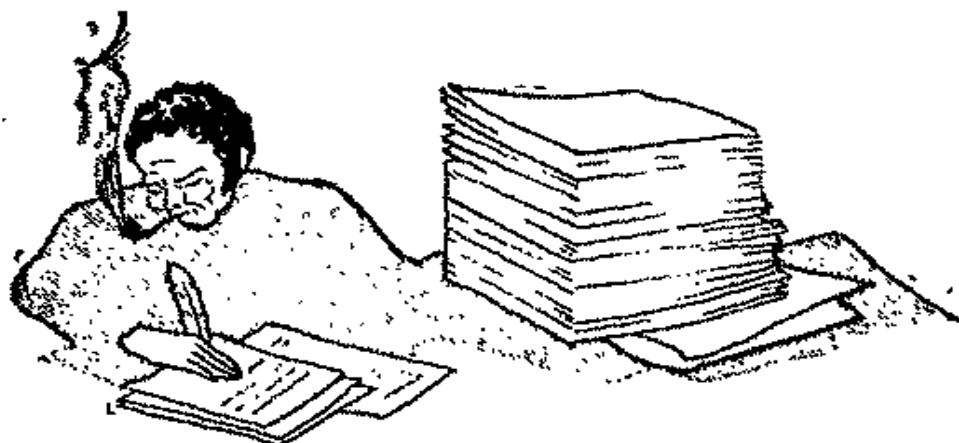
ونام على جنبه ورقد ساكنا فترة ، ثم أدار رأسه كأنما يريد الحديث .
ولم تفهم زوجته شيئا فسألتها عما قال ولكنه لم يجبها ، واعتقدت أنه نام
فحضت لزيارة ربة الدار ، ومكثت عندها نحو ساعة . ولما عادت وجدته
لا يزال نائما ، فجلست إلى شأن من شئونها شغلها لنصف ساعة نسيت
فيها كل شيء عنه . ولكن شيئا ما جعلها تقفز خوفا ، هو ذلك الصمت
القاتل . فنظرت إلى السرير ، ورأت أن زوجها لم يتحرك عن موضعه
ولما اقتربت منه وجدته ميتا . . لقد مات جورشكوف المسكين ميتة
مباغثة وكأنما مسته صاعقة ولا يعرف أحد لماذا ؟

إننى مضطرب حائر لا أكاد أثوب لنفسي . كيف يمكن أن يموت
إنسان بهذه الصورة ؟

ياله من مسكين هذا الرجل « جورشكوف » ، أى حياة بائسة عاشها
.. أى حياة ! لقد أخذت زوجته تبكي مذعورة على حين انزوت طفلته
في ركن من الغرفة . . ثم أعقب ذلك صراخ وعويل .

لقد سمعتهم يقولون : إن هناك حياة أخرى بعد الموت ، وأنحازين
وأسف إلى درجة لا يبلغ مداها التعبير ، فمن منا يستطيع أن يعرف متى
تحين ساعته . . فنحن هنا اليوم . . وغدا نمضى . . المخلص

ماكاردوفشكين



١٩ من سبتمبر

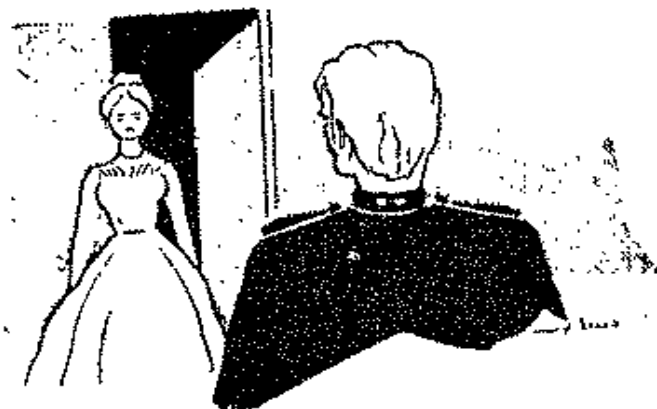
أعز أعمالي فارفار ألكسيفنا

أبادر فأنبئك أن « رانازيف » قد وجد لي عملاً مع مؤلف ، وكان
« رانازيف » قد أتى إلي يحمل مخطوطاً سميكاً ، . . . هذا عمل كثير
والحمد لله ، ونخط هذا المؤلف ردىء لسوء الحظ . . . ولست أدري
كيف سأتمكن من نسخه ولا بد من الانتهاء منه بسرعة على حين أنه قد كتبه
بطريقة غريبة حتى لا يستطيع المرء أن يفهم النص المكتوب . وقد اتفقنا
على أن يدفع أربعين كوبكاً عن كل صفحة أنقلها

لأنني أكتب إليك هذا كي أنبئك أنني سأحصل على المزيد من المال .
وداعاً يا حبيبتي فلي أن أبدأ العمل الآن .

صديقك المخلص

ما كار



٢٣ من سبتمبر

صديق العزيز ماكار أليكسييفتش

لم أكتب إليك خلال تلك الأيام الثلاثة، ولكنني عانيت فيها مشكلات. وهو ما كثيرة. فأمس الأول عاد د. بايكوف ولزيارتي، وكنت بمفردي إذ كانت فيدورا قد ذهبت إلى مكان ما وعندما فتحت الباب ذعرت أني لم أستطع حراكا، ولا بد أن وجهي قد شحب شحوبا شديدا ودخل وهو يضحك ضحكته العالية المعمودة واتخذ مقعدا، وجلس. وأخيرا استعدت أنا رباطة جاشي، وجلست إلى عملي في ركن من الغرفة، وسرعان ما ذهبت إلى مسامته عندما تفحصني بنظره، فرأى مقدار هزالي، وكيف غارت وجنتاي وعيناي، ولا بد أني كنت شاحبة بيضاء كصفحة من ورق. ولعله يتعذر علي من رأي منذ عام مضى أن يتعرف علي اليوم وجلس هو صامتا يمين في النظر ثم عاد إليهِ مرحة، وقال شيئا ما ولا أذكر ما أجبته به وعاد إلى ضحكته وقضى هنا ساعة كاملة، يتحدث ويسألني أسئلة، ولما هم بالانصراف، تناول يدي، ثم قال [وإني أنقل إليك كلماته بالضبط] ..

— أصرح بالحق يا فارفارا أليسك سيفنا ان آنا فيدورفنا هذه —
قريبتك وأصدق معارفى — مخلوق شرير .

ثم اضاف إلى هذا كلمة بذيئة ، ومعنى يقول

— لقد اودت بابنة عمك ساشاء إلى الضلال ، وحطمت حياتك
انت ايضا . . اما انا فقد سلسكت كأي نذل ، ولعله ضعف مشترك في
كل الرجال . .

وضحك بأعلى صوته ، ثم قال : إنه ليس بمن يجيدون الحديث وإن
كان قد قال أهم ما يريد فإن الشيء الذي اضطره إلى الحديث ، إنما هو
إحساسه بالشرف وإن كان ينوى اختصار حديثه . ثم اخذ يقول : إنه
بطلب يدي ، وإنه يعتبر أن من واجبه أن يعيد إلى شرفي ، وإنه رجل
غنى وإنه سيمضى في بعد زواجنا إلى بلدته في الالبس حيث ينوى صيد
الأرانب البرية . وإنه لن يأتي أبدا بطرسبرج فهي مدينة قذرة ، وله فيها
ابن اخت سيء الخلق ، وقد أقسم أن يمنع عنه أي نقود وإن هذا هو
سبب زواجه . إنه يريد وريثاً من صلبه . ثم بدأ يتحدث عن معيشته .
فأنا أعيش معيشة بائسة ، ولا أعجب من مرضى وهزالي مادمت أعيش
في حفرة مثل هذه ، وتسكن بموق البوشيك لو أنني قضيت هنا شهراً
آخر ، ثم أضاف ان المساكن في بطرسبرج قذرة وسألني . هل هناك ما
أحتاج إليه ؟ وقد مر كياني هذا العرض المفاجيء حتى إنني بكيت ،

ولست أدري لماذا ؟ . وأسأله هو فهم دموعي ؛ إذ ظنها تعبيراً عن عرفاني بحميله ، فأعلن أنه كان واثقاً على الدوام أنني فتاة طيبة حساسة متعلمة ، ومع هذا فقد ترددني اتخذ هذه الخطوة حتى قام بتجرباته الدقيقة عني ، ثم سألتني عدة أسئلة عنك وأضاف أنه قد بلغه أنك رجل شريف وأنه لا يحب من جانبه أن يشعر أنه مدين لك ، فهل تكفي خمسمائة روبل لتعويضك عن كل شيء قمت به من أجل ، فلما وضحت له أن ما قمت به من أجل لا يقدر بمال غضب ، وقال : إن كل هذا لغوفارغ ، وأحاديث روايات كما سماها ، وأضاف قائلاً . إنني لازلت صغيرة ولا شك ، انني مغرمة بقراءة الشعر ، وإن القصص والشعر كانا دائماً سبباً في انحلال خلاق الشباب ، وإن الكتب بصفة عامة قد افسدت الأخلاق لذا فهو يحتقرها ، ولو كنت قد بلغت من العمر ما بلغ هو لاستطعت أن أحكم على الناس أصوب مما أستطيع الآن ، وعندما أبلغ عمره سأعرف حينئذ بحسب حقيقة الناس . ثم ألقى علي أن أؤمن الفكر في اقتراحه ، فليس من الخير أن أتخذ خطوة مثل هذه دون تفكير وروية ، فالاندفاع وقلة التبصر هما على الدوام رذائل الشباب ، وطبيعي أنه يتلف على موافقتي وإلا فسيضطر إلى الزواج من ابنة تاجر في موسكو ، لأنه قد أقسم أن يحرم ابن اخته العاق الميراث ، ثم ترك خمسمائة روبل على إطار تطريزي على كره مني كي أشتري بعض الحلوى كما قال . ثم أكد لي أنني إذا ما مضيت معه إلى الريف فسأصبح سميناً وأعيش على خير

الأرض ، وهو جد مشغول في الوقت الحالى وقد أنهك نفسه طيلة اليوم ،
لهذا لقد استأذن منى منصرفا .

يا صديق العزيز . لقد فكرت كثيرا في كل هذا ، وقاسيت كثيرا ولكنى
اتخذت قرارى آخر الأمر : سأزوج هذا الرجل ، يجب ان أوافق على
عرضه ، فإذا كان في استطاعة مخلوق أن يخلصنى من عارى ، ويعيد لى
شرفى وسمعتى ويحفظنى مذلة الفاقة والصعاب والنكبات فإنه هو هذا
الرجل لا غيره . وماذا أتوقع من المستقبل ؟ وماذا أتوقع من القدر ؟

إن فيدورا تقول : إن على الإنسان ألا يفقد فرصة للسعادة وإذا لم تكن
هذه هي السعادة فما هي ؟ أما عن نفسى يا صديق فلا أرى سوى هذا
الطريق أمامى فأنا أعمل كثيرا حتى تدهورت صحتى ، هل أعمل إذن
خادمة أو مربية أو تقتلنى الوحدة حتى لا أكون ذات نفع ، وقد ولدت
ضعيفة البنية وكنت دائما عبئا على الآخرين ؟ إننى أدرك جيدا أننى
لست ذاهبة إلى الجنة ، ولكن . ماذا أفعل ؟ أخبرنى بربك ماذا أفعل ؟
وأي فرصة للاختيار عندى ؟

الواقع أننى لم أطلب نصحك إذ أردت أن أفكر في هذا الأمر
وأقرره وحدى ، والقرار الذى كتبته إليك لن يتغير وسأعلن بىكوف
به ، وهو يلح على قائلا . إن أعماله لا تستطيع الانتظار ، وإنه لا يستطيع
تأخير الرفاف لأى سبب .

ويعلم الله هل سأجد معادتي معه أو لا ؟ ولكنني سأוכל مصيري إلى
إرادة الله وحده . ويقال إن بايكوف طيب القلب ، وإنه سيحترمني
ولعلني سأعلم يوما أن أحترمه . فإذا أنتظر من زواج مثل هذا ؟

لقد أخبرتك بكل ما عندي ياما كار اليكسيفتش ، وأنا واثقة أنك
ستقدر موقفي . ولا تحاول أن تقعدني عما عزمته ، فلن تنجح . وفكر
لحظة في كل ما أدى إلى اتخاذ هذه الخطوة . وقد كنت قلقة أول الأمر ،
ولكنني أشعر بالهدوء الآن ، ماذا ينتظرنني ؟ لست أدري ، فالمستقبل
غامض . ليسكن ما يكون . لتكن مشيئة الله .

لقد وصل بيكوف الآن ، لذا فلن أكل هذا الخطاب وإن كان
عندي الكثير مما يقال .



٢٣ من سبتمبر

حبيبتي فارفار أليكسييفنا

أبادر للرد على خطابك يا عزيزتي وأعلن أنني في أشد حيرة ، ولا بد أن شيئاً ما على غير مايرام ، وقد دفنا جورشكوف بالأمس .

نعم . . إن « يايكوف » قد تصرف تصرفاً نبيلًا ، لكن هل وافقت أنت حقًا يا عزيزتي ؟ طبعي أن كل شيء لا يتم بغير إرادة الله . لا شك أن هذا صحيح ، ولا بد أن هذا الأمر أيضا وفق مشيئة الله : ووسائل الخالق مباركة وإن خفيت خفاء القدر . لا شك في هذا ، وفيدورا توافق أيضا .

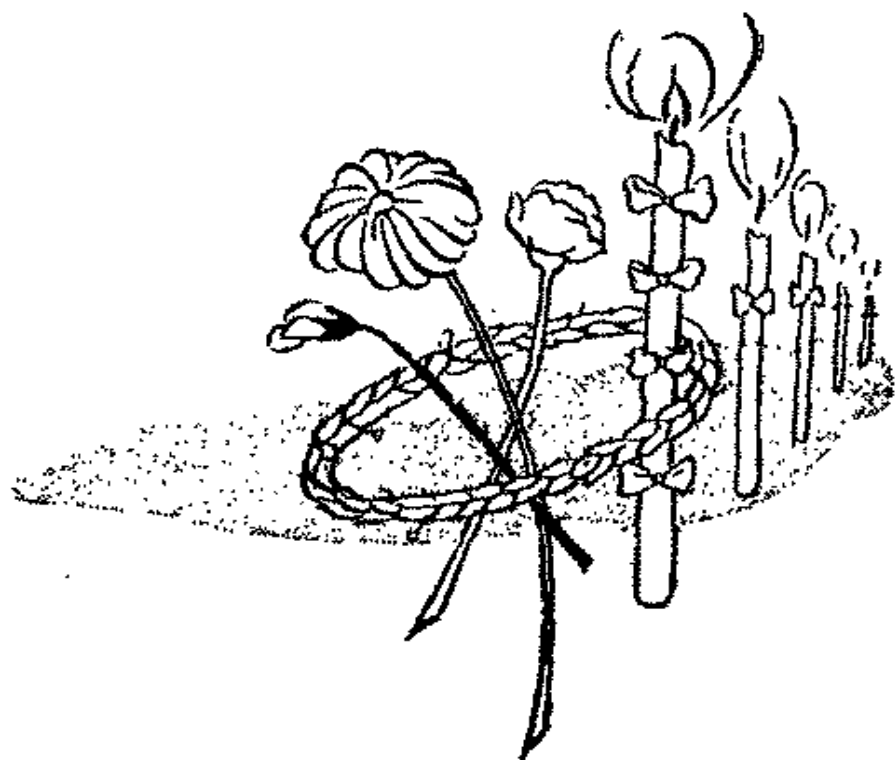
بالطبع أنك ستشعرين بالسعادة وتعيشين في مجبوحة يا عايتي الصغيرة

الحبيبية .. ياملاكي الصغير الجميل — لكن فيم العجلة يا فارنكا ؛ نعم ..
إن أعمال مستر بايكوف تنتظر وطبيعي أن لكل شخص شؤنه .. كل
شخص له عمل ينتظره ..

لقد رأيته وهو ينصرف ، إنه شخص يستطيع التأثير في الناس .. بل
أكثر من هذا .. ولكن لاشك أن هناك شيئا ما على غير مايرام . لست
أعنى أنه لا يستطيع التأثير في الناس بل أعنى اننى حائر تماما . كيف
يتأتى أن يتبادل الخطابات ؟ وكيف أعيش وجيدا ؟ إننى أفكر في كل
شؤنك كما طلبت مني أن أفعل ، إننى اجلس هنا طيلة وقتى وأفكر .
وكنت على وشك ان انسخ صفحتى العشرين من ذلك المخطوط عند ما
وصلنى خطابك . سترحلين إذن يا حبيبتى ولا بد أن تشتري كل ما تحتاجين
إليه : فساتين وأحذية وما إلى ذلك . إنى اعرف محلا فى شارع جندرو
خوفافيا ، ولقد سبق أن ذكرته لك من قبل .. أتذكرين ؟ ولكن
كيف سترحلين على الفور ؟ أى فكرة هذه ؟ أنت لا تستطيعين هذا .
إنه لمستحيل ! ويلزمك الكثير كي تشتريه ، وانت تحتاجين إلى عربة
أيضا ! والجو على غير مايجب : أنظري كيف تمطر ! كيف تتدفق
السماء انهارا ؟ هذا إلى انك ستصابين ببرد . وسيكون قلبك باردا أيضا ،
ألا تخشين أن ترحلى مع غريب ؟ وماذا سيبقى لى ؟ إن فيدورا تقول
إنك ستسعين ، ولكنها امرأة معتوهة ، ولا تفكر إلا فى تحطيمى .
هل ستحضرين صلاة العشاء ؛ سأذهب إليها لأراك . ولقد صدق

« بايكوف ، عند ما قال انك فتاة مثقفة حساسة فاضلة ، ولكنه سيفعل خيرا لو تزوج ابنة التاجر الأتريين معى هذا يا عزيزتى ؟ ان يفعل خيرا لو تزوج ابنة التاجر ؟ سأتى لزيارتك إذا ما حل الظلام ، فالظلام يكر الآن ولا بد أن آتى . ما إن يحين الغسق حتى أسعى اليك إنك تنتظرين بيكوف الآن ؛ وعند ما ينصرف سأتى . انتظريني يا عزيزتى فإنى سأتى لزيارتك .

ما كار دوفشكين



٢٧ من سبتمبر .

صديق العزيز ما كار

يقول مستر « بايكوف » ، إنه يجب أن يكون عندي ثلاث دست من القمصان المصنوعة من الحرير الهولندي ، لذا فعلى أن أجد خياطة تفصل لى دستين فما عاد هناك وقت ، إن مستر بايكوف ناثر وهو يقول إن ملابسى الرثة تثير أعصابه . وزفاننا سيتم بعد أيام خمسة ، وفى اليوم التالى سرحل . فستر بيكون فى عجلة من أمره ، ويرى أنه من المنجمل أن فضيع الكثير من الوقت . وقد تجولت كثيراً حتى لا اكاد أستطيع أن أقف على قدمى ، فهناك الكثير مما يجب عمله — الكثير جداً ، حتى أنى لأفضل أن أتركه دون أن أتم عمله ، شىء آخر ان ماعندنا من

الشرائط والدانتلا لا يكفي وما من أحد يبتاعه لنا . إن مستر بايكوف ، يقول : إنه لا يحب أن تبدر زوجته مثل خادمة في مطبخ ، وإنني لا بد أن أجدع أنوف سيدات المنطقة كلها .

فهل تستطيع أن تذهب إلى « مدام شيفون » ، في شارع « جوروخوفايا » ، تطلب اليها أن تبعث إلينا خياطة أو تتكرم هي نفسها بالحضور . إنني است بخير اليوم فشقتنا الجديدة باردة وغير مرتبة على الإطلاق ، ومستر بيكوف عمه عجوز مريضة حتى لا خشي أن تموت قبل رحيلنا وإن كان مستر بيكوف يقول : إن هذا لا يهم ، ولسكنها ستسترد صحتها فيما بعد . كل شيء هنا في اضطراب : مستر بيكوف لا يعيش هنا ، والخدم يتغيبون دائماً ، ويعلم الله أين يغيبون . وثمة أوقات لا يكون فيها غير فيدورا تقوم بالعمل كله وحدها . أما وصيف مستر (بايكوف) وهو الذي يدير كل شيء هنا فقد منح اجازة تستغرق ثلاثة أيام . ويأتي مستر بايكوف إلى هنا كل صباح ، وهو غاضب دائماً . وبالأمس ضرب وكيله ضرباً مبرحاً بما أوقعه في مشكلة مع الشرطة . إنني لم أجد من يحمل خطابي إليك لذا سأرسله بالبريد .

لقد كدت أنسى أهم شيء « قل لمدام شيفون » أن تغير النموذج وفقاً لعينة الأمس ، ولعلها تستطيع أن تأتي بنفسها وتريني النماذج الحديثة وأخبرها أيضاً أنني غيرت رأي وأريد الحروف على المناديل مطرزة

وليس بفرزة الساتان . إن الكلمة هي مطرزة هل ستذكرها .
وكدت أنسى شيئاً آخر ، أرجو أن تخبرها أن تكون حواشي المعطف
القرو عالية ، وأن تضفر يافاته وأن تحلى الأطراف بالدنتلا أو الشريط
العريض . أنك لن تنسى . أليس كذلك ؟ .

المخلصة

ف . د

ملاحظة : إننى خجلة من إرهابك بيماتي وأول أمس أيضاً كنت
تجربى هنا وهناك طيلة الصباح ؛ ولكنى مضطر إلى هذا ؟ فليس هنا ولو
ظل من النظام وأنا مريضة ، فلا تغضب منى يا مكار اليكسيفتش .
إنى منقبضة القلب ، ماذا سيكون مصيرى يا صديق العزيز العطوف . إننى
أخشى أن أتطلع إلى المستقبل إن الجحول يقلقنى ، ويجعلنى أعيش
فى حيرة .

ملاحظة أخرى : أرجو ألا تنسى ما طلبته منك ، وأخشى أن تخطئ .
لا تنس مطرزة وليس بفرزة الساتان .



٢٧ من سبتمبر

عزيزتي فارفارا أليكسييفنا

لقد نفذت كل تعليماتك بدقة . وقد أخبرني « مدام شيفون » أنها
ستطرز الحروف بنفسها ، وهذا أكثر ملاءمة أو لعلها قالت شيئاً آخر
لأفهمه جيداً . ثم قالت شيئاً ما عن ألكسانافاه ولكنني نسيت

مما قالت ، كل ما أذكره أنها تحدثت كثيرا عن الكانا فاه إنها عجوز
بجنونة مزعجة ! وأى شيء آخر تحدثت عنه ؟ لعلها من الأفضل أن تخبرك
بنفسها ، فأنا أموت تعباً من الجرى هنا وهناك ، ولم أذهب إلى الديوان
اليوم . ولكن لا تقلق بسببى يا عزيزتى فأنا مستعد أن أعود إلى كل محل
في المدينة إذا كان في ذلك راحتك . تقولين إنك تخشين المستقبل ،
ولكن لا تبتشى يا عزيزتى فلعل كل شيء يسير إلى أفضل ، لقد وعدت
خدام شيفون أن تأتي في الساعة السابعة ، ولكن لا أستطيع أن أطرده
هذا الكانا فاه الملعون من ذهني ، كانا فاه . سأتي لزيارتك يا عزيزتى ،
سأتي بكل تأكيد ، بل الحق أنني مررت بباب منزلك مرتين ولكن
بايكوف — أعني مستر « بايكوف » ، غاضب دائماً حتى . . . لأنني
حسناً . لا أستطيع ذلك فحسب .

ماكار دوفشكين



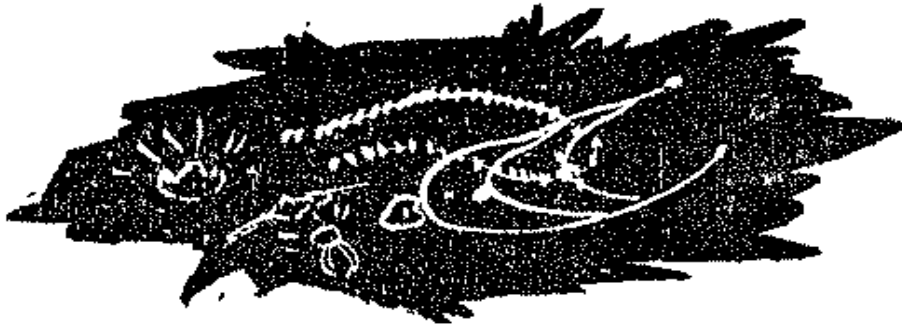
٢٨ سبتمبر

عزيزى ماكار أليكسييفيتش

أرجوك أن تسرع إلى محل الجوهري على الفور وتخبره ألا يصنع
هذه الأقراط من يا قوت واؤلؤ ، فستر « بايكوف » يقول : إن ثمنها
باهظ تماما . وهو حائق ويقول إنه قد أنفق الكثير وأن أمواله تسرق
منه . وبالأمس قال أيضاً إنه لو كان قد قدر مثل هذه التسكاليات
ما ورط نفسه قط ، ثم قال : إنه بمجرد أن نتزوج سنرحل ، وإن
نستقبل المهنيين وإننى يجب ألا أتوقع حفلا راقصاً أو مأدبة ؛ فما عادت
هناك فرصة للاحتفال . . .

هذه هي الطريقة التي يتحدث بها . ويعلم الله أني لا أعبأ بهذا كله
قط وأن مستر د بايكوف ، نفسه هو الذي أمر بها . ولم أرد عليه فهو
سريع السخط . ترى ماذا سيكون من أمرى . ؟

ف . د



٢٨ من سبتمبر

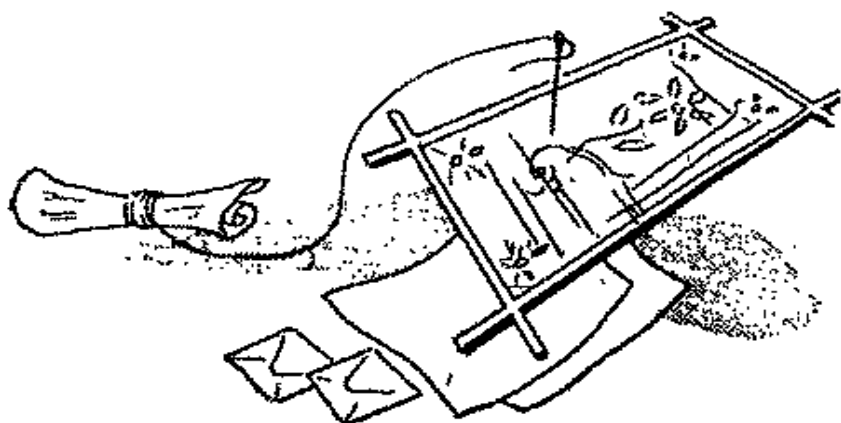
طفلتى المحبوبة ، فاز فارا أليكسييفنا

لأننى . . أعنى أن كل شىء قد تم بخير بالنسبة للجوهري ، أما عن
نفسى . فقد أردت أن أقول أولاً لآننى مريض لا أبارح فراشى ، وبالله
اللعين ! لا أمرض إلا عندما يصبح من الضرورى القيام بأعمال كثيرة .

وَمَا يزيد من شقائى أن سعادته قد ثار حديثاً وصرخ فى يميليان
إيفانوفتش حتى بهرت أنفاس المسكين . هذا ما أحببت أن أخبرك به .
وكم كنت أحب أن أطيل الكتابة ، وإن أخشى أن أسبب متاعب لاداعى
لها ، وأنا رجل بسيط ، ولست بالحاذق قط ، وأكتب ما يخطر بالبال :
حتى إنك لتجدى بعض ما أخطه على غير ما ينبغى أن يكون . على أى حال
ليس لهذا أهمية فعلاً .

المخلص

ماكار دوفشكين



٢٩ من سبتمبر

فارفارا أليكسييفنا ، يافتاى الصغيرة العزيزة :

قابلت اليوم فيدورا وعلمت منها أن زفافك سيعقد غدا ، ثم سترحلين بعد غد ، وأن مستر «بايكوف» قد استأجر الخيل فعلا. ولقد أخبرتك بهذه الأنباء عن سعادته ثم ماذا ... ، نعم . . . لقد راجعت هذه الفواتير التى أرسلها ذلك المحل فى «جورو خوفايا» وكلها صحيحة ، ولكنها فاحشة الثمن . لماذا يغضب مستر «بايكوف» منك ، على أية حال لتسعدى إلى الأبد يا حبيبتي ، ويسعدنى أن أعلم أنك سعيدة ، وكنت أود أن أحضر حفل الزواج لولا آلام ظهرى .

وإذا عدنا إلى ذكر الخطابات ، فمن سيجملها إليك ، فيدورا ، . . . لقد عاملتها معاملة طيبة ، فأنت عطوف وسيباركك الرب لهذا ، فلا بد أن يكافأ الخير ، ولا بد أن تحظى الفضيلة بشرف التقدير الإلهى .

حبيبتي — حبيبتي الوحيدة . إننى أحب أن أكتب إليك كل ساعة

كل لحظة — وعندي كتابك ، حكايات إيفان بلكين ، أرجو أن تترك
هذا الكتاب معي يا عزيزتي ، لا لاني أحب أن أقرأ كثيراً ولكن كما
تعرفين قد اقترب الشتاء وستكون أمسياته طويلة موحشة حزينة ،
وسيكون هذا هو الوقت الذي تستحب فيه القراءة .

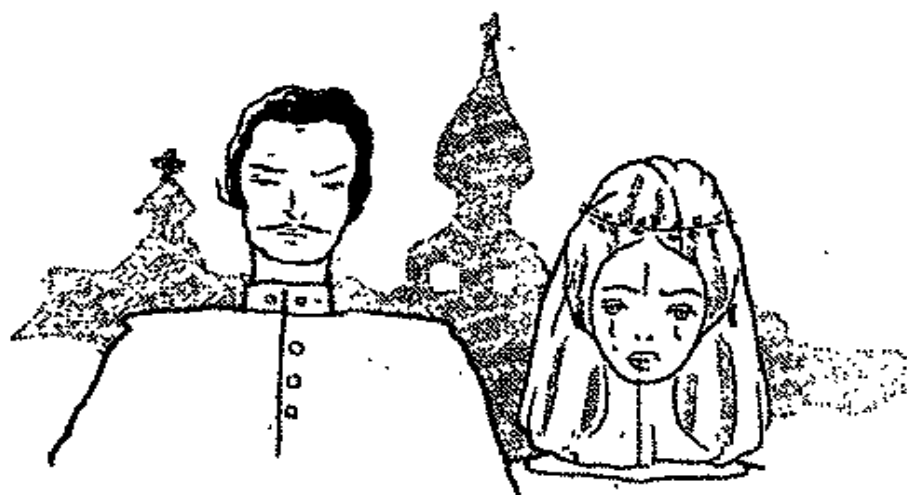
سأنتقل من غرقتي إلى غرفتك القديمة حيث تعيش فيدورا الآن ،
فاني لن أفترق قط عن هذه المرأة الشريفة . وأنت تعلمين كم هي
نشيطة .

ولقد زرت بالأمس حجرتك الخاوية . . وأخذت أذرعها وأأمل
الأشياء . . وهناك . . في ركن من الأركان رأيت إطار تطريزك
الحبيب بل إن به قطعة كنت تطرزينها . . وتأملت . . ثم رأيت أشياء
أخرى كثيرة ، وأسعدني كثيراً أن أراك استعملت إحدى خطاباتي
كسلسلة تلقين عليها خيط الحرير ، وعلى المنضدة أيضاً وجدت قطعة من
ورق قد خطت فيها كلمات قلائل : « عزيزي ما كار أليكسييفتش . .
لنني أسرع . . »

لا بد أن شخصاً ما قاطعك عندئذ ، وفي ركن الغرفة خلف الستار
رأيت سريرك الصغير يا يمامتي الصغيرة العزيزة المسكينة . .

أخيراً وداعاً . . وداعاً يا عزيزتي . . أرجو ألا تبطل في الرد .

ما كار دوفشكين



٣٠ من سبتمبر

ماكار أليكسييفتش ، يا أخاص الأصدقاء وأبقاهم

لقد انتهى الأمر ، وقضى الله أمراً كان محتوماً ، ولست أدري
ماذا ينتظرنى ، ولكنى سأخضع لمشيئته .

سرحل غداً وها أنذا أكتب هذه السطور لأودعك ، يا أصدق
أصدقائى ، يا صاحب الفضل على ، ياروحى . لا تحزن لفراقى ، واهنا
بحياتك واذكرنى ، وليكن الله معك دائماً . سأذكرك ، وسأذكر اسمك
فى صلاتى دائماً ، وهكذا تنتهى حياتى التى عشتها هنا ، والكثير مما سأذكر
هنا لن يمنحنى إلا القليل من العزاء فى المستقبل ولكن أعز الذكريات
إلى نفسى ستكون ذكراك ، فأنت صديق الوحيد ، الشخص الوحيد
الذى أحبنى .

لقد رأيت وعرفت أنك تحبنى ، وكانت ابتسامة منى أوسطر أكتبه

يكنى كى يجعلك سعيدا ، والآن عليك أن تفلسنى .. كم ستكون وحيدا ؟
ومن سيكون إلى جانبك يواسيك ؟ يا صديقى الوحيد العطوف . سأترك
لك الكتاب وإطار التطريز والخطاب الذى بدأتها ذات يوم ولم آتمه ..
أعد قراءة السطر الأول ثم تخيل ما يرضيك تنمة له ، فإله وحده .
يعلم ماذا كنت سأكتب . تذكر حبيبتهك فارنكا التى أحبتك كثيرا . لقد
تركت كل خطاباتك فى الدرج الأعلى من صيوان ملابس فيدورا .

كتبت إلى تقول إنك مريض ، ولكن مستر « بايكوف » قد منعنى
عن الخروج اليوم ، سأكتب إليك طبعاً ، ولكن الله وحده يعلم ماذا
سيحدث ، وعلى هذا فن الأفضل أن أودعك الآن يا حبيبى وكزى .
كم كنت أحب أن أعانقك !

وداعاً يا صديقى . وداعاً . اعتن بصحتك وعش سعيداً على الدوام
وسأصلى من أجلك . إن قلبى لينفطر حزناً ..

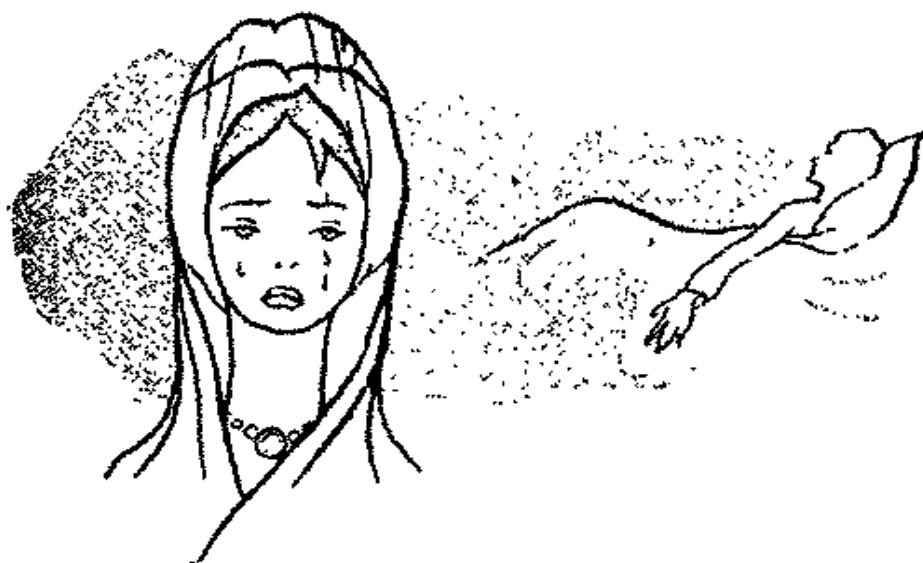
ومستر « بايكوف » ينادى

التي تحبك إلى الأبد

ف

ملاحظة : روحى مفعمة جداً مفعمة بالدموع . وتكاد العبرات
تخفقنى .. وداعاً ..

تذكر حبيبتهك فارنكا المسكينة ..



٣٠ من سبتمبر

فأرنكا : عزيزتى وحياتى وحبيبتى ..

لقد انتزعت منى انتزاعاً وما أنت ذا راحلة ... كنت أفضل
لو انتزعوا قلبي من صدري ! كيف سمحت لهم أن يفعلوا هذا ؟ أنت
تكرهين ومع ذلك ترحلين . ولا زال خطابك الذى وصل إلى الآن تبلىه
الدموع اذن فأنت لا تؤدين الرحيل فعلاً ، إذن لأنهم يرغبتونك على الرحيل
وانت آسفة من أجل . . . انت تحبيننى . من ذلك الذى سيعنى بك الآن
ستخيم على قلبك الصغير البرودة والشجن ، سيأكله الأسى ، ويحطمه
الشجن ، وتموتين هناك وحيدة ويدفنونك فى الأرض الباردة ، وما من
أحد يبكى فوق قبرك ، فسيكون مستراً ، باينكوف ، مشغولاً بصيد
أرانبه .

آه ، يا حبيبتى ، كيف استطعت أن تتخذى مثل هذه الخطوة ؟ ماذا
فعلت ؟ أى ضرر ألحقته بنفسك ؟ لأنهم يمضون بك إلى القبر ، لأنهم

يطردونك من الحياة ، فما أنت إلا مخلوقة رقيقة كريشة صغيرة يا حبيبتي وأين كنت أنا ؟ ماذا كنت أفعل ؟ لقد قلت لنفسى إن الطفلة مريضة ، وبرأسها خيالات . كان من واجبي . . . ولكن كلا ! لقد تصرفت كأبى أحق ، فلم أفكر فى شيء ، ولم أقرر شيئاً ، كأنما الأمر لا يعنينى . . . يا إلهى . . . بل لأننى كنت أركض هنا وهناك أبحث عن « الكنافاة » .

كلا يا فارنكا . سأنهض من فراشى ، سأشقى غداً وسأنهض من فراش مرضى ، وسألقى بنفسى تحت عجلات عربتك ، ولن أدمك ترحلين ! فهذا ظلم . وأى حق لهم أن يأخذوك منى ؟ سأذهب معك وسأجرى وراء عربتك إذا لم تأخذينى معك ! سأجرى حتى تخور قوائى وأسقط على الأرض .

ولمى أين ترحلين ؟ أتعرفين ؟ سأخبرك . إنك ذاهبة إلى الإستبس — الإستبس العازية الجرداء ككف يدى . فن سترين هناك ؟ زوجات الفلاحين اللواتى أنهكن العمل الشاق ، وأزواجهن السكرى . حتى الأشجار هناك قد فتتها المطر والبرد . هذا ما أنت ذاهبة إليه !

أما مستر « بايكوف » ، فسيكون مشغولاً يصطاد أرانبه البرية وأنت ، أتريدن أن تكونى زوجة مالك للأرض يا عزيزتى ؟ إذن فانظرى لنفسك يا ملاكى الصغير ! أتشبهين على الإطلاق زوجة مالك للأرض ؟ من الواضح أنك ليست كذلك يا فارنكا ! وللمى من سأكتب خطاباتك بعدك ؟ هل راجعت نفسك وفكرت ؟ إلى من سأكتب ؟ من سأناديه

قاتلا ، فارنسكا ، ؟ من سأناديه بهذا الاسم العذب ؟ أين سأجدك
يا ملاكى ؟

لأننى سأموت قطعاً يا فارنسكا فلن أستطيع إطلاقاً أن أتحمل مثل هذه
الصدمة . لقد أحببتك كما أحب ضوء النهار . أحببتك كأنما أنت ابنتى
أحببت كل شيء فيك ، وكل شيء يتعلق بك ، بل لقد عشت لك لحسب
يا حياتى . . .

كنت أعمل وأنسخ أوراقى وأنزله وأدون ملاحظاتى فى خطابات
جميلة ، لأنك كنت قريبة منى لحسب ، ولعلك لم تدركى ذلك أبداً ،
ولكن هكذا كان الأمر . استمعى إلى يا فارنسكا : كيف يتأتى لك أن
ترحلى عني ؟ . أنت لا تستطيعين ، فهذا مستحيل ، لا مجال للتفكير فيه إن
السما تمطر وسيصيبك برد بالتأكيد — وأنت جد ضعيفة شاحبة ولا شك
أن سقف العربة سيمتلئ بالثقوب ، وستتخطم العربة ستتخطم بالتأكيد
فى اللحظة التى تغادرين فيها المدينة لك أن تتوقعى هذا يا عزيزتى فما يشغل
صناع العربات فى بطرسبورج سوى آخر طراز . والأهداب الأنيقة ،
ولكنهم لا يستطيعون أن يبنوا عربة قوية . . أقسم أنهم لا يستطيعون .
. . سأركع على ركبتى أمام مستر بيكوف يا حبيبتى ، سأثبت له
أنه لا يستطيع أن يختطفك منى ، سأثبت لهم جميعاً هذا ، وأنت يا حبيبتى
يمكنك أنت وهو أن تتفاهما أيضاً ، قولى له إنك لا بد أن تقيمى هنا ،
وأنك لا تستطعين الرحيل .

لماذا لم يتزوج ابنة ذلك التاجر فى موسكو ؟ خير له لو كان قد

فعل . . فابنة التاجر أنسب له ، أنسب له كثيرا . أنا واثق من هذا ،
وعندئذ يمكنك أن تقيمي هنا معنا .

ولماذا تحتاجين إلى مستر بيكوف ؟ كيف استطاع أن يدخل قلبك ؟
ليس بسبب ، الكانافاة ، بالتأكييد : فلا هي ، الكانافاة ، آخر الأمر ؟ ..
ولكن لماذا أذكر ، الكانافاة ، ؟ . إنها حاقة يا حبيبتي ، فهذا موضوع
حياة أو موت وليس موضوع « كانافاة » ، فما الكانافاة إلا قطعة من
قماش : الكانافاة خرقة تافهة لحسب . أنتظري حتى أقبض مرتبي ،
وسأشترى كل الكانافاة التي تحتاجين إليها يا حبيبتي . سأشتريه من ذلك
المحل . أتذكرينه ؟ .. أنتظري فقط حتى أقبض مرتبي يا ملاكي العزيز .
آه يا فارفارا . . يا إلهي . . وهكذا لابد أن ترحلي مع مستر بيكوف
وإلى الأبد ؟ آه يا فارفكا .

كلا . . يجب أن تكتبي إلى خطابا آخر لحسب . . خطابا واحدا .
واكتبي إلى من الاستبس مرة أخرى . فإذا لم تكتبي فإن الخطاب
الذي وصل إلى الآن سيكون هو الخطاب الأخير : وهذا محال ، لا يمكن
أن يكون الأخير كيف يمكن أن يكون الأخير ؟ الأخير — فجأة . . كيف ؟

ولكني سأكتب إليك مهما كان الأمر ، وستكتبين إلى أنت أيضا .
وأسلوب يتخذ له شكلا ويتضح الآن . أسلوب . . أي أسلوب ، إنني
لا أعرف ماذا أقول . . وماذا أكتب . . ولكن هذا لا يهمني مادمت
أكتب وأكتب واستمر في الكتابة . . يا يمامتي الصغيرة — يمامتي
الفريدة الوحيدة . . يا حبيبتي . .



المؤلف

فيدور ميخايلوفيتش دستوفسكى
من كبار أدباء روسيا فى القرن التاسع
عشر ، ولد فى موسكو سنة ١٨٢١
وتخرج فى مدرسة الهندسة العسكرية

ولكنه تفرغ للحياة الأدبية وامتاز بالقدرة على البناء الدرامى
للقصة ، وعلى تصوير نماذج بشرية خالدة ، وفى سنة ١٨٦١
اشتغل دستوفسكى بالصحافة ومن أشهر أعماله « الجريمة
والعقاب » و « العبيط » و « الأخوة كرامازوف » التى نشرت
عام ١٨٨٠ .

وقصة « المساكين » هى أولى قصصه الطويلة وتعد قوة
جديدة فى الأدب الروسى وهى مهداة الى البائسين من الناس
الذين طحتهم ظروف الحياة القاسية فأثروا العزلة عن المجتمع .
واحتفلت روسيا بوفاة دستوفسكى سنة ١٨٨١ .